

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء السادس عشر

مؤرخو القرن السابع من

١- زبدة الحلب من تاريخ حلب

٢- بغية الطلب في تاريخ حلب

للمصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن

أبي جرادة - ابن العديم

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبين لنا بشكل واضح من خلال مواد المجلدات المتقدمة مدى أهمية حلب ، مع عظمة الأدوار التي شغلتها هذه المدينة العريقة ، ولقد رأينا هذه المدينة تنجب عددا كبيرا من المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ الاسلامي العام ، او بالتاريخ المحلي مع التركيز على احداث الحروب الصليبية ، ومثلما حدث في دمشق حين وصلت الكتابة التاريخية ذروتها مع ابن عساكر في كتابة العملاق « تاريخ دمشق » فإن الكتابة التاريخية وصلت الى الذروة في حلب بعد جيل واحد من ابن عساكر ، وذلك على يدي صاحب كمال الدين ابن العديم ، ونحن وان عدنا ابن العديم بشكل غير مباشر من تلاميذ ابن عساكر ، انه بتقدير اعظم مؤرخ انجبته بلاد الشام على الاطلاق ، وابن العديم هو صاحب كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله... ابن أبي جرانة ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمس مائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل الى المكتب للدراسة ، وهناك ظهرت استعداداته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به ابوه عناية كبيرة ، فحصد على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظرا لمنزلة والده ولما تمتعت به أسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافيا من معارف عصره الدينية والدنيوية ، ويروى بأن اياه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك انه - اي الأب - كان رديء الخط ، فأراد ان يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحا كبيرا للغاية ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله: « واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقيد فسواد ابن مقله ، وبدر ذو كمال عند علي ابن هلال » ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب

بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحدا من المع
النساخ في تاريخ العربية واكثرهم ضبطا وبراعة وامانة ويقظة
ودراية.

وفي باب العناية في انشاء ابنه وتثقيفه صحب احمد بن هبة الله
ولده عمر في رحلاته واسفاره ، حيث زار دمشق اكثر من مرة كما
زار بيت المقدس ورحل الى العراق والحجاز.

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل امامه كلها
مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبه وثقافته واسرته الفضل الاكبر
في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلا للتعرف الى اسرة
ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته:

يعرف الجد الاعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن ابي جرانة ،
وكان صاحباً لامير المؤمنين علي بن ابي طالب ، ينتسب الى ربيعة
من عقيل احدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان
يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش اولاد آل ابي جرانة
واحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم احدا افراد اسرة ابي
جرانة الى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ
ان الم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ،
واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال
بلاد الشام ، ومفتحة على
الطريق الى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع اسية الصغرى
والاراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى اسرة نمت مع الايام
عددا ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الاسرة الاملاك ، كما
ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء
وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت اسرة آل ابي جرانة من
ابرز اسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على ايدي
جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ،
انما في القرن الاخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، اخذ رويدا

يعم في الاستعمال اكثر من الاسم الاصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو « العديم » ، ونحن لانملك تعليلا لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت: « سألته أولا لم سميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من اهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال: هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا».

ودانت اسرة ابن ابي جرامة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالاندسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن الخامس الحادي عشر ، هذا وان كنا لانعرف بالتحديد تاريخ اخذ هذه الاسرة بمذاهب السنة امكنا ان نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان) وهو امر بحثته بالتفصيل في مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية (ونظرا لعلاقات اسرة آل ابي جرامة الخاصة مع سلطات حلب ، لابد ان الحال اقتضى المسائرة والتحول الى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي.

وفي عوبة نحو سيرة صاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الاول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الاجل بهاء الدين ابي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله - المعروف بالعجمي ، وكان شيخ اصحاب الشافعي ومن اعظم اهل حلب منزلة وقدر وثروة ومكانة سياسية وبنية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق صاحب كمال الدين اولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه احمد طفلا يدب على الأرض ، ويمكنا التعرف الى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على ابيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر ان ابن العديم مات دون ان يقوم باعادة النظر في مؤلفه « بغية الطلب» ولم يقم بتبويضه ، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، انما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى ان مكانة الكتاب واهميته هي هي ، ذلك ان اهمية الكتاب نابغة مما

حواه من مواد تاريخية نهلها ابنُ العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابنُ العديم كان مصنفًا ممتازًا ولم يكن « مؤرخًا » حسب مصطلحات ايامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تحليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات ايامنا هذه...

ومنذ ان بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب اخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملوك المظاهر غازي بن صلاح الدين - صاحب حلب - فيكرمه ويقربه ويقبل عليه اكثر من اقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجة

سنة ست عشرة وستمئة ولي ابن العديم اول عمل رسمي لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت وكانت من اجل مدارس حلب وارقاها ، كل هذا وحلب اعمر ماكانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، الا انه رؤي اهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، والقي الدرس بجنان قوي ، ولسان لودعي ، فأبهر العالم واعجب الناس ويبدو انه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت اجل مدارس حلب ، وهي مدرسة مازالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه.

ومع مرور الايام علت مكانة ابن العديم ، فسافر عن ملوك حلب الى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة واسية الصغرى ، والى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، وادع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن ان نرى اهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية اخرى يمكننا ان نرى المدى الذي وصلت اليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات.

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد اودع ما أخذه عن علماء عصره ، ومارأه من احداث او شارك به ، اودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب اشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه.

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل الى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عددا كبيرا من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل اشهر كتبه « كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب » و « كتلل الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري » و كتابه بغية الطلب الذي اشرنا اليه حتى الآن كثيرا ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في اجزاء ثلاثة في دمشق ، واعدت الآن تحقيق اكثر من نصفه ، واعمل الآن على تحقيقه كله. اما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الاولى بحلب ثم اعيد طبعا في القاهرة ، واقول قطعة ذلك ان الكتاب لم يصلنا كاملا بشكل مباشر.

وعندما قلت بشكل مباشر اردت ان اقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات ان واحدا من احفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتابا حول القاضي الفاضل دعاه باسم « سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل » ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي إن في ثنايا الكتاب ورد في احدي رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم ان يعرف بالمعري ، فقال: قال جدي في كتابه الانصاف والتحري : واثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصورا على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سابقا ، ومضيت الى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ،

فتيقنت من عدم دقته وأن حفيد ابن العديم نقل قليلا من كتاب جده الانصاف والتحري.

ويعود سبب انتقال ابن العديم الى القاهرة ، الى تعرض مدينة حلب الى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته الى دمشق ، ثم منها الى غزة فالقاهرة ، ويبدو انه عاد بعد عين جالوت الى دمشق ، وربما اراد التوجه الى حلب ، او توجه اليها فعلا ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي اثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد الى القاهرة ، حيث امضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الاولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكننت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق وقد انتزعت من هذا الكتاب جميع المواد الواردة خلال التراجم ولها علاقة بموضوع الحروب الصليبية ، وبالوقت نفسه اعدت تحقيق ما يزيد على النصف الاخير من كتاب زبدة الحلب ، وهذا الكتاب يخالف عن كتاب بغية الطلب ، فهو اشبه بكتاب الحوليات ، ويمائل كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ولا يمكن عده ملخصا لكتاب بغية الطلب ، وكان المرحوم الدكتور سامي الدهان قد حقق هذا الكتاب ونشره في اجزاء ثلاثة ، وبذل الدكتور الدهان جهودا طيبة في تحقيق الكتاب لكنه اخفق في عدة اماكن في قراءة النص بشكل صحيح ، الى حد ان « عين الجر » جاءت عنده « عبر الجسر » يضاف الى هذا قام رحمه الله باقحام عناوين كثيرة جدا في متن نص الكتاب ، ويمكن وصف هذا بالتزييف ، واعتمدت في عملي على المخطوطة نفسها التي اعتمدها الدكتور دهان ، بل اكثر من ذلك على المصورة نفسها ، لأن مصورات مكتبته رحمه الله بيعت في دمشق فشرت بعضها ، واقوم الآن بتحقيق الكتاب كله وسيخرج - ان شاء الله - في جزئين فقط والله الموفق .

ولواد ابــــن العــــديم في بغية الطلب وزبــــدــــة

- ٧٠٨٨ -

الحلب مكانة سامية ، لهذا سلف وترجم بعضها الى الفرنسية والانكليزية ، ولا بد الآن من اعادة النظر بهذه الترجمات بعد اعادة ضبط النصوص الاصلية.

الله جل وعلا اسأله التوفيق وله الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه اجمعين.

دمشق ١٥ / ٥ / ١٩٩٥

سهيل زكار

من زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم

وأما (١) سليمان بن قطلمش فإنه حاصر حلب مدة ، ثم ترددت الرسل الى أهل حلب في التسليم ، فاستقرت الحال بينهم على موادة مدة .

وسير سليمان بن قطلمش قطعة من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا مع شرف الدولة ، فهربوا ، ولحقهم شدة عظيمة من دخول البرية في حزيران .

وتوجه سليمان الى معرة النعمان وكفرطاب ، وتسالمها ، ثم سار الى شيزر ، فقاتلها وقرر أمرها على مال يحمل اليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرجال ، وعدل اصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب . (٢)

وجرت بالمعرة اسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جمادى الاولى ، يطلب اصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتل جماعة من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي (منها وجعل) (٣) على أهل البلد عشرة الاف دينار .

وأما بلاد شرف الدولة فملكها (بعده أخوه) (٣) ابراهيم ، ماخلا حلب ، وكاتب من بحلب في تسليمها اليه فلم (يره الخبر) (٣) .

وأما الشريف حسن الحتيتي فإنه كان متقدما الأحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشريف المذسوبة اليه ، وبنى عليها سورا دائرا ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفا على نفسه ان يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتفق الشريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن

كاتباً السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب اليه ، ويحدثانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قدسرين وتحول اليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشريف حسن لنجدة تصله من السلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل إلى تاج الدول تدش يستدعيه إلى حلب ليتسلمها .

وعرفه ما استقر بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرح بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قدسرين .

ووصل إلى تاج الدولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى الناعورة وعول على مراسلة الشريف حسن فان سلم اليه تفلت والا عاد لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عين سليم (٤) ، وتراءى العسكران ، فدبر ارتق عسكر تاج الدولة احسن تدبير ، والتقوا فانهمز عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الاربعاء الثامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكره والعرب النين معه جميع مساكن في العسكر .

واختلف في قتل سليمان ، فقيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النصرة نزل عن فرسه ، وقتل نفسه بسكين خفه ، وقيل : ان المصامدة تتبعت اسلاب القتلى فظفروا بدرع مرصع بالياقوت والعقيان الذهب .

ونمى الخبر الى تاج الدولة ، فأحضره فقال « هذا يشبه سلب الملوك » ، وسار الى الموضع واذا به مختلط بدمه فقال : « يشبه أن يكون هذا » . وقد كان قال لهم : « لا تبيذوه لي حتى اريكموه من بين القتلى » ، ف قيل له : « ومن أين علمت ذلك ؟ » فقال : « قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه » .

ثم قال بلسانه : « ظلمناكم ، وأبعدناكم وذقتكم ! » ثم مسح عينيه واغتم لقتله ، وترحم عليه ، وأحضر أكفانا ذهبية فكفنه ، وصلى عليه ، وحمله الى حلب فدفنه الى جانب مسلم بن قريش قبل ان ينقل مسلم الى سر من رأى ، وقيل : دفن معه في قبر واحد .

ولما جرى ماجرى من قتل سليمان وسار تاج الدولة الى حلب عدل الشريف حسن الحتيتي عما كان اتفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب الى تاج الدولة ، واحتج بأن كتب ملك شاه وصلته بتجهيز العساكر اليه .

فأقطع تاج الدولة بلد حلب وأعمالها لعسكره الا ما كان لبعض العرب النين وفدوا عليه ، فانه أقره في أيديهم ، ثم رحل الى مرج دابق (٥) وأقام أياما .

ثم عاد ونازل حلب ، فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبي ، وراسل تاج الدولة في تسليم حلب اليه ، ورفع بعض اصحابه بحبال الى بعض ابراج السور ، وساعده قوم من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدولة في ذلك الموضع ، وتسامع الناس فنادوا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة .

فانهزم هبة الله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه الى القلعة الكبيرة الى سالم بن مالك ، (٦) وبقي الشريف حسن في قلعته الجديدة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فضافوا على أهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمنه تاج الدولة بوساطة ظهير الدين أرتق .

وخرج الى أرتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلم القلعة الى تاج الدولة تتش ، وسيره أرتق الى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدولة بن قريش لما ولاه فيها أوصاه أن لا يسلمها الا الى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيته ، وامتنع أن يسلمها الى تتش .

وأقام تتش بمدينة حلب الى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وأحسن الى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أن السلطان ملك شاه وصلت عساكره الى نهـر الجوز (٧) قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدولة الى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عنة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه اياما يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع برسق واياز وبوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم الى بلد الروم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ، ووصل بعضهم الى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل الى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إن السلطان وصل بعدهم الى الرها فسلمها اليه الفلاردوس (٨) واسلم على يده ، وسار منها الى قلعة دوسر - وهي المعروفة بجعبر - فتسلمها في طريقه من جعبر بن سابق القشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطريق .

وسار حتى وصل حلب في الثالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

وتسلم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشام ، وعوض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، وأقطعه معها الرقة وعدة ضياع .

وتوجه السلطان الى أنطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية بغيا سيان بن الب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها ، وتسم الى السويبية (٩) وصلى على البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب .

وعاد الى حلب ، ورتب بها الأمير قسـم الدولة آق سنقر (١٠) ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرؤساء بن الخلال في جمع الأموال .

ووصل اليه الشريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العونة الى حلب ، ويذكر خدمته وما جرى عليه ، فتظلم منه أهل حلب فلم يأذن له السلطان فيما التمس .

وكان هذا السلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلا حتى أن أحدا لا يقول : ان أحدا من ذلك العالم العظيم من عسكره - وحزره أربعمائة ألف - أخذ لأحد من الرعايا قسرا وظلما ما يساوي درهما واحدا ، حتى أن البازيار الذي له اقتنص طائرين من السجاج من الأثارب (١١) طعما للبزة في الطريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهده حتى أعادها الى صاحبها بعد عونة من أنطاكية .

وخرج هذا السلطان الى ضياع معرة النعمان يتصيد ، وبات بضیعة بينها وبين المعرة ثلاثة فراسخ ، فابتاع منها أصحابه

ما احتاجوه بأوفى ثمن ، ووضع السلطان في هذه السنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبق من أيستخرج مكسا في مملكته .

وأقام السلطان بحلب إلى أن عيد بها عيد الفطر ، وعاد مذكفنا إلى الجزيرة ، وقد قرر ولاية حلب ، وولى بقلعتها نوحا التركي ، وبلغه عصيان تكش (١٢) بترمز فسار السلطان ، وقطع ما بين حلب ونيسابور في عشرة أيام ، وعاد مذكفنا إلى الجزيرة وقد قرر ولاية حلب لقسيم الدولة أق سنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكنه فيها .

وقيل أنه مملوك لملك شاه ، وقيل أنه لصيق وأن اسم أبيه آل ترغان ، وولى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخلال الرحبي ، وقال شاعر حلبى فيه وفي الوزير ابن النحاس :

قد زنجر العيش على الناس
ما بين « خلال » و « نحاس »

فأحسن قسيم الدولة في حلب السيرة وأجمل السياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطاع الطريق ، وتبّع الذعار في كل موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلابيين إليها من كل مكان .

وحكى لي والدي - رحمه الله - : أنه استأصل أرباب الفساد إلى حد بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لا يغلق أحد بابه ، وأن يتركوا آلاتهم التي للحرث في البقاع في الليل والنهار .

فخرج متصيذا فمر على فلاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة

الحرث معه الى منزله ، فاذفرد من عسكره وقال له : « ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لايرفع أحد من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث ؟ » فقال: « بلى والله - حفظ الله قسيم الدولة - والله لقد أمنا في أيامه من كل ذاعر ومفسد ، ومارفعت هذا خوفاً عليها ممن يأخذها ، وإنما ههنا دويبة يقال لها ابن أوى إذا تركنا هذه العدة ههنا جاءت وأكلت هذه الجلود التي عليها » .

فلما عاد قسيم الدولة أمر بالصيادين وبثهم في أقطار بلد حلب لصيد بنات أوى حتى أفندوها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سبباً لقلتها في بلد حلب الى يومنا هذا ، دون غيرها من البلاد .

وفي أيام قسيم الدولة جدد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خلاف بين أهل لطمين (١٣) وبين نصر بن علي بن منذر في سنة احدى وثمانين ، فخرج أق سنقر الى شيزر ، وقاتلها ، وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلاً ، وعاد الى حلب بعد أن نهب ربضها ، واستقرت المودعة بينه وبين نصر صاحب شيزر .

وكان أق سنقر قد تزوج خاتون داية السلطان ملك شاه (١٤) ، وكانت جالسة معه في بعض الأيام في داره بحلب ، وفي يده سكين فأومأ بها اليها على سبيل المداعبة والمزاج ، فد وقعت في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمد لها ، فماتت وحزن عليها حزناً شديداً ، وتأسف لفقدائها ، وحملها في تابوت لتدفن في مقابر لها بالشرق ، وخرج من حلب لتوديع تابوتها في مستهل جمادى الآخرة .

وتسلم أق سنقر حصن برزويه (١٥) ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الأرمن - وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفار من أعمال أنطاكية - وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدمه في ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين .

وكتب ولاية الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايقونه من خالف بن ملاعب بـحمص من قطع الطريق واخافة السبيل ، فكتب الى قسيم الدولة وتاج الدولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ، وأعطاهما السلطان تاج الدولة تتش .

ونزل قسيم الدولة على أفامية ، فأخذها من خالف بن ملاعب وسلمها إلى نصر بن منذر .

ثم إن السلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى اصبهان ، فحبسه الى أن مات ملك شاه ، وتوجه إلى مصر وعاد إلى الشام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلمها قسيم الدولة الى أن ورد عليه أمر السلطان بتسليمها الى تتش (١٦) .

ومات السلطان ملك شاه ببغداد في الليلة السادسة عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أق سنقر قد خرج من حلب وافدا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد الى حلب ، وخطب لابنه محمود مدة يسيرة ، ثم انه خطب بعد ذلك لتاج الدولة تتش - على ما يذكر - (١٧) .

ولما عاد الى حلب قبض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاج الدولة قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم الى طاعته ، والكون في جملته ليسيروا معه الى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوه الى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أول سنة ست وثمانين ، وسار إليه قسيم الدولة ويغي سيان وبوزان ، ووثق به أق سنقر ، وفتح تاج الدولة الرحبة ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهب للقاء تاج الدولة .

والتقى العسكران على دارا (١٨) ، وعاد كل فريق الى موضعه ، فركب الأمير قسيم الدولة في خلق من العسكر ، وحمل حتى توسط عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه باقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم ، فقتلهم تاج الدولة صبيرا وسبيت الحرم ، وقتل جماعة من نساء العرب ذفوسهن .

وأمر تاج الدولة بعد ذلك بجمع الأسرى ووهبهم من محمد بن شرف الدولة - وكان قد صار في جملته قبل الحرب - وأقطعه نصيبين (١٩) .

وعظمت هيبة تاج الدولة بعد هذه الواقعة ، وراسلته زوجة أخيه تحثه على الوصول ، واستقر الحال على أن تتزوج ، فسار عند ذلك بعد أن تسلم من ابن جهير أمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصل الى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا الى بر كيارق ليكونا في خدمته - وكان بالقرب من الري (٢٠) -

وكان سبب نفار قسيم الدولة وبوزان تقريب تاج الدولة يغى سيان وميله اليه ، وقيل : لأنه لم يولهما شيئا من البلاد التي افتتحتها ، فرجع تاج الدولة الى بيار بكر ، وشحنها بالرجال ، وسار منها الى سروج فأخذها وولى فيها بعض ثقاته .

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان الى باب السلطان بر كيارق ، واكرامه لهما ، وانهما وجدا خاله مستوليا على أمره ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبطت يد بر كيارق ، واستقامت أحواله ، وخاطبه أق سنقر وبوزان ان يسير معهما إلى بلادهما حلب والرها وحران ، لئلا

يجري عليهما حادث من تاج الدولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدولة ، فسار معهما الى الرحبة ، وعقد بينهما وبين علي بن شرف الدولة حلفا .

وسار علي بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعه من عسكر السلطان بر كيارق مع قسيم الدولة ، فأوصلوه الى حلب ، فدخلها في شوال من سنة ست وثمانين وأربعمائة .

وسار بوزان الى بلاده ، وعاد من كان معهما الى السلطان ، وأما تتش فإنه قطع الفرات وتوجه الى انطاكية ، وأقام بها مع يغى سيان مئة ، فغلت بها الأسعار ، فسار الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة .

وكان وثاب بن محمود مع نفر يسير من بني كلاب ، فأنفذاق سنقر بعد مسير تتش الى دمشق من أحرق حصن أسفونا (٢١) وحصن القبة ، وقبض اقطاع وثاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس بسعاية المجن بركات الفروعى به الى قسيم الدولة ، ولم يزل به الى أن أمره بخنقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السنة .

وفي شهر ربيع الاول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدولة تتش من دمشق ، ومعه خلق عظيم من العرب ، ولقية يغى سيان بعسكر انطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياما ، وزوج ولده الملك رضوان من ابنة يغى سيان ، وسيره عائدا إلى دمشق .

وسار تاج الدولة بعساكره فنزل تلمذس (٢٢) ، وأقام بها أياما ، فوصله الخبر بوصول كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ، ويوسف بن أبق صاحب الرحبة ، في ألفين

وخمسمائة فارس الى حلب ، لنجدة أق سنقر ، فعدل تاج الدولة إلى الحانوته ، ورحل إلى الناعورة ، وعول على قصود الوادي (٢٣) وأن يسير منه إلى أعمال انطاكية ، وأخذ العسكر دواب النقرة و(أحرق) بعض زرعها .

فخرج أق سنقر ومن وصله من النجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب - وكان قد اطلقهما من الاعتقال في هذه السنة - ومحمد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وعدة عسكره تزيد عن ستة آلاف فارس وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عدة .

وقصد عسكر الملك تاج الدولة ، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السنة ، والتقوا على « سبعين » (٢٥) ، وكان أول من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربوفا لم يتمكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سنقر العرب الذين معه ، وخاف ميلهم إلى تاج الدولة ، وكان عسكر تاج الدولة في مثل هذه العدة من العرب والرجالة ، وكان الترك معه في قلة لأن أصحابه وخواصه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظة واحدة ، وانهزمت العرب وبوزان وكربوفا نحو حلب فدخلها ، واستأمن يوسف بن أبق إلى تاج الدولة .

واسر أق سنقر وجماعة من خواصه ووزيره أبو القاسم بن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدولة أسيرا ، فقتله صبورا ، وقال له تاج الدولة : « لوظفرت بي ماكنت صنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » فقتله .

وحكى وثاب بن محمود قال : « جلس تاج الدولة ، وطلب قسيم الدولة ، فأحضر مكشوف الرأس ، مكثوفا ، فقام تاج الدولة ، وكلمه كلاما كثيرا ، فلم يرد عليه جوابا ، فضربه بيده أطار رأسه » .

وحمل رأسه الى حلب وإلى دمشق ، ودفن جسده في القبة التي على سطح جبل قرنبيبا (٢٦) ، غربي المشهد الذي ابتناه بقرنبيبا ، ثم نقله ابنه زكي لما فتح حلب إلى مدرسة الزجاجين (٢٧) ، ووقف شامر - قرية من بلد حلب - على من يقرأ على قبره .

واختار قسيم الدولة وقتا للخروج الى اللقاء ، وهو وقت قران زحل للمريخ في برج الاسد - وهو طالع بيت السلطان بحلب - وكان موقنا بالظفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقوه بالحبال لكتافهم بها ، وكان تاج الدولة قد عزم على ما ذكرناه ، ولم يكن مؤثرا لقاءه ، فنصره الله تعالى كما شاء وأراد ، ولا معقب لحكمه ، ولاتأثير لشيء في ملكوته .

وأسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تاج الدولة لابن أخيه وثاب بن محمود .

وعول بوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظار النجدة من بر كيارق ، لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل ، وقرروا مع الأحداث ذلك .

فوصل تاج الدولة بعسكره الى حلب ، وتحير أهلها فيما يفعلونه ، فبادر قوم من الأحداث ممن لا يعرف ولا يذكر ففتحوا باب انطاكية .

وبخل وثاب بن محمود في مقدمة أصحاب تاج الدولة الى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بقلعة الشريف ، وسلمها الى تاج الدولة فدخلها ، وبات بها ، فراسله نوح والي القلعة

الكبيرة ، وسلمها اليه بعد ان توثق منه ، وطلع تاج الدولة اليها في الحادي عشر من جمادى الاولى من السنة ٠ (٢٨)

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبتة صبرا ، وأخذ كربوقا واعتقله بدمص ، واقطع الشام لعسكره ، واقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سيان ، ورتب أبا القاسم بن بديع وزيرا بحلب .

واقام ثلاثة أيام ثم توجه فقطع الفرات ، وتسلم حران ، وسار الى الرها فتسلمها ، وقيل : بأن واليها امتنع من تسليمها الا بعلامة من بوزان ، وأن بوزان كان محبوسا بحلب ، فأنفذ اليه من قطع رأسه ورماهم به ، فسلموا الرها اليه ، وتسلم بيار بكر .

وسار الى ميفارقين فقتل بني جهير بعد ان قطع رؤوس أولادهم وعلقها في رقابهم .

وعدل عن الموصل ، وسار للقاء زوجة أخيه خاتون الجلاية لاتمام ماكان استقر بينهما فماتت في الطريق .

وتوجه تاج الدولة الى الري ، فوصله خلاق كثير من التركمان وعساكر أخيه ، وملك كل بلدة مر بها ، وخطب له على منابر الاسلام : الشام والفرات ، وبغداد .

وعند وصوله الى همذان كتب الى ولده الملك رضوان يستدعيه من دمشق فتوجه إليه ومعه بقية من تخلف من أصحابه بالشام .

وبخل تاج الدولة الري وملكها في المحرم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وخرج بركيارق من أصبهان ، والتقوا على خمسة فراسخ من الري في يوم الأحد السابع عشر من صفر ، فانهزم عسكر تاج الدولة قتلى ، واستبيح ونهب ، وقتل ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه في الحرب .

وقتل تاج الدولة بعض أصحاب قسيم الدولة بعد أن اصطنعه وقربه ، ضربه بذشابة في ترقوته اليسرى فوقع ، وقطع رأسه وطيف به العسكر ، ثم حمل الى بغداد فطيف به ، وتفرق من سلم منهم إلى مواضعهم .

ووصل الخبر الى ولده الملك رضوان ، وهو نازل على الفرات بعانة (٢٩) متوجها الى والده ، فقلق وخاف من وصول من يطلبه فحط خيمه في الحال (٣٠) .

ورحل مجدا حتى وصل حلب في جماعة من غلمانه وحاشيته ، وترك باقي عسكره من ورائه ، فسلم وزير أبيه أبو القاسم بن بديع إليه المدينة والقلعة ، وصعد إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها .

ووصل إليه إلى حلب من الفل أخوه أبو نصر دقاق (٣١) وجناح الدولة حسنين ، فاستولى جناح (٣٢) الدولة على تدبير ملك الملك رضوان ، وكان تاج قد جعله مدبرا له ، وهو أتابكه في حياته ، وجعل دقاق مع أتابك ظهير الدين .

ولما افتتح بيار بكر سلمها الى ظهير الدين ، وشمس الملوك دقاق معه ، ولم يزل بها الى أن سار الى الري فسارا معه .

وعاد دقاق الى حلب فأقام بها مدة يسيرة ، ورأسه الأمير ساوتكين الخادم - وكان نائب تاج الدولة بدمشق في حفظ القلعة والبلد - وقرر لدقاق مملكة دمشق سرا ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وهرب الى دمشق من غير أن يعلم به أحد ، وجد في السير ، وتبعه رضوان ، وأنفذ خلفه عدة من الخيل فقاتهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين الى طاعته ، وصارت دمشق وبلاها بحكمه .

وقتل رضوان اخويه ابا طالب وبهرام ابني تددش (٣٤) ، وكان اتابك طغتكين معتقلا عند السلطان بركيارق ، وقبض في الواقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة الذين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتفق رأيهم أن يسيروا غضب الدولة أبق بن عبد الرزاق الى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان أبق أيضا من جملة من قبض عليه من الجماعة الذين كانوا مع تددش فخطبوا السلطان في اطلاقه وتسييره فأجابهم الى ذلك ، وسيره إلى حلب ، فلما وصله أكرمه رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيره مكرما .

فأطلق بركيارق اتابك طغتكين (٣٥) وجميع من كان في اعتقاله من خواص تاج الدولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه ، وألقى تدبير أموره اليه ، فقام فيها أحسن قيام .

فاستأنن غضب الدولة الملك رضوان في الوصول اليه فأنن له ، وقرر معه قرب العونة الى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب الى اصحابه بعزاز يأمرهم بتسليمها الى رضوان فسلموها .

ولما وصلت هذه الاخبار وثب أهل أغامية على حصنها فأخذوه من الأتراك ، وقتلوا بعضهم ، وكان تاج الدولة قد أخذنه من ابن مذقد ، وسار جماعة من أهلها الى مصر يستدعون واليا من قبلهم لميلهم (٣٦) الى الاسماعيلية ونذورهم من الترك .

ووصل خلف بن ملاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائة وتسلمها ، وعاد الى الفساد وقطع الطريق ، وقتل خلقا من أغامية .

وأما الملك رضوان فانه خرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدولة حسين ، ووصله يغى سيان ويوسف بن

أبق من انطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا الى الرها ، ومعهم رهائن
أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المقيمين فيها من أصحاب والده .

فلما نزلوا الرها أراد يغي سيان ويوسف ان يقبضا جناح الدولة
ويتفردا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطع الفرات ، ووصل
حلب وتبعه رضوان ، فدخل حلب ، وهرب رهائن الرها من العسكر
وبخلوا ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش
رضوان منهما .

وكتب رضوان الى سكمان (٣٧) واقطاعه
سروج (٣٨) يستدعيه الى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفرات
فلقيه يوسف بن أبق في علة وافرة فخافه سكمان ، فأظهر موافقته
وصار معه .

وخاف جناح الدولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وصول رضوان
من الرها قد سير جماعة من عسكر حلب الى معرة النعمان مع
عضب الدولة لاختها من يغي سيان .

وكاتب واثاب بن محمود فوصل ببني كلاب لمساعدته على اخذ
المعرة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلموها .

وعاد عضب الدولة ووثاب ، فلما وصلا حلب حدث ما ذكرناه من
أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناح الدولة بالعسكر فلقه
يوسف بالقرب من مرج دابق فهرب يوسف ونهبوا
عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، وبخل يوسف انطاكية ، وعاد
جناح الدولة وسكمان ووثاب وأبق الى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرة النعمان سكمان بن أرتق
وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصد دمشق وانتزاعها من
أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فلما نزل دمشق ، وصل اليهما أن دقاق قبض على نجم الدين ايلغازي بن ارتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان الى حلب ، وسار سكرمان الى بيت المقدس وتسلمها من نواب أخيه وأقام بها .

وراسل يوسف بن أبق الملك رضوان واستأننه في الوصول الى خدمته فأنن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثم خاف رضوان وحسين منه فتقدما الى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن (٣٩) بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه ونهبوا داره وأخذوا رأسه ، وسيروه الى بـزاعا ومنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على إقطاع أخيه وأصحابهما ، وهربوا من حلب ، وكان الملك قد توهم منه الارتداد عن الاسلام .

ثم ان رضوان وجناح الدولة خرجا في سنة تسع وثمانين الى تل باشر ، وشيخ الدير (٤٠) ، وفتحها بالسيف من أصحاب يغى سيان ، وأغاروا على أعمال أنطاكية ، وعادا الى حلب ، وسارا في أول شهر رمضان منها الى دمشق .

فسار يغى سيان منجدا لدقاق فضعفت نفس رضوان ولم يتمكن من العود ، فسار الى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغى سيان وأقاموا متحابسين مدة .

وأشرف عسكر رضوان على التل ففصل عنه جناح الدولة ، وهرب على طريق البرية الى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدة وحصلا بجميع العساكر بحلب .

وعاد دقاق وطغتكين الى دمشق ويغى سيان الى أنطاكية ، وعاد سكرمان بن ارتق من القدس على البرية حتى وصل حلب على البرية في المحرم من سنة تسعين وأربعمائة .

واجتمع بجناح الدولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج دقاق وطفكتكين ، فوصلا حماه وعاث العسكر في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا الى كفر ططاب في الثاني من ربيع الاول ، فقاتلوا ، ونهبوها ، وقرروا على اهلها مالا .

وهرب اصحاب سكمان من المعرة فتسلمها يغي سيان وقرر عليها مالا ، وتنقل العسكر في الجزر (٤١) وغيرها من اعمال حلب ، فاستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط (٤٢) فوصل بعسكر كثير الى حلب .

وجمع رضوان من قدر عليه من الترك والعرب واحداث حلب ، ونزل عسكر دقاق بقنسرين .

ونزل عسكر حلب بحاضر قنسرين فاتفق الامر على أن يجتمعوا على نهر قويق ويتحدثوا ، فاجتمعوا وتحذثوا ، والنهر بينهم ، فلم يتفق الصلح ، فقال يغي سيان لسكمان : « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم ، أنت يا بياح اللب بن بخلوك معهم لاي صفة ؟ » قال : « غدا تبصر ايش أنا » .

فاصبحوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وأربعمائة فأبلى سكمان بلاء حسنا .

ولم تزل الحرب بينهم الى آخر النهار ، فانهزم يغي سيان الى أنطاكية ، ودقاق وطفكتكين الى دمشق ، واسر في الحرب اصباوه (٤٣) ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب الى دمشق ولم يقتل من العسكر الا القليل .

وقتل الفلاحون في الطريق وقت الهزيمة من الارمن الذين كانوا مع يغي سيان جماعة كثيرة ، وتغيرت نية الملك رضوان على جناح الدولة حسين فهرب من حلب الى حمص ، وخرج من حلب ليلا ومعه زوجته ام الملك رضوان وأقام بحمص لأنها كانت في يده وحصنها .

ووصل يغي سيان الى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبر أمره ، وتزوج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك (٤٤) .

وعول رضوان على قصد جناح الدولة بجمص ، وقصد دقاق بدمشق ، ووصله رسدول الأفضل (٤٥) من مصر يدعوه الى طاعة المستعلي واقامة الدعوة له ، وعلى يده هدية سنوية من مصر ، ووعدته بأن يعمه بالعساكر والأموال .

فقدّم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي في يده ، ودعا الخطيب أبو تراب حيدرة بن أبي اسامة ، بحلب للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان قد ولي الخطابة أبا تراب وعزل جد أبي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرامة عن القضاء والخطابة بحلب ، لأن توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السنة المذكورة ، وهو على القضاء والامامة بحلب .

وولى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي ، وسيره رسدولا الى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي اسامة الحلبي ، ودامت الدعوة بحلب الى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقيل : لم تدم أكثر من أربع جمع (٤٦) .

وأعادها رضوان للامام المستظهر ثم للسلطان بركيارق ثم لنفسه ، ولم يصح له مما التمسه من المصريين شيء .

وأعاد القضاء والخطابة الى جد أبي أبا غانم على قاعدته الاولى ، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، حين قتل

الزوزني ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقتل في بعض الدروب ، وكان ازرى على الباطنية وعلى معتقدهم فقتل انهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا الى شيزر متوجهين الى حمص لقصد حمص (٤٧) فتواصلت الاخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : « عوبنا الى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى » ، وقال سكمان : « مسيرنا الى بيار بكر وأخذنا من المتغلبين عليها ونتقوى بها ، وأنزل أهلي بها ونعود الى حمص أولى » واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلا وكان معه وزيره أبو النجم بن ببيع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولاه وزارته حين ملك حلب ، فاتهماه أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع الى حصن شيزر ، وأقام به عند ابن مذقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار الى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مغاضبا ليغي سيان وسكمان عاد (٤٨) والامراء من شيزر الى أنطاكية ، وبلغهم نزول الفرنج البلانة (٤٩) ونهبها .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمدا ، فسار أحدهما الى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبث كتبه الى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمد ابنه الى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه الى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس الى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان

للتجار ، ونهبوا اللاذقية وعادوا ، ووصلت الفرنج الى الشام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين ألف انسان ، لانهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثاني من شوال نزلت عساكر الفرنج على بغراس (٥١) وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عصى من كان في الحصون والمعازل المجاورة لأنطاكية ، وقتلوا من كان بها ، وهرب من هرب منها .

وفعل أهل ارتاح (٥٢) مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ، وهذا كله لقبح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية اليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ألفا من الفرنج الى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فأفسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا .

وكان قد وصل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدولة ، ونزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السرية ، فساروا إليها بقطعة من العسكر ، فلقوهم في أرض البارة (٥٢) فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفرنج الى الراج (٥٣) ، وعرجوا منه الى معصرة مصرين (٥٤) ، فقتلوا من وجدوا وكسروا منبرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل الى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما الى أنطاكية فلقبهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم عسكر المسلمين الى حارم (٥٥) وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفرنج الى حارم فانهزموا الى حلب ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السنة وصل خلق من الأرمن الى تل قباسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه ، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون الى بعض الحصون الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى الى حلب فقتلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نزل الفرنج - لعنهم الله - بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البلد خندقا لأجل غارات عسكر انطاكية عليهم وكثرة الظفر بهم ، ولايكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود الا ظافرا .

وجعل يغني سيان الناس على البعد والقرب ، وكان حسن التدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحب الموصل عسكرا عظيما ، وقطع به الفرات ، ووصل دقاق وطفتكين وجناح الدولة ، ووصل سكرمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دقاق .

ووصل وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل مذس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوه في الشام ، وقرر عليهم دقاق مالا أخذ بعضه ورهائن على الباقي ، وسيرهم الى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر الى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أول ليلة من رجب واطأ رجل يعرف بالزراد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه ، وذلك أن يغني سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب ييمند وقال له : « أنا في البرج

الفلاني ، وأنا أسلم اليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيتني كذا وكذا » فبذل له ما طلب ، وكتم أمره عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدمين عليهم كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن أخته طنكريد وصنجيل وبغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمند وقال لهم : « هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟ » فاختلّفوا ، وكل طلبها لذفسه ، فقال : « الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة ، فمن فتحت في جمعته فهي له » فرضوا بذلك .

فلما كانت ذوبته دلى لهم الزراد - لعنه الله - حبلا ، فطلعوا من السور ، وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا وجاءوا الى الحراس فقتلوه ، وتسلمه بيمند بن الانبرت (٥٦) .

وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصائح من ناحية الجبل ، فتوهم يغي سيان ان القلعة قد أخذت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولما حصل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانة وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن فهرب الخادم عنه ، وقتله الأرمن وحملوا رأسه الى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية مايفوت الاحصاء ويجاوز العدد ، ونهبت الاموال والآلات والسلاح ، وسبي من كان بأنطاكية ، ووصل هذا الخبر الى عم وإنب (٥٧) ، فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغ الخبر الى دقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا الى أرتاح ، وسار بعضهم الى جسر الحديد (٥٨) وقتلوا من كان فيه

من الفرنج ، وتوجهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا ان قلعتها باقية في ايدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الاسلامية بذلك ، فوصلوا الى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم من كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

ونزل المسلمون بظاهرها مما يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنج على التلف فبنوا سورا على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول اليهم ، وأقاموا أياما وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير مما كان في قلعة أنطاكية ، وولى فيها أحمد بن مروان ، وترادفت رسل الملك رضوان في أثناء ذلك الى كربوقا ، فتوهم دقاق من ذلك ، وخاف جناح الدولة من أصحاب يوسف بن أبوق وأخيه .

وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادية لاجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيل بعض الأمراء من بعض ثم اجتمع رأيهم على التحول الى المنازلة في السهل بظاهر أنطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجعل المسلمون بينهم وبين البلد خندقا .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميئات والدوات ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الأمراء أن لايمكثوا من الخروج بأجمعهم ويقتلوا أولا فأولا ، فلم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم ايقنوا بالظفر بالفرنج ، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم .

وعاث التركمان في العسكر فانهزم ، وتوهم الفرنج أن ذلك مكيدة

فتوقفوا عن تبعهم ، فكان ذلك سببا لسلامة من أراد الله سلامته ، ولم يبق غير كربوقا ومعه أكثر عسكره ، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب .

وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير ، ولم يقتل مذكور ، ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن (٥٩) .

وعاد الفرنج الى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسله الفرنج وأمذوه ، ومن كان معه ، وسلمها اليهم يوم الأحد الثاني من شعبان من السنة ، وأنزلوه في دار بأنطاكية ، وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم الى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، ولم يسلم منهم الا القليل .

ولما وصل كربوقا الى حلب خرج اليه الملك رضوان ، وحمل له خياما وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكر دمشق اليها وتقدمت العساكر .

وبعد أيام من هذه الواقعة خرج جماعة من الفرنج في شعبان ، وزحفوا مع أهل تلمذس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقتلوا ، فوصلت قطعة من عسكر حلب اليهم ، فالتقوا بين تل مذس والمعرة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجال منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل ، وحملت رؤوسهم الى معرة النعمان .

وفي هذه السنة - وهي سنة احدى وتسعين - في جمادى الاولى عزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن ببيع ، وولى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول ، وكان أبو الفضل حسن السيرة جوادا كثير المعروف والصدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء ، والجوع بحلب ، حتى أكلوا الميتات ، فأخرج غلة كثيرة ، وتصدق بها على الناس .

وقيل : انه كان يخرج في كل سنة صدقة وبراً ثلاثة آلاف مذكوك غلة سوى ما يطلقه لمن يسأله معونته من الوفود والضيوف ، وغير ما يطلقه من العين والورق وغير ما كان يعتمد من افتكاك الاسرى من المسلمين .

وفيها قتل الملك رضوان رئيس حلب بركات بن فارس الفوحي المعروف بالمجن ، وكان هذا المجن أولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطريق الذعار فاستتابه قسيم الدولة أق سذقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعة (٦٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئاً ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة أحضر من يشهد له أنه صلى العشاء بالفوعة والصبح فيبرؤونه .

واستمر على رئاسة حلب في أيام قسيم الدولة وأيام تاج الدولة وبعده في أيام رضوان ، وامتدت يده وحكم على القضاة والوزراء ومن دونهم ، وهو الذي قتل الوزير أبا نصر بن النحاس في أيام قسيم الدولة .

وبلغني أنه حذق عليه بسبب حصر أراد شراءها فاشتراها المجن ، فشق على أبي نصر ، فسيرها المجن اليه ، فردها عليه أبو نصر ، وتكلم في حقه بكلام قبيح فحذق بسببها على ابن النحاس ، فاعتقله بعد ذلك عنده وخذقه .

وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم ، فعصى على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان منابيا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن ببيع فأنقلب الأحداث عنه لبغضهم إياه ، ومضوا الى

صاعد فاخدتفى المجن ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلط عليه الملك رضوان فسجنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله .

فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعها على رأسه ، وذفخ في دبره بكير الحداد ، وثقبت كعابه ، وضرب فيها الررز والحلق .

ولما وضع النجار المذقبة على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المذقبة ، فلطمه المجن وقال : « ويلك لاتعرف أحضر خشبة ، وضعها على الكعب » فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المذقبة ونزل ، وثقبت الكعب .

فلما فرغ قيل له : « كيف تجد طعم الحديد ؟ » فقال : « قولوا للحديد كيف يجد طعمي » ولم يقر المجن مع هذا كله بـ درهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله الا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو الشرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله ، وهو ينظر اليهما ولا يتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة احدى وتسعين ، وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال : « يامعشر أهل حلب ، من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه » .

وكان ابن بديع من أولاد الديلم الذين كاذوا في أيام سيف الدولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة احدى وتسعين وأربعمائة عصى عمر والي عزاز على الملك رضوان فخرج عسكر حلب وحصره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل بعسكر كبير ، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه وعاد الى أنطاكية ، وأخذ ابن عمر رهينة ، فمات عنده ، فوقع الملك رضوان على عمر الى ان أخذه من تل هراق (٦١) فسلم اليه عزاز وأقام عنده بحلب مدة ، ثم قتله .

وخرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البارة فقل الماء فأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفى أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا ، ثم خرج بقية الفرنج من أنطاكية والأرمن الذي في طاعتهم والنصارى ، وانضموا اليه ، ووصلوا الى معرة النعمان ليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين ، وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج برجا من خشب يحكم على السور وزحفوا الى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسور فكشفوه واسندوا السلالم الى السور وثبت الناس في الحرب من الفجر الى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحتة خلق كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج جميعه الى البلد ، وانهزم بعض الناس الى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمذوهم ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور ، وهجموها وناموا فيها ، وجعلوا يهدئون الناس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقا ، وسبوا النساء والصبيان .

وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شيزر وغيرها من بني سليمان وبني أبي حصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعا كثيرا ، فاستخرجوا نخائر الناس ، ومنعوا الناس من الماء ، وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوما بعد الهجمة ، ولم يبقوا نخيرة بها الا استخرجوها .

وهدموا سور البلد واحرقوا مساجده ودوره وكسروا المنابر (٦٢) وعاد ييمند الى انطاكية وقمص الرها اليها ، وفي هذه السنة فتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرة (٦٣) .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر والجسر وغير ذلك .

وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلط الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوجه الملك رضوان في سلخ رجب من هذه السنة الى الأثارب وأقام عليها أياما ، وتوجه الى « كلا » في الخامس والعشرين من شعبان لاخراج الفرنج منها ، ومن كان في الجزر وزرنا وسرمين من الفرنج والتقوا فانهزم رضوان ، واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير واسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء (٦٤) .

وعاد الفرنج الى الجزر وأخذوا برج كفرطاب (٦٥) وبرج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب الى الحاضر ، ومن حلب غربا سوى تل مذس فان اصحاب جناح الدولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه الذكبة الى حمص مستنجدا بجناح الدولة فأجابه ، وعاد الى حلب ومعه جناح الدولة ، وقد عاد الفرنج

الى انطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياما ، فلم يلتفت رضوان فعاد عنه الى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد الى قرب حلب فنزلوا المشرفة - من الجانب القبلي على نهر قويق - لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبذوا مشهد الجف ، ومشهد الدكة ، ومشهد قرنبيا حصونا ، وان يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها .

فأقاموا في تدبير ذلك يوما أو يومين فبلغه خروج انوشتكين الدانشمند ، وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدفع عنها ،

فخرج الدانشمند فلقى بيمند وجمعا من الفرنج بأرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يفلت منهم أحد ، فخبى الله ظن الفرنج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدولة الى أسفونا وبه جماعة من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار الى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصل وجماعة وحملهم الى حمص .

وطلب الحكيم المنجم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بينه وبين رضوان واستمال رضوان الى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ

جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ، فوصل هذا الحكيم حلب سالما في جملة من سلم في هذه الواقعة .

واستغل جناح الدولة سرمين ومعرة النعمان وكفر طاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصل نفسه من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار وفدى اصحاب الملك نفوسهم ايضا بمال حملوه اليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلا حصن بسرفوث (٦٦) - من عمل بني عليم -

وتسلم دقاق الرحبة في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وكان المقيم بها زوج أمنة بنت قيماز (٦٧) ، وكان قيماز من أصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرحبة له ، وكان جناح الدولة قد خرج اليها فوجد الأمر قد فات ، فعاد ونزل النقرة وخرج اليه رضوان الى النقرة واصطالحا ، وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه .

وسار جناح الدولة الى حمص فسير الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتاوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض اصحابه وقتلوا ، وقيل : « ان ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات ، وقام بعده بأمر الدعوة الباطنية بحلب رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي .

ووصل صنجيل الفرنجي ونزل حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم اليه

حمص ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه لسوء رأيه فيهم ، وسيروا الى ذواب دقاق الى دمشق ، وكان دقاق بالرحبة فسار ايتكين الحلبي من دمشق وبخلها وطلع القلعة .

ووصل رضوان الى القبة (٦٨) فبلغه الخبر وعاد ورحل صنجيل عنها بعد أن قرر عليهم مالا ، ووصل دقاق فتسلم حمص وأحسن الى أهلها ونقل أهل جناح الدولة وأولاده الى دمشق ، وسلم حمص الى طغتكين .

وسار والي عزاز وأغار على الجومة - وهي من عمل انطاكية - فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرها فنزلوا المسلمية (٦٩) وقتلوا بعض أهلها ، وقطعوا على عدة مواضع قطاع أخذوها ، وأقاموا ببلد حلب أياما ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء ، وذلك في سنة ست وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تل باشر ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بسرفوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا الى كفرلاثا (٧٠) فكبسهم بنو عليم فانهزموا الى بسرفوث .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القمص ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة (٧١) .

وكان الملك رضوان قد سار إلى الفرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر انفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على من عندهم من

الفرنج ، فوثب أهل الفدوعة وسرمين ، ومعة مصريين وغيرها ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل و « هاب » (٧٢) ، وحصون المعرة ، وكفر طاب ، وصوران (٧٣) .

فوصل شمس الخواص وفتح صوران ، فهرب من كان بلطمين وكفر طاب وبلد المعرة والبارة الى أنطاكية ، وسلموها الى رضوان وأصحابه ما خلا « هاب » .

واسترجع رضوان بالس والفايا ممن كان بهما من أصحاب جناح الدولة وجرى بحماسة خاف ، وخافوا من شمس الخواص ، فكاتبوا رضوان ، وسلموها اليه وسلمية ، فأمنت أعمال حلب وتراجع أهلها اليها وقوي جأش رضوان .

واتصلت غارات عسكر حلب الى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنه لم يفلت من وقعة سكرمان الا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فصار الى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم الى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يدبر أمر أنطاكية والرها (٧٥) .

ومات الملك دقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولد له صغير اسمه تاش (٧٦) ، وجعل التدبير الى أتابك طغتكين ، فتوجه الملك رضوان نحو دمشق ، وحاصرها ، وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد الى حلب .

ثم إنه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقا كثيرا ، وعزم على قصد طرابلس معونة لآخر الملك بن عمار على الفرنج النازلين عليه .

وكان الارمن النين في حصن أرتاح قد سلموه الى الملك رضوان لجور الأفرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميع من في أعماله من الأفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة فلم يسلم منهم الا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل الى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف مابين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الأفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبى من سبى ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون ، وهرب أهل الجـزر وليلون الى حلب ، فأدركهم خيل الأفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه النكبة على أعمال حلب أعظم من النكبة الاولى على كلا .

ونزل طنكريد على تل أعزى - من عمل ليلون - وأخذه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب .

ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية الا جماعة ومن الغربية الا الأثارب ، والشرقية والشمالية في يده ، وهي غير آمنة .

وسير أبو طاهر الصائغ الباطني جماعة من الباطنية من أهل سمرمين الى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بـسـابن القنـج السـرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعة من أهل

أفامية ، ونقبوا سور الحصن ، وبخلوا منه ، وطلع بعضهم الى القلعة فأحس بهم ، فخرج فطعنه أحدهم بخشيت (٧٧) فرمى بنفسه ، فطعن أخرى فمات ، ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل أبو طاهر الصائغ الى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد الى أفامية ، فقطع عليها مالا أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض أصحابه ، فأطمعوه في أفامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلمها في الثالث عشر من محرم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السرميني بالعقوبة ، ولم يف لابي طاهر الصائغ بالأمان ، وحمله معه اسيرا فاشتري نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة احدى وخمسمائة ، عصى ختلج بقلعة عزاز ، واستقر ان يسلمها الى طنكريد ، ويعوضه عنها موضعاً غيرها ، فسار رضوان اليها فتسلم عزاز منه .

وبلغ رضوان ، في سنة احدى وخمسمائة ، ما ذكر به من مشايعة الباطنية ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان محمد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطني الذي عمل في قتل ابن ملاعب مديبر الخروج من حلب فيمن معه ، فأنسل وخرج بجماعة من أصحابه بعد ان قتل افراد منهم .

وفي سنة احدى - وقيل : اثنتين - وخمسمائة اجتمع جاولي سقاوة وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب انطاكية ، واستنجد طنكريد بالملك رضوان ، فأمدّه بعسكر حلب والتقوا ، فقتل من الفرنج جماعة .

ووصل الى جاولي من أخبره أن الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجاله طنكريد وأكثر خيله .

وعاد الى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلم بالس من أصحاب جاولي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه خالق عظيم ، ثم عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السلطان الأمير سكماني القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج ، فجمعوا وسارا ، ووصل إليهما نجم الدين أيلغازي بن أرتق في خلق كثير من التركمان ، فرحلوا إلى الرها فنزلوا عليها وأحرقوا بها في شوال من هذه السنة .

فاتفق الفرنج كلهم ، وأزالوا ماكان بينهم من الشحناء ، وكان المسلمون في جمع عظيم ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد الذفار ، وقصدوا انجاد من بها من الفرنج ، وأحجموا عن العبور إلى الجانب الجزري لكثرة من به من عساكر المسلمين .

فاندفع المسلمون عن الرها إلى حران ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، ووصلهم عسكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وبلغهم خبر المسلمين عادوا ناكسين على الأعقاب إلى شاطئ الفرات ، فنهض المسلمون في أثرهم ، وأدركتهم خيول الاسلام ، وقد عبر الأجلاد منهم ، فغدم المسلمون جل سوادهم وأكثر أثقالهم ، واستباحوهم قتلا واسرا وتغريقا في الماء ، وأقام المسلمون بازائهم على الفرات .

ولما عرف الملك رضوان هزيمة الفرنج عن الرها خرج ليتسلم أعمال حلب التي كانت في أيدي الفرنج ، وقاتل ماسا متنع عليه منها ، وأغار على بلاد أنطاكية وغنم منها مايجل قدره ، وكان بينه وبينهم مهانة نقضها .

وكاتب الفرنج رضوان يوهزون رآيه في نقض الهدنة ، فلما تحقق سلامة طنكريد وعوبه رجع إلى حلب .

وعاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقيها ، فقتلوا من وجدوا ، وسبوا أهل الذرة ، وأخذوا ماقدروا عليه من المواشي .

وهرب الناس نحو بـالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب (٧٨) ، وطيب قلوب الفلاحين من المسلمين ، وأمنهم ونصب على الأثارب المناجيق وكبشا عظيما ينطج به شرفات الأسوار فيلقياها ، فحرب أسوارها وكان يسمع نطحه من مسيرة نصف فرسخ .

وبذل رضوان لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يرحل فامتنع ، وقال : « قد خسرت ثلاثين ألف دينار ، فإن دفعتموها الي وأطلقتهم كل عبيد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل » فاستعظم ذلك واتكل على الحوادث .

وكان الذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، وأخذها الخازن على وسطه ، وهرب إلى الفرنج ، وهرب جماعة آخر من المسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتابا على جناح طائر يخبرونه بما تجدد من قوة الحصار وقلة الذقة وقتل الرجال ، وأرسلوا الطائر فسقط في عسكر الفرنج ، فرماه أحدهم بذنابة فقتله .

وحمل الكتاب إلى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وبذل رضوان المال المطلوب له على أن يكون اقساطا ويضع عليه رهائن فلم يفعل ، ويؤس من في الأثارب من نجدة تصل إليهم فسلموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، وقبضها وعاد إلى أنطاكية .

ثم عاد وخرج إلى الأثارب ، وقد أدركت الغلة ، وضعفت حلب بأخذ الأثارب ضعفا عظيما ، وطلب من حلب المقاطعة التي قررهما على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت اغارته على

بلد انطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم اليه ، وطلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حرم الفلاحين المسلمين من الأثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمتهم في حلب فأخرجهن اليه .

وضاق الأمر بأهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج .

وقلت المغلات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب الى يومنا هذا ، غير ماباعه في غير ذلك اليوم من الأملاك (٧٩) .

ولذلك يقال أن بيع الملك من أصبح أملاك الحلبين لأن المصلحة في بيعها كانت ظاهرة لاحتياج بيت المال الى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيون العساكر الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهز السلطان العساكر للذب عنهم ، فكان أول من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره الى شبختان ، ففتح تل قراد (٨٠) وعدة حصون .

ووصل احمديل الكردي في عسكر ضخم وسكمان القطبي ، وعبروا الى الشام فنزلوا تل باشر ، وحصروها حتى اشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد اخذ حصن بكسراثيل (٨١) ، وتوجه مغيرا على بلد شيزر ونازلها .

وشرع في عمارة تل ابن معشر (٨٢) وضرب اللبن وحفر الجباب ليودع بها الغلة ، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمد على تل

بأشْر رَحْل عَنْهَا وَأَمَّا الْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ النَّازِلَةُ عَلَى تَلِّ بَاشَرٍ فَانْسَكَمَانِ مَاتَ عَلَيْهَا - وَقِيلَ : بَعْدَ الرَّحِيلِ عَنْهَا - وَأَشْرَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى اخْتِذَاهَا فَتَطَارَحَ جُوسِلِينَ الْفَرَنْجِيِّ صَاحِبِهَا عَلَى أَحْمَدِ بْنِ الْكُرْدِيِّ وَحَمَلَ إِلَيْهِ مَالًا ، وَطَلَبَ مِنْهُ رَحِيلَ الْعَسْكَرِ عَنْهُ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ .

وَكَتَبَ الْمَلِكُ رِضْوَانُ إِلَى مُوَدُودٍ وَأَحْمَدِ بْنِ وَغَيْرِهِمَا : « إِنِّي قَدْ تَلَفْتُ وَأُرِيدُ الْخُرُوجَ مِنْ حَلَبَ ، فَبَادِرُوا إِلَى الرَّحِيلِ » فَحَسَنَ لَهُمْ أَحْمَدُ بْنُ الرَّحِيلِ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ أَشْرَفُوا عَلَى اخْتِذَاهَا ، وَرَحَلُوا إِلَى حَلَبَ ، فَأَغْلَقَ رِضْوَانُ أَبْوَابَ حَلَبَ فِي وَجْهِهِمْ ، وَأَخَذَ إِلَى الْقَلْعَةِ رَهَائِنَ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِهَا لَثَلَا يَسْلُمُوهَا .

وَرَتَّبَ قَوْمًا مِنَ الْجُنْدِ وَالْبَاطِنِيَّةِ الَّذِينَ فِي خِدْمَتِهِ لِحِفْظِ السُّورِ وَمَنْعِ الْحَلِيبِيِّينَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَيْهِ ، وَبَقِيََتْ أَبْوَابُ حَلَبَ مَغْلُوقَةً سَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً .

وَأَقَامَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، مَا يَجِدُونَ شَيْئًا يِقْتَاتُونَ بِهِ ، فَكَثُرَتْ اللَّصُوصُ مِنَ الضَّعَفَاءِ ، وَخَافَ الْأَعْيَانُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

وَسَاءَ تَدْبِيرُ الْمَلِكِ رِضْوَانُ فَأَطْلَقَ الْعَوَامَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسَّبِّ لَهُ وَتَعْيِيبِهِ ، وَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَاشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْلُمُوا الْبَلَدَ ، وَتَرَكَ الرُّكُوبَ بَيْنَهُمْ .

وَضَبَرَ (٨٣) إِنْسَانٌ مِنَ السُّورِ فَأَمَرَ بِهِ فَضْرِبَتْ عُنُقُهُ ، وَنَزَعَ رَجُلٌ ثَوْبَهُ وَرَمَاهُ إِلَى آخَرٍ فَأَمَرَ بِهِ فَأُلْقِيَ مِنَ السُّورِ إِلَى أَسْفَلٍ ، فَعَاثَ الْعَسْكَرُ فِيمَا بَقِيَ سَالِمًا بِبَلَدِ حَلَبَ بَعْدَ نَهْبِ الْفَرَنْجِ لَهُ وَسَبْيِهِمْ أَهْلَهُ .

وَبَثَّ رِضْوَانُ الْحَرَامِيَّةَ تَتَخَطَّفُ مِنْ يَدْفِرْدٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ فَيَأْخُذُونَهُ ، فَرَحَلُوا إِلَى مَعْرَةِ النُّعْمَانِ فِي آخِرِ صَفَرٍ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ

وخمسمائة ، وأقاموا عليها أياما ووجدوا حولها ماملاً صدورهم مما يحتاجون اليه من الغلات وماعجزوا عن حمله .

وكان أتابك طغتكين قد حصل معهم ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في جملة مودود صاحب الموصل ، وثبت له مودود ووفى له .

وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا من متاع مصر ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة الى العاصي فنزلا على الجلالى .

فنزل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل وساروا لقصد المسلمين فخرج أبو العساكر بن منذر من شيزر بعسكره وأهله واجتمعوا بمودود وأتابك وساروا اليهم .

ونزلوا قبلي شيزر والفرنج شمالي تل ابن معشر ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعواهم الماء ، والأترك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ، فأصبدوا هاربين سائرين ، يحمي بعضهم بعضا .

ووصل الى حلب في هذه السنة في شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيه تاجر كبير يقال له أبو حرب عيسى بن محمد الخجندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها اصناف التجارات ، وكان شديدا على الباطنية انفق أموالا جليلة على من يقاتلهم ، وكان قد صحبه من خراسان باطني يقال له أحمد بن نصر الرازي وكان أخوه قد قتله رجال الخجندي .

فدخل أحمد الى حلب ، (٨٤) ومضى الى أبي طاهر الصائغ العجمي رئيس الباطنية بحلب ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد

الى رضوان ، وأطمعه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه ، إذ هو معروف بعبادة الباطنية .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحا ، وبعث غلمانا يتوكلون به ، وسير أبو طاهر الباطني معه جماعة من أصحابه ، فبينما أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرازي في جماعة من أصحاب أبي طاهر الباطني ، فقال لغلمانه : « أليس هذا رفيقنا ؟ » فقالوا : « هو هو » فوقعوا عليه فقتلوه .

وقتل الجماعة الذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطني العجمي بأسرهم ، ثم قال أبو حرب : « الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا الى أن جئنا الى الأمانة ، فبعث علينا من يقتلنا »

فأخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السنة والشيعة الى هذا الرجل ، وأظهروا انكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوه ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك .

وكتب الفقيه أبو حرب أتابك طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم الى رضوان يذكرهم عليه ، فأذكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية .

وخرج الرجل عن حلب مع الرسل فعاد الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

ثم ان رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك اليه ويستصلحه ، فاستدعاه الى حلب عندما أراد أن ينزل طذكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف

بينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طفتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال .

واستقر الأمر على أن أقام طفتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ست وخمسمائة ، واستخلف ابنه اخته روجار وأدى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف بينار .

ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طفتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخرت الى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبها نجدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعده ، فأذكر أتابك ذلك ، وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولا تسمع نفسه بإخراجه حتى كان أمراؤه وكتابه ينبزونه بأبي حبة ، وهو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومرض رضوان بحلب مرضا حادا وتوفي في الثامن والعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسمائة ، ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفااته وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل : انه خلف في خزانته من العين والآلات والعروض والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف بينار .

وملك حلب بعده ابنه الب ارسلان ، ويعرف بالأخرس ، وعمره ست عشرة سنة ، وأمه بنت يغني سيان صاحب انطاكية ، وكان في كلامه حبسة وتمتمة فلذلك عرف بالأخرس ، وكان متهورا قليل

العقل ، ووضع عن أهل حلب ما كان والده جده عليهم من الرسوم والمكوس .

وقبض على أخوته ملك شاه ومبارك ، وكان مبارك من جارية وملك شاه من أمه ، فقتلهم ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ، فانظر الى هذه المقابلة العجيبة ، وقبض جماعة من خواص والده فقتل بعضهم وأخذ أموال الآخرين .

وكان المتولي لتدبير أموره خادم لأبيه يقال له لؤلؤ اليايا ، وهو الذي أنشأ خازنكاه البلاط بحلب (٨٥) وكان قبل وصوله الى رضوان خادماً لتاج الرؤساء بن الخلال ، فدبر اسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب في أيام أبيه ، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم ، وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم .

وكان حسام الدين بن دملج وقت وفاة رضوان بحلب ، فصاروا معه ، وصار ابراهيم العجمي الداعي من نوابه في حفظ القليعة بظاهر بالس .

فكتب السلطان محمد بن ملك شاه الى الب أرسلان وقال له : « كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم » .

وشرع الرئيس ابن ببيع متقدماً الأحداث في الحديث مع الب أرسلان في أمرهم ، وقرر الأمر معه على الايقاع بهم ، والزكاة فيهم ، فساعدته على ذلك .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقتل اسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبض على زهاء مائتي نفس منهم .

وحبس بعضهم واستصفى أموالهم ، وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى القلعة ، ومنهم من قتل ، وأفلت جماعة منهم ففرقوا في البلاد ، وهرب ابراهيم الداعي من القليعة الى شيزر ، وخرج حسام الدولة بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها اليهم من ماله ، ولم يكلف أحدا من أهل حلب شيئا منها .

ثم أن ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسن تدبير ، وأشار خدمه وأصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، وسأله الوصول اليه ليدبر حلب والعسكر ، وينظر في مصالح دولته ، فأجابه الى ذلك ، ورأى موافقته لكونه صبيا لا يخافه الكفار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدعوة للسلطان وضربت الاسكة باسمه ، وذلك في شهر رمضان .

وأوجبت الصلوة أن يخرج ألب أرسلان بنفسه في خواصه ، وقصد أتابك الى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقى أتابك على مرحلتين ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في اكرامه وخدمته والوقوف على رأسه ، وحمل اليه دست ذهب وطييرا مرصعا وعدة قطع ثمينة ، وعدة من الخيل ، وأكرم من كان في صحبته (٨٦)

وأقام بدمشق اياما وسار في أول شوال عائدا الى حلب ، ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده اياما واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره ، وكان قد أشار عليه بعض اصحابه بقبضه ، وقبض جماعة من اعيان عسكره وقبض الوزير أبي الفضل بن

الموصل ، ففعل ذلك ، فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه .

وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع ، وكان وجيها عند أبيه رضوان ، فصادره بعد التضيق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالا ، وأخرجه وأهله من حلب ، فتوجه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر .

وسلم رئاسة حلب إلى إبراهيم الفراتي ، فتمكن ولقب ونوه باسمه ، واليه تنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب ، ثم رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والأعراض عن مشورته ما أنكره ، فعاد من حلب إلى دمشق ، وخرجت معه أم الملك رضوان هربا منه .

وساءت سيرة ألب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل ، وبلغنا (٨٧) أنه خرج يوما إلى عين المباركة متنزها ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونصب خيمة ، ووطئهن كلهن .

واستولى أولؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرفين وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصل ، وجمع ألب أرسلان جماعة من الأمراء ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينظروه ، فلما دخلوا إليه قال لهم : « ايش تقولون في من يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟ » فقالوا : « نحن ممالكك وبحكمك » وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، فلما نزل سار عن حلب، وتركها خوفا على نفسه .

وخاف منه أولؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب، في شهر

ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعده على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخاه صغيرا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

وكتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم الى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم الى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ، ولا يمكنه ذب الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أن المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه .

وقل الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلداتها والخوف على باقيه وقلت الاموال واحتيج اليها لصرفها الى الجند ، فباع لؤلؤ قرى كثيرة من بلد حلب ، وكان المتولي بيعها القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرامة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولى صرف اثمانها في مصالح القلعة والجند والبلد .

وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصل ، واستأصل ماله ، وسار الى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي مدة ، ثم صادره وضربه وطلب أبا الفضل بن الموصل فأعاده الى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلة الأحد ثامن وعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحران وأنطاكية ومصرعش والثغور الشامية ، وسقط برج باب انطاكية الشمالي وبعض دور العقبة وقتلت جماعة .

وخربت قلعة عزاز ، وهرب واليها الى حلب ، وكان بينه وبين
لؤلؤ مواحشة ، فحين وصل الى حلب قتله وأنفذ اليها من تداركها
بالعمارة والترميم ، وخرّب شيء يسير في قلعة حلب ، وخرّب أكثر
قلعة الأثارب وزربنا .

وقيل : ان مؤنن مسجد عزاز كان حارسا بالقلعة فحرس ونام
على برج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزلزلة ألقتة على كتف
الخدق وهو نائم لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعة فظنوه
ميتا ، فأخذوا عنه الحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواص مقدم عسكر حلب ، ومتولي اقطاع
الجند ، وكانت سيرته اذ ذاك صالحة ، وكان لؤلؤ في أول أمره
مقيما بقلعة حلب لا ينزل منها ويدبر الأمور ، فكتب الى السلطان
على سبيل المغالطة يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلفها
رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب انفاذ العساكر اليه .

فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش ومذكوبرس (٨٨) وغيرهم
من أمراء السلطان في سنة تسع وخمس مائة ، فتغيرت نية لؤلؤ
الخدم عما كان كتب به الى السلطان ، وكتب الى أتابك طغتكين
يستصرّخه ويستنجده ، ووعد تسليم حلب اليه ، وأن يعرضه
طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك (٨٩) .

ووصل حلب ، والعساكر السلطانية ببالس متوجهين الى حلب
فرحلوا منها الى المعرة ، ووصلهم الخبر ان ذلك اليوم وصل أتابك
الى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا الى حماة فتسلموها .

وتسلموا رفنيه (٩٠) من أولاد علي كرد ، وسلموها الى خير
خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يقصد
دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص وايلغازي بن
أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره من ملوك الفرنج
ونزلوا أجمعين أفامية .

ونزلت العساكر السلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه ، أو يذكسروا فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده .

وخاف الفرنج وضاعت صدور أمراء عسكر السلطان من المصاهرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتفق أتابك والفرنج على عود كل قوم الى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوجه أتابك الى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص الى حلب ، فقبض عليه لأولؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السلطان حينئذ عن حصن الأكراد ، وساروا الى كفرطاب ، وحصروا حصنا كان الفرنج عمروه بجاسمها وأحكموه ، فأخذوا وقتلوا من فيه ، ورحلوا الى معرة النعمان .

وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالشرب والنهب ووقع التحاسد فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا من جهة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول ان شمس الخواص مقبوض عليه عند أولؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج . ورحل برسق وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث (٩١) يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضياع .

ووصل برسق بالعسكر الى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة فساعة ، فوصلهم الفرنج ، وقصدوا العسكر من ناحية جبل السماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث الى تل السلطان . (٩٢)

واستتر قوم في الضياع من العسكر فنهبهم الفلاحون وأطلقوهم ، وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الاحصاء ، وأخذ الكفار من هذا ما يفوت الوصف ، وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور .

وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها واجتمع العسكر على تل السلطان ، ورحلوا الى الذقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا الذقرة ، وكان أوبنا (٩٣) قد طلع أصحابه الى حصن بزاعا ، وكان قد تقدم العسكر اليها ، فلما بلغهم ذلك نزلوا ووصلوا الى العسكر .

وتوجهت العساكر الى السلطان والى بلادهم ، ووصل طغتكين من دمشق فتسلم رفنية (٩٤) ممن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال ، وسلم اليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل الى طغتكين فرد عليه رفنيه ، وعاد الى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانه صار بعد ملازمة القلعة ينزل منها في الأحيان ويركب ، فاتفق أنه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب الى بالاس ، وهو في صورة متصيد ، فلما وصل الى تحت قلعة نادر قتله الجند (٩٥).

واختلف في خروجه ، فقيل: انه كان حمل مالا الى قلعة دوسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعود الى حلب ، وكان السلطان قد اقطع حلب والرحبة أق سنقر البرسقي (٩٦) ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقتة ، وخدموا لؤلؤا وصاروا من خواصه ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمل أنهم اذا قتلوه تصح له اقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضهم الى الرحبة فأعلمه ، فأسرع أق سنقر البرسقي

المسير الى حلب من الرحبة ، وانضاف بعض عسكره الى بقية القوم الذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا اليها فسبقهم ياروقتاش الخادم - أحد خدم الملك رضوان - ودخل حلب .

وقيل : إن أولوا كان قد خاف فأخذ أمواله ، وخرج طالبا بلاد الشرق للنجاة بأمواله ، فلما وصل الى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشي : «تتركوه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي!» وصاح بالتركية: «أرنب أرنب» ف ضربوه بالسهم فقتلوه .

ولما خرج عن حلب اقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين الى أن وصل ياروقتاش الخادم مبادرا فدخل حلب ونزل بالقصر ، وأخرج بعض عسكر حلب ، وأوقع بالذين قتلوا أولوا ، وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب وانهزم بعض من كان في النوبة فالتقوا أق سنقر في بالس في أول محرم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهل للبرسقي ما أمل ، وراسل أهل حلب ومن بها في التسليم اليه فلم يجيبوه الى ذلك .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين ايلغازي بن أرتق ليصل من ماربين ويدفع أق سنقر ، وكاتب روجار صاحب انطاكية أيضا فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية ، فحينئذ أيس البرسقي من حلب ، وانصرف من أرض بالس الى حمص فأكرمه خيرخان صاحبها ، وسار معه الى طغتيكين الى دمشق فأكرمه ، ووعد بانجاده على حلب .

وهادن ياروقتاش صاحب انطاكية روجار ، وحمل اليه مالا وسلم اليه حصن القبة ، ورتب مسير القوافل من حلب الى القبة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إن ياروق تاش طلع الى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلة يوقعها بالمقدمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادما من خدم رضوان .

ورد أمر سلطان شاه وتقدمه العسكر وتدير الأمور الى عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحي ، فدبر الأمور وساسها ، وضعفت حلب وقل ارتفاعها وخربت أعمالها .

ووصل ايلغازي بن أرتق الى حلب فأنزله في قلعة الشريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلموا اليه بالاس والقلعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحي ، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من أهل حلب وجندها فخرج عنها الى ماربين ، وبقيت بالاس والقلعة في يده ، وأخرج ابن الملحي من الاعتقال وأعيد الى تدبير الأمور .

وأفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج وحصرها ، فوصل ايلغازي في جمع من التركمان اليها ، فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالاس وباعها لابن مالك ، وعاد الى ماربين ، وبقي تمر تاش ولده رهينة في حلب .

ووصل في هذه السنة أتابك طغتيكن وأق سنقر البرسقي الى حلب ، وراسل أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا: «ما نريد احدا من الشرق» وأنفذوا واستدعوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سنقر الى الرحبة وأتابك الى دمشق .

واشتد الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزرع عرق ولحقه هواء عند ادراكه أتلفه ، وهرب الفلاحون للخوف ، واستدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص ، فرتب الأمور بها ، وحصنها ، وسار إلى حلب ، ونزل في القصر خوفا من ايلغازي لما كان بينهما (٩٨).

وخرج أتابك إلى حمص ، ونهب أعمالها وشعثها ، وأقام عليها مدة ، وعاد إلى دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلة من حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا نضائرهم وأموالهم لما قد أشرف عليه أهل حلب ، فلما وصلوا إلى القبة نزل الفرنج اليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ، ورفعوهم إلى القبة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى إمامية ، ومعرفة النعمان ، وحبسوهم ليقرؤا عليهم مالا .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل إلى صاحب انطاكية مالا وهدية ، فرد عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعد منه شيء .

وقوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجد وضعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلد حلب ، وأخذوا مالا لا يحصيه إلا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالانجاء ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطربا بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها ، وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوب أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلا من عزاز وبلدها ، وبقيّة بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقي خراب مجذب ، والقوت في حلب قليل جدا ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكوك حلب الآن ، وما سوى ذلك مناسب له .

ويؤس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد من الملوك ، فاتفق

رأيهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين إلى ايلغازي بن ارتق ، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا أنه يصل في عسكر يفرج به عنهم ، وضمنوا له مالا يقسطونه . على حلب يصرفه إلى العساكر .

فوصل في جند يسير والمدير لحلب جماعة من الخدم ، والقاضي أبو الفضل بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ، فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشاب وجماعة من مقدمين ، وتلطفوا به ولم يزالوا به حتى رجع .

ووصل إلى حلب ، ودخلها ، وتسلم القلعة ، وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب .

وقبض على جماعة ممن كان يتعلق بالخدم ويخدمهم ، وأخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الذين استولوا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مال يحمله عن عزاز ليرحلوا ، فلم يلتفتوا لقوة اطماعهم في أمر الاسلام ، وكان ايلغازي يعجز بحلب عن قوت الدواب ، وحلب على حد التالف .

فلما عرف من بعزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سالموها إلى الفرنج ، وراسلهم من بحلب في صلح يستأنفونه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفًا من الله بهم ، على أن يسلموا إلى الفرنج تل هراق ويؤدون القطيعة المستقرة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي الف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالا وغربا .

وزرعوا أعمال عزاز وقووا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلغون به من القوت .

وسار إيلغازي الى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها الى حلب ، فسار اليه أتابك طغتيكن ، والتقاءه بقلعة دوسر ، ووافقه على ذلك ، وسارت الرسل الى ملوك الشرق والتـركـمان يستجدونهم .

وكان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دوسر ، فنزل الى ايلغازي ليطالب منه العود الى حلب ، فلما صار عند الزورق ليقطع الماء الى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنية فضرباه عدة سكاكين ، ووقع ولداه عليهما فقتلاهـما ، وقتل ابن بديع واحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل الى القلعة فوثب آخر من الباطنية وقتله ، وحمل الباطني ليقـتـل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

وتوجه ايلغازي الى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والترـكـمان ، فجمعـا عسـكـرا عظيمـا ، وتوجه ايلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفا في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفرات من عبر بدايا وسنجة (٩٩).

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كل ماقدروا عليه ، ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب وأياس أهلها من انفسهم ، فسار الى مرج دابق ثم الى المسلمية ، ثم الى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الروج والفـرنـج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطنطين في الروج ، وجمع سرجال صاحب انطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج الى جسر الحديد ، ثم دخلوا ونزلوا بالبلاط بين جبليـن ، ممـايـلي درب سرمد ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الاول .

وضجر الأمراء من طول المقام ، وايلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل اليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحدثوا ايلغازي على مناجزة العدو فجدد ايل غازي الايمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العدو ، وأنهم لا يذكون ويبذلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بذفوس طيبة .

وسار المسلمون جرايد ، وخلفوا الخيام بقنسرين ، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول ، فباتوا قريبا من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون ان المسلمين ينازلوا الأتارب أو زردنا ، فما شعروا عند الصبح الا ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال ، وهو راكب على حجر وبيده رمح ، فرأه بعض العسكر فازدراه وقال : « إنما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمم ! » فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهم همهم بين الصنفين ، فأبكى الناس وعظم في أعينهم .

وبار طغان ارسلان بن دملاج من ورائهم ونزل في خيامهم ، وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قتل .

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والاتباع والغلمان بالسهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقتل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون ذفرا منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين ذفرا لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقتل في المعركة ما يقارب خمس عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت
الوقعة يوم السبت وقت الظهر ، فوصل البشير إلى حلب
بالنصر ، والمصاف قائم ، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع
حلب ، سمعوا أصيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحد
من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأحرق أهل القرى القتلَى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس
واحد أربعون نصلاً نشاب ، ونزل ايلغازي في خيمة
سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً
يهديه لملوك الاسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي ايلغازي ، كان فيهم رجل عظيم
الخلقة مشتهراً بالقوة ، وأسرته رجل ضعيف قصير قليل
السلاح ، فلما حضر بين يدي ايلغازي قال له التركمان : «أما
تستحي يا سرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد؟» فقال:
«والله ما أخزني هذا ، ولا هو مولاي وإنما أخزني رجل عظيم أعظم
مني وأقوى ، وسلمني إلى هذا ، وكان عليه ثوب أخضر وتحتة
فرس أخضر» . (١٠١) .

وتفرقت عساكر المسلمين في بلاد أنطاكية والسويدية وغيرهما
يقتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه
الوقعة ، فأخذ المسلمون من السبي والغنائم والدواب ما يفوت
الاحصاء ، ولم يبق أحد من الترك إلا امتلأ صدره ويده بالغنائم
والسبي .

ولقي بعض السرايا بغدوين الرويس وابن صنجيل في خيلهما
بالقرب من جبلة ، وقد توجهتا لنصرة سرجال صاحب
أنطاكية ، فأوقع بهما الترك ، وقتلوا جماعة وغنموا ما قدروا
عليه ، وانهزم بغدوين وابن صنجيل ، وتعلقوا بالحبال .

ورحل ايلغازي إلى ارتاح ، وبسار بغدوين فدخل

انطاكية ، و سلمت اليه اخته زوجة سرجال خـ زائنه وامواله ، وقبض على اموال القتلى ودورهم ، وأخذها وزوج نساء القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل ، وجمع وحشد واستولى على انطاكية ، ولو سبقه ايلغازي الى انطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدين أرتاح ، فعاد ونزل الأتارب ، وهجم الربرض ونهبه ، وقتل من قدر عليه ، وخرج أحداث من حلب ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمنهم بعد ان استأخذت ، وسيرهم الى مأمنهم .

ورحل منها الى زرينا وكانوا قد حصنوها واحكموا عمارتها ، وقتلها فطلبوا الأمان فأمنهم ، وسيرهم الى انطاكية فلقبهم بعض التركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومضوا الى أهلهم .

وكان صاحب زرينا لما بلغه منازلها ، حمل بغدوين والفرنج على الخروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرق التركمان بالغنائم وعودهم إلى أهلهم ، وأن إيلغازي في عدة قليلة ، فبلغه ذلك فجذ في قتالها حتى أخذها - كما ذكرناه - ورتب أصحابه بها ، وتوجه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد الى دانيث بعد ان رد الأثقال والخيام إلى قدسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نزلوها يوم فتحه زرينا في مائتي خيمة وراجل كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على أربعمئة فارس سوى الرجالة ، وذلك في رابع جمادى الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زرينا وأكثر خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص وبعض التركمان ، فكشفوهم وأنهزموا بين أيديهم ، وسار ليتدارك أمر زرينا ويكبس الأثقال والخيام فعرف أخذها وتسيير الأثقال الى قدسرين فعاد .

وحمل بقية المسلمين على بغدوين ومن كان معه ، فقتلوه

ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التركمان من يعود به الى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفة عن مقامه فيها ، فخرج الفرنج الى بلد المعرة ، فسبوا جماعة ، وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا . (١٠٤)

ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور ، غربي الباره - وهو حصن كان لابن مذقذ وسلمه اليهم - ولما جرت الواقعة الاولى على البلاط عاد وأخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخذه في جمادى الاولى ، وأطلق من كان فيه .

ورحل الى كفر روما (١٠٥) فأخذ حصنها بالسيف ، وقتل جميع من كان فيه ، ووصلوا الى كفر طاب ، وقد احرق ابن مذقذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفا منهم ، فرمموه ، ورتبوا رجالهم فيه ، وساروا الى سمرين ومعره مصرين فتسلموها بالأمان ، ثم نزلوا زربنا ، ورحلوا عنها الى انطاكية .

ومع هذا ففارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظفر والغنيمة .

ووصل جوسلين الى بغدوين خاله وقت أخذه سمرين ، فأقطعه الرها وتل باشر ، وسيره اليهما ، فأسرى الى وادي بـطنان دفعتين ، والى ما يلي الفرات من جهة الشام ، وقتل وسبى ما يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنقره وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كل ما وجد من دواب ، وأسر رجلا وزساء ، وأسرى الى الرواندون يتبع طائفة من التركمان كانت قطعت الفرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة .

وفي صفر من سنة أربع عشر وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأتارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين ايلغازي وبين الفرنج ، فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب الى انطاكية ، فلقاهم عسكر انطاكية فكسروهم ، وعاد فتبعه الفرنج والتقوا ما بين ترمانيين (١٠٧) وتل اعنى ، من فرضة ليلون .

ووصل في هذه السنة ايلغازي بجمع كثير من التركمان ، وقطع
الفرات في الخامس والعشرين من صفر ، وتوجه الى تل
باشر ، وأقام أياما ولم يقاتلها ، ورحل الى عزاز يريد اخذها ، ولم
يمكن أحدا من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل الى أنطاكية
وأقام عليها يوما واحدا ، وأقام في أعمال الروم أياما يسيره .

ثم خرج الى قدسرين فتشوشت قلوب التركمان لأنهم املوا من
الغنائم مثل السنة الخالية ، ولم يقاتل بهم حصنا ، ولا غنموا
شيئا ، وباع الأسرى الذين اسرهم في الواقعة الاولى ، فعادوا الى
بلادهم ، وبالغوا في التشفي من المسلمين والقتل والسبي

وجرى من نجم الدين اساءة الى بعض التركمان على شيء أنكره
عليهم ، فبالغ في هوانهم وحلق لحى بعضهم ، وقطع
اعصابهم ، فتفرق عسكره وبقي نفر يسير متفرقين في أعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا الى دانيث ، فوصل طغتيكن وعسكر
دمشق ، واجتمعوا مع ايلغازي في عسكر يقاوم الفرنج ، فساروا
الى الفرنج ، وهم في الف فارس وراجل كثير ، فدار الترك حولهم
فلم يخرج منهم احد ، وكرهوا ان يعودوا على اعقابهم فتكون
هزيمة ، فساروا نحو معرة مصرين لا ينفرد منهم فارس ولا راجل .

وأشرف الترك على أخذهم ، ومن خرج منهم قتل ، ومن وقفت
دابته تركها وأخذت ، ولا يقدر على الماء وهم على حالة
الهلاك ، وايلغازي وطغتيكن يردان الناس بالعصا ، فنزلوا بقرب
معرة مصرين ، وعاد الترك عنهم الى حلب ، وعادوا الى
أنطاكية . (١٠٨)

وصالحهم ايلغازي الى آخر سنة أربع عشرة ، على أن لهم المعرة
وكفر طاب والجيل والبارة ، وضياعا من جبل السماق برسم هاب ،
وضياعا من ليلون برسم تل اعذى ، وضياعا من بلد عزاز برسم
عزاز .

وسار نجم الدين ايلغازي الى ماردين ليجمع العساكر ، وهدم ايلغازي زرينا في شهر ربيع الاول ، وكان اهل حلب قد شكوا اليه تجديد رسوم جدت عليهم في ايام رضوان ، لم تجربها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريين ولا في ايام اق سنقر ، فأمر بكشف مقدارها ، فأخبر انها مبلغ اثني عشر الف دينار في كل سنة ، فرسم بحذفها ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحا بذلك ، وسمره على باب الجامع وذلك في هذه السنة .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاحين الذين تحت ايديهم في هذه الاعمال من المسلمين وعاقبوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الاموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضياع التي في ايدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنوا بالصلح ، ففقد اللعين جوسلين ، وخرج فأغار على الذقرة والأحص ، واحتج بأنه أسر له والي منبج أسير ، وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في الذقرة والأحص ، ونزل الوادي وعاث فيه .

ثم سار الى تل باشر ، ثم عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الاول ، وأخذ في غارته الاولى المشايخ والعجائز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب الى بغدوين في ذلك ، وقال: «إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر الا ثقة بالصلح» فقال: «مالي على جوسلين يد». وتتابع من جوسلين غارات متعددة .

ثم خرج الفرنج من انطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وأخذوا مالا يحصى ، وأسروا جمعا ، وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابن منقذ ذلك على أن يردوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه الى ذلك ، فجعل لهم مالا حملة ، وصالحهم الى آخر السنة .

وهرب ملك العرب دببى بن صدقة الأسدي من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل الى قلعة جعبر ، فأكرمه نجم الدولة مالك ، وأضافه ، ثم سار الى ايلغازي الى ماردين ، وتزوج ابنته فاشتد به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنعمة الوافرة ، وحمل اليه ايلغازي ما يفوت الاحصاء .

فاشتغل ايلغازي بدببى عن العبور الى الشام فحرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه ، وأغار جوسلين الى صفين (١٠٩) ، وسبى العرب والتركمان ، ونزل بسزاعا وقتلها ، وأحرق بعض جدارها ، وصونع على شيء وبخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمس مائة الأثارب ، وقتلوا جماعة وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنهم في ربيع الآخر من السنة ، نزلوا نواز (١١٠) وزحفوا الى الأثارب ثانية ، وأحرقوا الدور والغلة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ، وأخذ الناس والدواب من حاضره حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجلب قدره من الماشية ، وأسر نحو من خمسين اسيرا ، وصاح الصائح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج وخلصوا المواشي ، وعاد الفرنج الى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدولة سليمان بن نجم الدين ايلغازي ، وكان ايلغازي قد ولى رئاسة حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكى بن قرناص الحموي ، وجعله بين يديه ، فكتب الى ولده ونوابه يأمرهم بصلح الفرنج على ما يريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر ولبلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النصف ، حتى أنهم ناصدوهم في رحى الغربية (١١١) وعلى أن يهدم تل هراق بحيث يبقى للفنتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب ايلغازي الى ذلك ، فامتنع من كان فيها من التسليم فبقيت في ايدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دير خراب قديم ، بالقرب من سرمد (١١٢) ، وحصنه ثم أطلقه لصاحب الأتارب سيرالان دمسخين .

وأمر ايلغازي ولده باخرا بقلعة الشريف الجديدة بحلب واخراج من كان فيها من جند رضوان ، فأخرجهم شمس الدولة وابن قرناص بغدر الاغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوهم ، وتولى الرئيس مكى بن قرناص خرابها في جمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بايلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار اليه في عالم عظيم ومعه ديبس بن صدقة ، فكسره المسلمون ، وبخلوا وراءهم في الدرب ، فكر الكرج عليهم في الدرب ، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلا وأسرا ، ونهب لديبس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين ايلغازي الى مارين سالما (١١٣)

وأنفذ ايلغازي الى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه اشياء فقبح ذلك عنده ، وقيل له اشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج الملوك سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا الى قلعة جعبر ، ومد يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل: إن ديبس بن صدقة لما سار مع ايلغازي الى الكرج سأل ايلغازي في الطريق ان يهب له حلب وأن يحمل اليه ديبس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه ايلغازي الى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ الى ولده سليمان ، وكان خفيفا ، وقال له: « أظهر أنك قد عصيت علي حتى يبطل ما بيني وبين ديبس ». فحمله الجهل على أن عصى ونابذ

أباه ، ووافقهم مكى بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنة حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجاب أبيه فصفعهم وحلق لحالهم ، ومديده الى أموال الناس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقربهم سليمان ، فنزلوا زرينا وعمرها لابن صاحبها كليم بن ابرص .

ثم سار الفرنج الى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضر طيء وغيرها ، فخرج اليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصره ، وأخذها وخربها ، وحمل باب حصنها الى انطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون الذقرة والأحص ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صلدع - على نهر قويق - وخرج اليه اتزر بن ترك طالبا منه الصلح مع سليمان ، فقال: «على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه» ، فقال له: «ما يجوز أن نسلم ثغرا من ثغور حلب في بدو مملكتك ، بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقه عليك عليه » فقال له: «الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فاني قد عمرت عليه الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرسا لفارس قد عطبت يداها ، ولل فارس هري (١١٤) شعير ، يعلفها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هري الشعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » ثم رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيام ، واتصل به ما أوجب رحيله الى انطاكية .

ولما بلغ ايلغازي اصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل الى قلعة

جعبر فضعت نفسه ابنه سليمان عن العصيان على أبيه ، فأنفذ اليه من استخلفه على الصفيح عنه والاحسان اليه وإلى من حسن له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكد الايمان على ذلك .

وبذل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقاءه ، وبذل إلى القصر ، وأحسن إلى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصرف الشحنة الذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشق لسانه وكحله وأخذ ما وجد له ، وسلم أخاه إلى من يعذبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصر الحاجب ، فعني به من تولى أمره فسلمت إحدى عينيه ، وعرف طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوك أولاد رضوان من قلعة جعبر إلى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوج بها ، وبذل بها بحلب ، وولى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزاق العجلاني الباسي ، وولى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيام مملكتهم الأثارب وزربنا .

وسار في محرم من سنة ست عشرة وخمسمائة إلى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصل في صفر وولى الوزارة أبو الرجاء بن السرطان .

وعبر أيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات - وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن ارتق ، واستدعاه من أعمال الروم وببده عنة قلاع بالقرب من ملطية - وصحبتهما عدة

من التركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل ابا الرجاء ابن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سعي به اليه عليه .

ونزل ايلغازي زرينا ، نزل عليها في العشرين من جمادى الاولى ، وحصرها اياما وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر ايلغازي الفرات انه ينزلها ، فجمع اصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدة خمسة عشر يوما و حلف هو لهم على ان ينجدهم ، ومض على أن يستجيش ، فان جازت هذه المدة ولم يصلهم فانه يبتاع دماءهم بكل ما يملكه ، وقال لهم: «والله لكم علي من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم الا اسلامي ان قبله اسلمت على يديه لخلصكم» .

وخرج حتى وصل الى بغدوين صاحب انطاكية ، وهو بأكتاف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور ايلغازي وبما بلغه من قصده زرينا ، فقال: «مذ حلفنا له وحلف لنا ما نكثنا و حفظنا بله في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يفدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته الا على انطاكية وأعمالها ، بل يجب ان تعود الى أقامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد» . فعاد وكشف الأمر .

وسير الى بغدوين فــــأعلمه بنزوله على زرينا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول اليه ، ووصل انطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زرينا ، وأخذوا الفصيل الاول ، فوصل الفرنج بعد أربعة عشر يوما من منازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت البير .

وبلغ الخبر ايلغازي ، فترك ، زرينا وتوجه نحوهم ، فنزل نواز ، وطلب ان يخرج الفرنج من المضيق الى السعة فلم يخرجوا ، فرحل الى تل السلطان ، وأتابك طغتيكن في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البيدر والجدار .

وبخل صاحبها يوسف ميرخان قلعتها ، ونزلوا أبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد ، فعادوا الى بلادهم ، فعاد ايلغازي فنزل زرينا ، وهجم الحوش الثاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفرنج ونزلوا تحت اللير ، فرحل ايلغازي الى نواز ، وأقام ثلاثة ايام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون الى الصحراء ، فاتفق أن أكل ايلغازي لحم قديد كثيرا وجوزا أخضر وبطيخا وفواكه ، فانتفخ جوفه وضاق نفسه ، واشتد به الامر ، فرحل الى حلب ، وتزايد به المرض ، فسار طغتيكن الى دمشق وبك غازي الى بلاده .

وبخل ايلغازي ليتداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص من علته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس الى نبل (١١٥) من عمل عزاز ، ومعهم أمراء منهم دولت بن قتلмыш ، فنهبوا وعادوا ، فوقع عليهم عند حربل (١١٦) كليام في أربعين فارسا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ظفر بك غازي باللعين جوسلين وابن خالته قلران (١١٧) بالقرب من سروج ، فأسرهما وأسر ابن اخت طذكريد ، وقد كان أسره في وقعة لياون ، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستين فارسا .

وطلب من جوسلين وقلران أن يسلموا ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلوا ، وقالوا : «نحن والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بغير حول رحله الى آخر ، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا .» فأخذهما ومضى الي بلنه .

ووصل الفرنج بعد ذلك من تل باشر في شعبان ، وكبسوا تل قباسين (١١٨) ، فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا ، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأما ايلغازي فأقام أياما ، وصلح من مرضه ، وسار الى ماردين ، ثم خرج منها يريد ميفارقين ، فاشتد مرضه في الطريق ، وتوفي بالقرب من ميفارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر من رمضان من سنة ست عشرة وخمسمائة .

وملك ابنة سليمان ميفارقين ، وابنه تمرتاش ماردين ، وابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب ، ولما سمع صاحب انطاكية بوفاة حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاغا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل اليه أهل «الباب» من الوادي مالا وخدموه .

فرحل الى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرروا على بالس مع ابن مالك مالا يحمل اليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقتل من الفرنج جماعة من المقدمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين الى الوادي وقد وصل (سليمان بن) ايلغازي فحصر البيرة (١١٩) ، وتسالم حصنها على أن يؤمن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابع غارات الفرنج حول حلب الى آخر سنة ست عشرة وخمسمائة .

وولى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان ، في صفر ، بعد ما قبض عليه ايلغازي - كما تقدم ذكره - وجدد بدر الدولة المدرسة التي بالزجاجين بحلب ، المعروفة ببني العجمي (١٢٠) ، بإشارة ابي طالب بن العجمي . وذكر لي انه عزم على ان يقفها على الفرق الأربع ، ونقلتها من كنيسة داثره كانت بالطحانيين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، استقر الصلح بين بدر الدولة صاحب حلب وبين
بغدوين صاحب انطاكية ، على ان يسلم بدر الدولة اليه قلعة الأثارب
فتسلموها ، وصارت لصاحبها أولا سير آلان دمسخين ، وبقيت في
يده الى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق ، فعرضه
بدر الدولة عنها شحذكية حلب .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب
انطاكية ليقاتل نور الدولة بك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصرا
قلعة كركر (١٢٦) ، فالتقى على موضع اسمه «اورش» بالقرب من
قنطرة سنجة ، فكسره نور الدولة بك ، وأسره ، وقتل معظم
عسكره ومقدميه ونهب (خيمه) ، وفتح (كركر) بعد جمعة ، وكان في
دون عدة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت (١٢٢) مع جوسلين
وقلران .

ثم إن نور الدولة بك عبّر الفــــرات ونزل على حلب
وضايقها ، ونزل من قبلها ، ثم انتقل الى باندقوسا (١٢٣) وأقام
اياما ، ورحل الى ارض النيرب ، وجبرين (١٢٤) ، وأمر بحرق الغلة
وأخذ الدواب .

ومضى قطعة من عسكره الى حدابين (١٢٥) ، فأخذ أحدهم
عنزا ، فرماه بعض فلاحى الضيعة بسهم فقتله فحصرت مفارثها
وأخذت بعد ان امتنع أهلها من التسليم ، فدخلوا على المغارة
فاخذوا بها مائة وخمسون .

وخذق في مغارة تل عبود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز
وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضا ، وأخذ لاهل حلب جشير
خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بك وكان سببا
للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأولى من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، تسلم مدينة حلب سلمها اليه مقلد بن سقويق بالامان ومفرج بن الفضل ، ونودي بشعار ذلك من عدة جهات ، وكسر باب انطاكية ، وأخربت ثلثة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلم القلعة وجلس بها بعدما نزل بدر الدولة منها بيوم ، وقرر حالها ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيره الى حران ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفا منه .

ثم انه سار الى البصرة وهجمها ، وأسر الاسقف الذي بها وقيده ، ووكل به (١٢٨) ، ورحل الى كفرطاب فغفل الموكل به فهرب الى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الاسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة .

فوصله من أخبره ان بغدوين الرويس وجوسلين وقلران وابن اخت طذكريد وابن اخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوما من اهل حصن خرتبرت فأطلقوهم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كل ما كان لنور الدولة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد اشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب ان نمضي ونحمل ما قدرنا عليه » . فما سمحت نفس بغدوين بترك الحصن والخروج منه . (١٢٩) .

فاتفق رأيهم على خروج جوسلين ، وحلفوه على انه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ولا يشرب الا وقت القربان الى ان يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم الى خرتبرت ويخلصهم .

وأما ذلك فإنه سار حتى نزل على خرتبرت ففتحه بالسيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من اصحابه الذين كفروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبق سوى بغدوين المالك وقلران وابن اخت بغدوين ، وسيرهم الى حران وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى الى القدس ، واستنجد بالفرنجة ، ووصلوا
تل باشر ، فسمعوا خبر فتح خربتبرت بالسيف فسار الى الوادي
وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع
شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان (١٣٠) ثم حلب من ناحية «مشهد الجف» من
الشمال ، وخرب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد
طرود» بالقرب من بستان الذقرة ، وقتل وسبى مقدار عشرين ذفرا .

ثم رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد
الجانب القبلي وبساتينه ، ونبش الضريح الذي بـ «مشهد الدكة»
(١٣١) فلم يجد فيه شيئا فألقى فيه النار ، والحلبيون في كل يوم
يقاتلونهم أشد قتال ، ويخسر معهم في كل حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان ، ونزل السعدي
(١٣٢) ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كل الى بلده ، ووجد في
المسافة في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصانا موتى ، ونبش
الناس منهم موتى جماعة .

فأمر القاضي ابن الخشاب بموافقة من مقدمي حلب ان تهدم
محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب الى
جهة القبلة وتغير أبوابها ، وتتخذ مساجد : ففعل ذلك بكنيستهم
العظمى ، وسمي مسجد السراجين (١٣٣) : وهو مدرسة الحلاويين
الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين (١٣٤)
الآن ، وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدم
(١٣٥) . ولم يترك للنصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي
الآن باقية .

هذا كله ونور الدولة بك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إن جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان الى الوادي
والذقرة والأحص ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب

(١٣٦) ، حتى لم يبق بحلب من الخيالة خمسون فارسا لهم خيل ، وأخذ من الدواب البقر والغنم والجمال مالا يحصى ، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد الى تل باشر .

وخرج سير الآن في عسكر انطاكية من الاثارب حتى وصل الحاذوته (١٣٧) وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في العزيب في الجانب القبلي ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ، وأخذ قافلة كانت واصله من شيزر بغلة .

ثم عبر جوسلين من الفرات الى شبختان وأغار على تركمان وأكراد ، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة الاف وسبى وقتل ، ومن سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحرامية ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الأسارى مرة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجبول ، وما حولها ، وأخذ دواب كثيرة وتوجه الى دير حافر ، فخذق أهلها بالدخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بك الى الشام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وأمر باخراجهم من حلب فباعوا اموالهم ورحالهم وخرجوا منها . ثم إن الأمير نور الدولة بك جمع العساكر ، ووصله اتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقي ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، وأخذوا عليها نذوبا الى أن سهل أمرها ، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرقوا بعد قتل من قتل وأسر من أسر .

وعمر بك حصن الناعورة بالنقرة وحصن المغارة - على شط

الفرات - وتزوج بالخاتون فرخنة خاتون بنت رضوان ، وعرس بها في ثالث وعشرين ذي الحجة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرم من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، تذكر بك على رئيس حلب سلمان العجلاني وجعل عليها رجلا من اهل حران اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الذعار وقطاع الطريق عند قدوم بك حلب ، وأقام الهيبة العظيمة ، وتقدم بفتح ابواب حلب ليلا ونهارا ، وحسم مائة ارباب الفساد . وقال للحارس : «إن عنت سمعتك تصيح ضربت عنقك!» .

ونقل بغدوين ومن كان معه من حبس حران ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوجه في شهر صفر فرقة من اصحابه الاثراك الى ناحية عزاز ، فوقع بينهم وبين الفرنج وقعة عند مشحلا ، وظفر بهم الاثراك ، وقتلوا منهم اربعين رجلا من الخيالة والرجالة وأخذوا اسلابهم ، ووصل الباقيون عزاز وما فيهم الا من جرح جراحا عنة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغل الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، تذكر نور الدولة بك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، وتقدم اليهم ان يمروا على منبج ، ويطلبوا من حسان ان يخرج معهم للاغارة على تل باشر فاذا خرج قبضوه ، ففعلوا ذلك ، وبخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن وبخله عيسى أخو حسان .

وسير حسان فحبس في حصن بالو (١٣٩) بعد ان عوقب وعري ، وسحب على الشوك فلم يسلمها أخوه .

وكتب عيسى الى جوسلين: « إن وصلتني وكشفت عني عسكر بك سلمت اليك منبج ». وقيل : انه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى الى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليروحل بك عن منبج .

فسار اليه بك لما قرب من منبج ، والتقى يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الاول ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى آخر النهار .

وحمل فيهم بك ذلك اليوم خمسين حملة يفتك فيهم ويخرج سالما ، ويضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعاد الى الظفر بالفرنج .

واصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الاول قتل كل اسير اسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعا ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وببده ترس .

وكان قد عزم على أن يستخاف ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجدا لاهل صور ، فان الفرنج كانوا في مضايقتها (١٤٠) ، وفي تلك المضايقة اخذوها ، فبينما كان بك قائما يأمر وينهى اذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل: انه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال: « هذا قتل المسلمين كلهم » ومات لوقته .

وقيل: بقي ساعات وقضى نحبه - رحمه الله - وحمل الى حلب ، ودفن بها قبلي مقام ابراهيم - عليه السلام -

ووصل حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الاول ، وبخل القلعة ونصب علمه ، ونادى الناس بشعاره .

وسار سليمان بن ايلغازي من ميفارقين الى خرتبرت وحصون
بلك ، وهي نيف وخمسون موضعا قدسلمها .

وسار داود بن سكمان ، فأخذ حصن بالو وأطلق حسان بن
كمشكين فعاد الى منبج .

فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب الهاه الصبي واللعب عن التشمير
والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر
المسلمين بذلك ، واستوزر ابا محمد بن الموصل ، ثم عزله وصاحبه
في رجب من سنة ثمانى عشرة واستوزر ابا الرجاء بن
السرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسير الى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك
اسكنه بها ، فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلى
منها بحبل وهرب الى دارا ، ثم رحل منها الى حصن كيفا (١٤٣) الى
داود بن سكمان .

وفي العشر الاواخر من ربيع الاول سار نائب جوسلين من الرها
وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار اليها نائب تمرتاش عمر
الخاص وكان نائبه وربيب أبيه ايلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة
فارس فلحقه على مرج اكساس ، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل اكثر
من كان معه من الفرنج ، وعاد غانما ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه
الى تمرتاش الى حلب .

ولاه تمرتاش شحذكية حلب وهو المدفون في القبة التي مقابل
باب مشهد ابراهيم - عليه السلام - واسمه مكتوب على جهاتها
الاربعة .

وولى قلعة حلب رجلا يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الاولى من هذه السنة استقر الأمر بين الملك
بغديوين صاحب انطاكية - وكان في سجن بلك بحلب - وبين

تمرتاش بن ايلغازي على تسليم الاثارب وزربنا والجزر وكفر طاب
وعلى تسليم عزاز وثمانين الف دينار وقدم منها عشرين الف دينار .

وحالف على ذلك وعلى ان يخرج دبيس بن صدقة (١٤٣) من
الناس ، وكان قد وصل دبيس منهزما من المسترشد بعد ان كسره
المسترشد ، وقتل خلاقا من عسكره فترك بلاده ، وحمل ما قدر عليه
من العين والعروض على ظهور المطايا ، ووفد على ابن سالم بن
مالك بن بدران الى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب
المسترشد والسلطان محمودا في أمره .

وكاتب دبيس قوما من اهل حلب ، وأنفذ لهم جملة
دينانير ، وسامهم تسليمها اليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن
صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن ايلغازي ، فأخذهم
وعذبهم وشدق بعضهم ، وصادر بعضا ، وأحرق بعضا .

وكان المتوسط حديث بغدوين مع تمرتاش الامير أبو العساكر
سلطان بن منقذ ، وسير أولاده وأولاد اخوته رهنا عن بغدوين الى
حلب .

وفكت قيود بغدوين وأحضر الى مجلس تمرتاش ، وتواكلا
وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيا وقلنسوة ذهب وخفافا ورانا
(١٤٤) ، وأعيد عليه الحصان الذي كان اخذته منه بلك يوم
اسره ، فركبه وسار الى شيزر يوم الأربعاء رابع جمادى ، فبقي
عند ابي العساكر حتى أحضر جماعة رهنا على الوفاء بما شرطه
لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من اولاد
الفرنج ، وعدتهم اثنا عشر نفرا ، وحمل العشرين الف دينار التي
عجلها .

وقبض صاحب شيزر الرهائن ، واطلق بغدوين من سجن
شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج - لعنه
الله - وغدر بتمرتاش وأنفذ اليه يقول : « البطريك الذي لا يمكن

خلافه سألني عما بذلت ، وما الذي استقر ، فحين سمع حديث عزان وتسليم حصنها مني ابي ، وأمرني بالدفع عنها وقال : إن خطيئتك تلزمني ، ولا أقدر على خلافه . فتريدت الرسل بينهما فلم يستقر على قاعدة .

وخالط ديبس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الامير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتفق ديبس والفرنح على قواعد تعاهدوا عليها منها ان تـــــــكون حلب لديس والاموال والأرواح للفرنح مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنح ، وتقدم ديبس الى مرج دابق فخرج اليه حسام الدين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به الى ماربين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه سليمان بن ايلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بدومندق رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند ابي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتريد بين تمرتاش وبغدوين الى ان عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، ويخرج بغدوين الى ارتاح قاصدا النزول على حلب .

ورحل بغدوين من ارتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كل ما كان عليه ، ثم رحل فنزل على حلب ، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأول .

وخرج ديبس وجوسلين من تل باشر ، وقصدا ناحية الوادي ، وأفسدا القطن والخن ، وسائر ما كان به وقوم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل اليهم الملك سلطان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنا ويسرة . ونزل ديبس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق ، وفي صحبة ديبس عيسى بن سالم بن مالك.

ونزل يغني سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس مما يلي ديبس من الشرق ، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة: للفرنج مائتا خيمة ، والمسلمين مائة خيمة .

واقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخرّبوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا تدوايتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان وعمدوا الى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : «هذا نبيكم محمدا» وأخريقول: هذا عليكم وأخذوا مصدفا من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : «يا مسلم ابصر كتابكم» وثقبة الفرنجي بيده ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (١٤٥) لبرذونه ، فظل البرذون يروث عليه ، وكلما ابصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجا وزهوا .

واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ، والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك .

وربما شذق المسلمون بعضهم ويخرج الغزاة من باب العراق ، ويسرقونهم من المخيم ، ويقطعون عليهم الطرق ، ويقتلون ويأسرون . ويصيح المسلمون على ديبس من الأسوار : «ديبس ، يا نحيس!» والرسل تتردد بينهم في الصلح ، ولا يستتب الى ان ضابق الأمر بالمسلمين جدا .

وكان بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار والحاجب عمر

الخاص ، ومعهما مقدار خمسمائة فارس ، والذي يتولى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وتولى حفظ المكان وبذل المال والغلال .

فاتفقوا على ان سيروا جد أبي قاضي القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جراحة ونقيب الأشراف وأبا عبد الله بن الجلي فخرجوا ليلاً ، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماربين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن ايلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان ، وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها ، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب .

وكانت الرسل مترددة بينه وبين اق سذقر البرسقي صاحب الموصل في اتفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ، فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك الليلة وصاحوا إلى أهل حلب : « أين قاضيكم؟ وأين شريفكم؟ » فأسقط في أيديهم إلى ان وصل منهم كتاب بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيون عند تمرتاش يحدثونه على التوجه إلى حلب ، وهو يعدمهم ولا يفعل ، وهم يقولون له: « نريد منك ان تصل بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم » .

فضاق الأمر بالحلبيين إلى حد أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلت الأقوات ونفذ ما عندهم، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنون لشدة المرض ، فاذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال ، وزحفوا إلى الفرنج وردوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتابا إلى والده يخبره بما آل امر حلب إليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرضى فوق كتبه في يد تمرتاش فغضب وقال : « انظروا إلى هؤلاء يتجلدون علي ، ويقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونكم أمرهم ، ويغرون بي حتى في أصل قلة ، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة » .

ثم أمر بالتوكيل والتضييق عليهم فشرعوا في أعمال الحيلة والهرب إلى أق سقز البرسقي ، يستصرخوا به فاحتالوا على الموكلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا (١٤٦) وساروا حتى أتوا الموصل ، فوجدوا البرسقي مريضا مدفا ، والناس قد منعوا من الدخول عليه إلا الأطباء ، والفروج يدقون له لشفة الضعف ، ووصل إلى دبب من أخبره بذلك ، ف ضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أمتهم نصره ، فكانت أنفس الحلبيين تزهق .

واستؤنن للحلبيين على البرسقي فأنن لهم ، فدخلوا إليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر ، فأكرمهم - رحمه الله - وقال لهم : « ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلت لله علي نذرا أن عافاني من مرضي هذا لأبذل جهدي في امركم ، والذب عن بلدكم ، وقتال أعدائكم » .

قال القاضي أبو غانم قاضي حلب : فما مضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقت الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب .

وبقي أياما وعمل العسكر أشغاله وخرج - رحمه الله - في عسكر قوي ، فوصل إلى الرحبة ، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل الى بالس ، وسار منها الى حلب فوصلها يوم الخميس
اثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثمانى عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشرا اعلامه البيض الى الفرنج
عند قربه من حلب ، وتحولوا الى جبل جوشن كلهم ، وخرج
الحلبيون الى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما اردوا .

وخرج اهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحو
الفرنج فانهمزموا بين يديه من جبل جوشن وهو يسير وراءهم على
مهل حتى ابعدوا عن البلد .

فأرسل الشالشية (١٤٣) ، وأمرهم ان يردوا العسكر فجعل
القاضي ابن الخشاب يقول له: «يامولانا لو ساق العسكر خافهم
أخذناهم ، فأنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي
تعلم ان في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر علينا - والعياذ
بالله - كسرة؟» فقال: «لا». فقال: «ما يؤمننا ان يرجعوا علينا
ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرهم وندخل الى
البلد ونقويه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم انشاء الله ، ونخرج
اليهم بعد ذلك .» (١٤٨)

ورجع وبخل البلد وتسلم قلعتها ، ونظر في مصالح البلد
وقواه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلا شاملا وأحسن اليهم
احسانا كاملا .

وكتب لأهل حلب توقيعا باطلاق المظالم والمكوس ، نسخته
موجوبة ، بعدما كان الحلبيون مذوا به من الظلم والمصادرة من عبد
الكريم والى القلعة ، وعمرالخاص والى البلد ، وتسليطهما الجند
والأتراك على مصادرة الناس بحيث انهم استصفوا أموال جماعة
من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .
وأما الفرنج فإنهم توجهوا الى الأثارب وبخلوا انطاكية .

وشرع الناس في الزرع ببلاط حلب في الثامن عشر من شباط وجعلوا يبلون الغلة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلة من أجود الغلال وأزكاها

وأطلق البرسقي بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل الى تل السلطان في سنة تسع عشرة وخمس مائة ، في أواخر المحرم ، وأقام به ثلاثة ايام ، ورحل الى ان وصل الى شيزر في سابع صفر ، وتسلم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين الف دينار حملت إليه .

وأقام بأرض حماة اياما حتى وصل اليه اتابك طغتيكن ، فرحل في عساكره التي لا تحد كثرة ، ونزل كفرطاب فسلمت اليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلمها الى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد وصل اليه من حمص والتقاءه بتل السلطان .

وسار الى عزاز وقتلتها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسرة عظيمة ، واستشهد جماعة من المسلمين من السوق والعمامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدمين أحد .

ووصل أق سنقر البرسقي سالما الى حلب ، وأقام على قدسرين اياما ، وتفرقت العساكر الى بلادهم ، ووصل امير حاجب صارم الدين بابك بن طلماس ، فولاه البرسقي حلب وبلداتها ، وعزل عنها سوتكين واليا كان ولاءه .

ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقي الى الموصل فلم يزل الفرنج يعللون الشحن والمقطعين بالمال في مغل ما وقعت الهدنة عليه الى العشرين من شعبان من السنة .

وسار بغدوين الى بيت المقدس والرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون احدا من رفع شيء من الصيافي ، واخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الاماكن والهدنة على حالها ، فتجمع الفرنج ونزلوا رمنية .

وخرج شمس الخواص صاحبها طالبا اق سذقر البرسقي مسنرخا به ، وسلمها اليه ولله المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة ، وقصدوا بلد حمص فشعثوه .

فجمع البرسقي العساكر وحشد ، وسار نحو الشام لحربهم حتى وصل الرقة في اواخر شهر ربيع الآخر ، وسار الى أن نزل بالذقرة على الناعورة في الشهر المذكور وأقام به اياما والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقر هذا الامر .

وكان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجهوا مع جماعة من التركمان الى المعرة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلذك ، صاحب بسرفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سير البرسقي ولده عز الدين مسعودا منجدا لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عز الدين الى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولاهها كافر الخادم الى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة الى الأثارب في الثامن من جمادي الآخرة من سنة عشرين ، وسير بابك بن طلماس في جماعة من العساكر والذقابين الى حصن النير المجدد فوق سرمد ففتحه سلما .

وقتل من الخيالة بعد ذلك خمسون فارسا ، ونهب العساكر الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات اليه ، ورفعوا الغلة جميعها الى حلب ، وزحفوا الى قلعة الاثارب ، وخرّبوا الدوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل اليه جوسلين ، ونزلوا عم (١٤٩) وأرتاح ، وسيروا الى البرسقي : «ترحل عن هذا الموضع ، ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنيه عليك » ، فتجنب الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تم على عزاز فصالحهم الى أن فـرج الخناق عن الاثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا : « ما نصلح الا على ان تكون الاماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين » . فامتنع من ذلك وأقام على حلب اياما والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد أق سزقر ، ونزل قدسرين ، ورحل الى سرمين ، وامتدت العساكر الى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين ، فأقاموا كذلك الى نصف رجب ، ونفذت أزواد الفرنج ، فعادوا الى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته اتابك طغتيكن ، وكان وصل اليه وهو على قدسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض اتابك فعملت له المحفلات ، وأوصى الى البرسقي ، وتوجه الى دمشق ، وسلم البرسقي حلب وتديبرها الى ولده عز الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلى بفعل الخير .

وسار أبوه الى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من

الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو محتفظ منهم ، فسبقوا أصحابه اليه ، فضربوه حتى أخذوه وحمل جريحا فمات من يومه .

وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد كان من كفر ناصح - ضيعة من عمل عزاز - فإنه سلم ، وكان له أم عجوز فلما سمعت بقتل البرسقي وقاتل من وثب عليه وكانت قد علمت ان ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالما فأحزنها ذلك ، وجزت شعرها وسوت وجهها .

وقيل: إن البرسقي قتل بيده منهم ثلاثة ، وكان البرسقي - رحمه الله - قد رأى تلك الليلة في منامه عنة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون اذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عنة أيام ، فقال: «لا اترك الجمعة لشيء أبدا» ، وكان من عادته ان يحضر الجمعة مع العامة - رحمه الله - وكان وزير البرسقي المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عز الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولى فيها من قبله الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة احدى وعشرين وخمسمائة الى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله ان ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له مذكورا بذلك ، فوصل الى الموصل وملكها ، ثم نزل الى الرحبة قاصدا الى الشام ، وكان يظن ان قاتل أبيه قوم من أهل حماة ، فأضمر للشام وأهله شرا عظيما .

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والاقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طغتيكن عنه انه يقصده ، فتأهب له فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها أياما فسلمها الوالي اليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل: سقي سما فمات .

وندّم الوالي على تسليم الرحبة ، وكان قد وصلت قطعة من
العسكر لتقوية حلب ، فمنعهم تومان من الدخول اليها ، فوقع الشر
بينه وبين رئيس حلب فضائل بن بديع ، وداخلهم الى حلب .

فوصل الى حلب ختلع ابيه (١٥١) السلطاني غلام السلطان
محمود ، ومعه توقيع مسعود بن البرسقي بحلب ، كتبه قبل وصوله
الى الرحبة فلم يقبله تـومان والي حلب فعاد ختلع ابيه الى
الرحبة ، - وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود .

فعاد ختلع ابيه على فوره الى حلب فتسلمها من يد تومان ، آخر
جمادى الآخرة ، وصعد الى قلعتها بطالع اختاره له
المنجمون ، فأخذ الطمع في أموال الناس وصادر جماعة من أهل
حلب ، واتهمهم بoudائع المجن الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيام
رضوان .

وقبض على شرف الدين أبي طالب بن العجمي وعمه أبي عبد
الله ، واعتقلهما بحلب ، وذهب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد
فعله القبيح عليه بالبوار ، وضل رأي منجمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحسروه ، وقدموا عليه بدر الدولة سليمان
ابن عبد الجبار ، ونادى أهل حلب بشعار بدر الدولة ، وساعده على
ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب
ختلع ابيه ، وذلك في الثاني من شوال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على
مال حتى رحل (١٥٢) ، وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر ، وبخل
اليهم الى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ، ووصل اليهم حسان
صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ، ودام الحصار الى النصف من ذي
الحجة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر ، قد ملك

الموصل بتوقيع السلطان محمود ، فسير اليه شهاب الدين مالك صاحب قلعة جعبر ، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ، فسير أتابك اليها عسكريا مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدين حسن (١٥٣)

وبخل الأمير صلاح الدين فأصلح الحال ، ووفق بينهما على أن استدعيا أتابك زنكي من الموصل ، فتوجه بالجيش إلى حلب ، وقيل: إن بدر الدولة وختلج سارا اليه .

وقيل: إن ختلج أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل اليه ، وصعد أتابك إلى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعا ينقل أباه قسيم الدولة اليه ويدفنه به ، وكان مدفونا بالقبة التي على جبل قرنبيا ، فعرض عليه بدر الدولة نقل أبيه إلى المدرسة التي أنشأها بالزجاجين .

وقيل: إن أبا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فنقله ورفعته في الليل من سور حلب ، ودفنه في البيت الشمالي من المدرسة (١٥٤)، واتخذته تربة لمن يموت من أولاده ، ووقف على المقرئين على تربة والده القرية المعروفة بشامر (١٥٥) .

وأما الملك إبراهيم بن رضوان فإنه هرب منه إلى نصيبين ، وكانت في إقطاعه إلى أن مات .

وأما ختلج أبه فإنه سلمه إلى فضائل بن بديع فكحله (١٥٦) بداره ، ثم قتله أتابك بعد ذلك .

وقيل: إن بدر الدولة هرب منه عند ذلك ، وهرب فضائل بن بديع إلى قلعة ابن مالك خوفا من أتابك .

وولى أتابك رئاسة حلب الرئيس صفى الدين أبا الحسن علي بن عبد الرزاق العجلاني الباسي ، فسلك أجمل طريقة مع الناس .

وخرج أتابك من حلب ، وسار حتى نزل ارض حماة ، فوصله صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وتأكدت بينهما مودة لم تحمد عاقبتها ، فيما نذكره بعد - وكذلك وصله سونج ابن تاج الملوك .

ثم سار أتابك (١٥٧) بعد ذلك ، فوطىء بساط السلطان ، في سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة ، وعاد بالتوقيع السلطانية بملك الغرب كله ، وبخل الموصل ثم فتح قلعة السن ، وتوجه الى حلب ، ورعى عسكره زرع الرها .

وعبر أتابك الفرات الى حلب بتوقيع السلطان محمود ، وقد كان السلطان أثر ان تكون البلاد لدييس ، فقبح المسترشد ذلك ، وكاتب السلطان وقال له فيما قال: ان هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ، فبطل هذا التدبير.

واستقر ملك أتابك بالموصل ، والجزيرة ، والرحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها .

وتزوج أتابك خاتون بنت الملك رضوان ، وبنى بها في دير الزبيب (١٥٩) ، وكانت معه الى ان فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ، فرأى الكبير (١٦٠) الذي كان على ابيه أق سذقر ، حين قتله تتش جدها ، وهو ملوث بالدم ، فهجرها من ذلك اليوم . وقيل : إنه هدم المشهد الذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام أتابك مهاجرا لها الى ان دخلت على القاضي أبي غانم قاضي حلب ، وشكت حالها ، فصعد اليه وكان جبارا الا انه ينقاد الى الحق ، وإذا خوف بالله خاف ، فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر له القاضي ما ذكرته خاتون ، فساق دابته أتابك ، ولم يرد عليه جوابا ، ف جذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقفت ، وقال له :

«يا مولانا ، هذا الشرع لا ينبغي العدول عنه » ، فقال له أتابك :
«اشهد علي انها طالق» ، فأرسل اللجام وقال : «أما الساعة
فننعم»!.

واستودش الأمير سوار بن ايتكين من تاج الملوک بوري صاحب
دمشق ، وكان في خدمته ، فورد الى حلب الى خدمة أتابك ، في سنة
اربع وعشرين ، فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه ، وأجرى له
الاقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب واعمالها ، واعتمد عليه في
قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتديير الأمور ، وله وقعات
كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة ابان فيها عن شجاعة
واقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفار الاغتام .

وعزم اتابك في السنة على الجهاد ، وكتب الى تاج الملوک بوري بن
طغتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه الى ذلك
وتحالفا على الصفاء .

وكتب تاج الملوک الى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره
بالخروج بعسكره ، وجهز اليه من دمشق خمس—مائة
فارس ، وجماعة من الأمراء مقدمهم شمس الخواص ، فخرجوا
حتى وصلوا الى مخيم اتابك على حلب ، فأكرمهم
وتلقاهم ، وأقاموا عنده ثلاثا ، ثم أظهروا الغارة ، على
عزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ، ونهب
خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج
والباقيين ، وحملهم الى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه الى حماة فأخذها يوم السبت ثامن
شوال ، وأقام بها اياما ، وطلبها خير خان بن قراجا صاحب
حمص ، وبذل عليها مالا ، فسلمها اليه بكرة الجمعة رابع عشر
شوال ، وضربت بدوقاته عليها ، وخطب له الخطيب على
المنبر ، فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه
وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوما لم يظفر فيها بطائل
غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التبن ، ويعاقبه
ويعذبه انواع العذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا ، وهو
كان يحرض اتابك على الغدر بسونج ، فكافأه الله .
وهجم الشتاء فعاد اتابك الى حلب في ذي الحجة .

وملكت انطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين ، وحالفت جماعة من
الفرنج على قتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شر (١٦٢) وهجم المسلمون
ربض الاثارب ، وربض معرة مصرين ، فوصل بغدوين من البيت
المقدس ، وأغار على انطاكية وأخذ قوما من أصحاب ابنته ، فقطع
أيديهم وأرجلهم .

وفتح قوم من السرجندية (١٦٣) باب انطاكية ، فدخلها في سنة
خمس وعشرين ، فطرحت ابنته نفسها عليه ، فصافح عن
نذبتها ، وأخذ انطاكية ، وهبها جيلة واللاذقية ، وعاد الى
القدس .

وتوجه اتابك الى الموصل في سنة خمس وعشرين
 وخمسمائة ، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ، وبعض
المقدمين من عسكر دمشق ، وترك الباقيين بحلب ، وترددت
المراسلات في اطلاقهم ، فلم يفعل ، والتمس عنهم خمسين الف
دينار اجاب تاج الملوك الى تحصيلها وحملها .

ووقع في هذه السنة وقعة بين جوسلين وسوار ، بناحية حلب
الشمالية ، فكانت الغلبة لجوسلين ، وقتل من المسلمين
جماعة ، وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الاثارب ونهبه .

ووصل ديبس في هذه السنة منهزما من المسترشد ، وكان قد
كسره عسكر المسترشد في هذه السنة ، فانهزم وخفي خبره عن كل
أحد ، فظهر بعد مدة انه وصل الى قلعة جعبر ، وأودع ابن السلطان

عند مالك صاحبها ، وسار الى جوسلين ، واستند الى الفرنج فلم
ير ما يعجبه .

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غدره ، وأن يفادي به
خيرخان ، فسار الى بلد دمشق ، فنزل ضالا على مكتوم بن
حسان .

وقيل: كان سائرا الى صاحبة صرخد ليتزوجها ، فضل في
الطريق ، ولم يكن معه دليل عارف بالمناهل .
وقيل: كان قاصدا حلة مري ، فهلك اكثر اصحابه .

وحصل في حلة حسان كالمزقطع الوحيد في نذر يسير من
اصحابه ، فأنهض تاج الدولة بوري العسكر اليه حينما سمع
به ، فأسره ، ووصلوا به الى دمشق ، لست خلون من شعبان سنة
خمس وعشرين ، (١٦٤) وأنزله في دار بقلعة دمشق ، وأكرمه
وأضافه ، وحمل اليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله
اعتقال كرامة . وكاتب المسترشد في أمره ، فرد عليه الجواب
بالاحتياط عليه الى ان يصل من يحملة الى بغداد .

فلما عرف اتابك زنكي ذلك ، اذفر رسوله الى تاج الملوك يطلب
تسليم دبيس اليه ، وأن يطلق له الخمسين ألف دينار المقررة عن
ولده سونج وبقيّة العسكر ، فأجاب الى ذلك ، وتقرر الشرط عليه .

ووصل اتابك زنكي الى قريب قارا بسونج والمعتقلين ، وتوجه
أصحاب تاج الملوك بدبيس فتسلمه زنكي ، وحمله في محفة
مقيدا ، وسلم سونج بن تاج الملوك وجماعته الى اصحابه .

وكان يظن دبيس ان اتابك زنكي يهلكه ، فلما وصل إلى حلب
أطلقه وأكرمه ، وأنزله بحلب في دار لاجين ، وأعطاه مائة ألف
دينار ، وخلع عليه خلعا فاخرة .

وكان عرض لدييس في طريقه وهو مكبل بالحديد شاعر امتدحه
بأبيات ، ولم يكن معه ما يجيزه ، فكتب له في رقعة هـنين
البيتين ، ودفعهما اليه :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
وكيف يصنع من بالفرض يحتال
فهاك خطي الى أيام ميسرتي
بينا علي فلي في الغيب آمال

فجاءه الشاعر بحلب ، وقد خرج مسيرا في ميدان الحصا ، فقال
له : «ياأمير لي عليك دين » فقال: «والله ما اعرف لأحد علي بينا »
فقال: «بلى ، وشاهده منك » ، وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه
قال: «أي والله دين وأي دين!» وأمره ان يأتي اليه اذا نزل ، فسأته
فأعطاه ألف دينار والخلعة التي خلعها اتابك زنكي عليه ، وكانت
جبة اطلاس وعمامة شرب .

وحصل دبيس بعد ذلك عند السلطان مسعود ، في سنة تسع
وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد وأسره على باب مراغة .

وسير السلطان إلى اتابك زنكي يستدعيه ، وعزم على الفتك
به ، وأطلع دبيس على ذلك ، فكتب الى اتابك يعلمه ويحذره من
المجيء ، فامتنع ، وكان السلطان قد سير دبيسا الى الحلة ، وأطلع
بعد ذلك على فعل دبيس ، فرده ، وحذره الناس فلم يفعل
فوصل ، فلما وصل الى الخينة قام السلطان عن السرير . وقال:
«هذا جزاء من يخون مولاه » وضرب رأسه فأطاره ، فبلغ ذلك زنكي
فقال: «فديناه بالمال وفداننا بالروح».

ووصل سيد الدولة بن الأنباري كاتب الانشاء للمسترشد الى
تاج الملوک ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دبيس الى من يحمله الى
بغداد ، فوجد الأمر قد فات ، فعاد فصادفته خيل اتابك زنكي

بناحية الرحبة فأوقعوا به ، وقبضوه ، ونهبوا ما كان معه حتى نهبوا القافلة التي كانت معه ، وقتل بعض غلمانهم ، ولقي شدة عظيمة من الاعتقال الى ان اطلق ، وعاد الى بغداد .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فتح الملك كليام رام حمدان ، وسار اتابك وديس الى بغداد ، مباينين للمستترشد ، وعزما على ان يهجا بغداد ، فبذل لهما الحلة ، وأن يدخل نائبيهما بغداد ، فأبيا فخرج اليهما المستترشد بنفسه ، والتقا في شعبان على عقر قوب فكسرها ، وعاد اتابك زنكي الى الموصل ، وسار ديس الى السلطان سنجر

ووقع بين الفرنج في هذه السنة فتن ، وقتل بعضهم بعضا ، وقتل صاحب زرينا ، ونزل التركمان على بلد المعرة وكفرطاب ، وقسموا المغلات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن قبة ابن ملاعب ، وأسروا منه بنت سالم بن مالك وحريم ابن ملاعب .

وأوقع الأمير سيف الدين سوار بفرنج تل باشر ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووثب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس ، فأخذوه وسلموه الى سيف الملك بن عمرون ، فاشتراه ابو الفتح الداعي الباطني منه .

ووصل صاحب القدس الى انطاكية ، وجمع وخرج الى نواز ، وسار الى قدسرين في جموع الفرنج ، والتقا بعسكر حلب وسوار ، في سنة ثمان وعشرين في ربيع الأول ، فكسروا المسلمين ، وقتلوا أبا القاسم التركماني ، وكان شجاعا ، وقتلوا القاضي ابا يعلى بن الخشاب ، وغيرهما .

وتحول الفرنج الى الذقرة فصاحبهم سوار والعسكر ، فأوقعوا بسرية منهم ، فقتلوهم وعادوا برؤوسهم وأسرى منهم ، فسر الناس بذلك بعد مساءتهم بالأمس .

وأغار خيل الرها من الفرنج ببلد الشمال ، وهي عابرة الى
عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحسان صاحب منبج وقتلوهـم
بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى الى حلب (١٦٩) .

وفتح شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب
صلاح الدين ، وكان قد عزم على ذلك فتحصن واليها ، فأنتهى ذلك
الى شمس الملوك ، فخرج في العشر الاواخر من شهر
رمضان ، وعزم على قصدها والناس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها وزحف في الحال فتحصنوا
منه ، فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا اصحابه في اهلها ، ثم زحف
عليها زحفا قويا ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلد فطلبوا الامان
فأمنهم ، وحلفه والي القلعة على أشياء اقترحها ، واجابه اليها
وسلمها اليه ، فسلمها الى شمس الخواص

وحصر المسترشد الموصل ، وثار الحرب بين السلاطين ، فبلغ
المسترشد ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدين تمرتاش الى
خدمة اتابك زنكي ، فسار معه الى لقاء داود بن سكرمان بن
ارتق ، فكسره اتابك بباب آمد ، وانهزم داود وأسر ولده ، وقتل
جماعة من أصحابه ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحصرها ، وقطع شجرها ، فصانعه صاحبها
بمال ، فرحل عنها الى قلعة الصور ففتحها ، وفتح
البارعية ، وجبل جور ، وذا القرنين ووهب ذلك كله لحسام الدين
تمرتاش ، وفتح طنزة فاستبقاها لنفسه (١٧١) .
وتزوج اتابك صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي .

واستولى اتابك على العقير (١٧٢) وشوش (١٧٣) وغير ذلك
من قلاع الأكراد ، وأغار في هذه السنة سوار على الجزر وحصن
زربنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشحن على بلد
المعرتين ، وعاد بالغنائم الى حلب .

واستوزر زذكي في هذه السنة ضياء الدين ابا سـعد الكفرتوئي ، وكان مشهورا بحسن الطريقة والكفاية وحـب الخير والمذهب الحميد . وقدم معه الى حلب . وعزم على قصد دمشق ومضايقها .

وذكر العظيمي في تاريخه : «انه حصرها في هذه السنة مدة ، (١٧٤) ثم رحل الى حلب ، ثم شرق الى الموصل» .
والصحيح: أنه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وذلك ان صاحبها شمس الملوك ابا الفتح اسماعيل بن بوري ، انهمك في المعاصي والقبايح ، وبالع في الظلم ، وأعرض عن مصالح الدين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أولا بذلك .

واستخدم بين يديه رجلا كريها - يعرف ببدران الكافر - جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدين متذوعا في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لاحد رحمة ، فسلطه على ظلم المسلمين ومصادرة المتصرفين بأنواع قبيحة من الظلم ، وظهر منه بخل عظيم وسمت نفسه الى تناول النايا وغير ذلك من الأفعال الذميمة .

وعزم على مصادرة كتابه وحجابه وامراته ، فخاف منه اصحابه ، واستشعروا منه ، ووقعت الوحشة بينهم .

وعرف عزم اتابك زذكي على قصد دمشق ، وأنه متى وصلها سلمت اليه ، فكاتب اتابك زذكي وحثه على سرعة الوصول اليها ليسلمها اليه طوعا ، وشرط عليه ان يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والامراء والأعيان ، وكرر المكاتبة اليه في ذلك ، وقال: «إن اهمت هذا الأمر استدعيت الفرنج وسلمت دمشق اليهم ، وكان اثم المسلمين في عنقك» .

وشرع في نقل أمواله وأحواله الى صرخد ، فظهر هذا الأمر لأصحابه ، فأشفقوا من الهلاك واعلموا والدته زمرد خاتون

بذلك ، فقلقت له ، وحسدوا لها قتله ، وتمليك أخيه شهاب الدين محمود ، فرجع ذلك في نظرها ، وعزمت عليه ، فانتظرت وقت خلوته من غلمانه وسلاحيته ، وأنزلت عليه من أصحابها من قتله .

وأخرجته فألقي في ناحية من الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه فسروا بذلك ، وذلك في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل: إنه اتهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته ، فهرب منه الى تدمر ، فأراد قتل أمه ، فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه ، وأجلست والدته مكانه أخاه شهاب الدين محمود بن بوري (١٧٥) ، وحلف الناس له . وتوجه أتابك زنكي من الموصل مجداً ليتسلم دمشق من شمس الملوك ، فوصل الى الرقة وقال: «أشتهي أن أدخل الحمام» . فأحضر صلاح الدين مسيب بن مالك صاحب الرقة ، وقال له: «أتابك يشتهي دخول الحمام ، وهذه خمسمائة دينار تسلمها وأعمل له بهيمة دعوة» فلم يشكك في ذلك ، وبخلوها ، فلما حصلوا بها أخذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر . وبلغه ما جرى بدمشق ، فلم يقطع طمعه فيها ، وسار فنزل العبيبية (١٧٦) ، وراسل أهل دمشق ، فلم يجيبوه الى مطلوبه ، وردوا عليه جواباً خشناً ، يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار الى حماة فخرج اليه شمس الخواص بعد أن توثق منه بالآيمان ، ورحل الى دمشق ، وسار اليها ، فنزل على دمشق في عسكر عظيم ، وزحف عليها مراراً متعددة ، فلم يظفر فيها بباطل ، واشتد الغلاء في العسكر ، وعدموا القوت ، وقفز جماعة من العسكر الى دمشق ، ووقعت المراسلة في حديث الصلح ، وكان قد وصل مع أتابك بعض أولاد السلطان فطلب أن يخرج شهاب الدين محمود لوطاً بساط ولد السلطان ، فلم يفعل .

واتفق الأمر على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولا من المسترشد إلى زكي بخلع هيئت له ، وتقدم إليه بالرحيل عن دمشق والوصول إلى العراق ، ليؤليه أمره وتدييره ، وأن يخطب للسلطان ألب أرسلان نادر بن محمود المقيم بالموصل - وكان قد وصل هاربا بين يدي عمه السلطان مسعود - فأكرمه أتابك .

فدخل الرسول وبهاء الدين بن الشهرزوري إلى دمشق ، وقررا هذه القاعة واخذوا الفتنة ، وأكدا الأيمان ، وخطب يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأولى بجامع دمشق بحضورهما على القاعة التي وصل فيه الرسول (١٧٧) .

وعاد أتابك من دمشق ، فلما وصل حماة قبض على شمس الخواص صاحبها ، وأذكر عليه أمرا ظهر منه ، وشكا أهلها من نوابه فتسلمها منه ، وأطلقه فهرب ، ورد حماة إلى صلاح الدين ورحل من حماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أول رجب ثم فتح زرينا ، ثم تل أعذى ، ثم فتح معرة النعمان ، ومن على أهلها بأملأهم ، ثم فتح كفرطاب ، ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث ابن منذئبا عن أبيه ، ثم نزل بسارين (١٧٨) وأظهر أنه يحاصرها ، ثم سار ، وأهل حمص غارون ، فشن عليهم الغارة ، واستاق كل ما كان في بلدها ونهبهم .

ووصل ابن الفندش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قنسرين ، فسار إليهم أتابك فأحسن التديير ، وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاآتلها في العشر الأواخر من شوال ، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السنة .

وسار منها في المحرم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ،
ومعه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الواصل إليه إلى
الموصل ، فأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربي ،
والخليفة إن ذاك الراشد بعد قتل المسترشد .

فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في
عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم
أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة .

وبلغ الخبر السلطان مسعود فعاد ، فهرب الراشد ، ولحق أتابك
بالموصل . وبخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي ، وخطب له
ببغداد وأعمال السلطان ، وبقيت الخطبة بالشام والموصل على
حالها إلى أن اتفق أتابك زنكي والسلطان مسعود واصطلحا ،
وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الراشد إن ذاك
زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى
وثلاثين (١٧٩) .

وسار سيف الدين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من
التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللاذقية ، وأغار على الفرنج على
غرة وقلة احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ،
ما بين رجل وامرأة وصبي وصبيبة ومائة ألف رأس من البقر والغنم
والخيل والحمير والذي نهبوه - على ما ذكر - مائة قرية وامتلات
حلب من الأسارى والدواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من
الغنائم .

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب ، في رابع وعشرين من
شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ، وسير صلاح الدين في مقدمته ،
فنزل حمص ، وسار أتابك إلى حماة ، وعيد عيد الفطر في الطريق ،
وأخذ من حلب معه خمسمائة راجل لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أنر (١٨٠) من قبل صاحب دمشق ، فحصرها مدة .

وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي ، فرحل عن حمص وأقيهم تحت قلعة بارين ، فكسرتهم طلائع زنكي مع سوار ، فأفدوا عامتهم قتلا وأسرا ، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج ، ونجا القليل منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كنديا جور (١٨١) صاحب القدس ، وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلا ونهارا ، ثم تقرر الصلح في العشر الآخر من ذي القعدة على التسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلمها زنكي ، وعاد إلى حلب .

واستقر الصلح بين أتابك وصاحب دمشق ، وتزوج أتابك خاتون بنت جناح الدولة حسين ، على يد الامام برهان الدين البلخي ، وبخل عليها بحلب في هذه السنة .

ووصل في هذه السنة ملك الروم كالياني (١٨٢) من القسطنطينية في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج - لطفا من الله تعالى - وأقام إلى أن وصلته مراكبه البحرية بالاثقال والميرة والمال ، فاعتمد لاون بن روبال (١٨٣) صاحب الثغور في حقه فتحا عظيما .

وتخوف أهل حلب منه فشرعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون متطارحا ، فقال : « أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام » ، فسيره إلى القسطنطينية ، وأقام في عين زربة وأذنة والثغور ، مدة الشتاء .

وكان في عوده عن أنطاكية إلى ناحية بغراس (١٨٤) في الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أذ قد رسوله إلى

زنكي ، وظفر سوار بسرية وافرة العدد من عسكره ، فقتل وأسّر
وبخل بهم إلى حلب .

ووصل الرسول إلى زنكي ، وهو متوجه إلى القبلية فريده ومعه
هدية إلى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور ، على يد الحاجب حسن ،
فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى
حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلمك وأخذ
منها مالا ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل (١٨٥) من
أيدي الدمشقيين ، وبخل في طاعته أبراهيم بن طرغت والي
بانياس .

وشتى أتابك زنكي بأرض دمشق ، وورد عليه رسول الخليفة
المقتفي والسلطان مسعود بالتشريف ، ثم رحل أتابك عن دمشق في
شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثم رحل عنها إلى حمص ،
فخيم عليها ، وجرد من حلب رجالا لحصارها ، وجمع عليها جموعا
كثيرة ، وهجم المدينة ، وكسر أهلها ونال منهم منالا عظيما .

ونقض الفرنج الهدنة التي كانت بينهم وبين زنكي على حلب ،
وأظهروا العناد ، وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل
حلب ، في جمادى الأولى من السنة ، بعد إحسانه إليهم واصطناعه
لمقدميهم ، حين أظفروه الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الروم كالياني .

وظهر ملك الروم بغتة من طريق مدينة البلاط ، يوم الخميس
الكبير من صومهم ونزل يوم الأحد يوم عيد النصارى ، وهو الحادي
والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

وانتشرت الخيل بغتة فلفظ الله بالمسلمين ، فأرأوا رجلا من كافر
ترك (١٨٦) ومعه جماعة منهم ، قد تاهوا عن عسكر الروم ،
وأظهروا أنهم مستأمنة وأنذروا من بحلب بالروم .

فتحرز الناس وتحفظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسير في الحال الأمير سيف الدين سوار والرجال الحلبيين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلارية (١٨٧) منهم زين الدين علي كوجك ، فقويت قلوب أهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأما الروم فإنهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيام ، فضعفت قلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلموه إلى الروم بالأمان ، بعد أن توثقوا منهم بالعهد والأيمان ، ففدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام الملك بالوادي يدخن على مغاير الباب عشرة أيام ، فهاكوا بالدخان .

ثم رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثم رحل يوم الخميس سادس شعبان ، ومعه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونصب خيمته من قبليها على نهر قويق ، وأرض السعدي ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء من ناحية برج الغنم (١٨٨) ، وخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلوه وظهروا عليهم ، وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلا إلى صالدي (١٨٩) فخاف من بقلعة الأتارب من الجند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النار في خزانةهم .

وعرف الروم ذلك فخذت منهم سرية وجماعة من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، وألجأوا السبي إلى خنادقها وأحواشها ، فهرب جماعة منهم إلى حلب ، وأعلموا الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين بذلك ، وأن الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لمة من العسكر ، فصاحبهم وقد انتشروا

بعد طلوع الشمس ، فوقع عليهم واستخلص السبي جميعه إلا اليسير منهم ، وأركب الضعفاء منهم خراف الخيالة حتى أنه أخذ بذفسه جماعة من الصبيان ، وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السبي إلا القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، فسر أهل حماة ثم رحل إلى سلمية ، ورحل ملك الروم إلى بلد معرة النعمان ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شيزر ، ونزلوا كفر طاب ورموها بالمجانيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وهرب أهل الجسر (١٩٠) ، وتركوه خاليا فوصله الروم ، وجلسوا فيه ورحلوا عنه إلى شيزر ، يوم الخميس سادس عشر شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ، ومعهم من الكراع والسلاح مالا يحصيه إلا الله ، فنزلوا الراية المشرفة على بلدة شيزر ، وأقاموا يومهم ويوم الجمعة إلى آخر النهار .

وركبوا وهجموا البلد ، فقاتلهم الناس وجرح أبو المرفف نصر ابن مذقذ ، ومات في رمضان من جرحه ذلك .

ثم انهزم الروم ، وخرجوا ، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمون ، وجوسلين في المصلى ، وركب الملك يوم السبت ، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقا وأربع لعب تمنع الناس من الماء .

ودام القتال عشرة أيام ، ولقي أهل شيزر بلاء عظيما ، ثم اقتصروا في القتال على المجانيق ، وأقاموا إلى يوم السبت تاسع شهر رمضان .

وبلغهم أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفا من التركمان وغيرهم ، فأحرقوا آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر ، وتركوا مجانيق عظاما

رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم ، وساروا بعد أن هجموا
ربض شيزر دفعات عدة ، ويخرجهم المسلمون منها . (١٩١) .

فوصل صلاح الدين من حماة يوم السبت تاسع الشهر ، وبلغه أن
الفرنجة هربوا من كفر طاب فسار إليها ، وملكها ، ووصل أتابك يوم
الاحد عاشر الشهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين ، فوجد الفرنج قد
هربوا منه نصف الليل ونزل أهله من « أبي قبيس » (١٩٢) ،
فمنعوههم وبخل الروم مضيق أفامية إلى أنطاكية ، وطلبها من
الفرنج فلم يعطوه إياها ، فرحل عنها إلى بلاده ، وسير أتابك خلفهم
سرية من العسكر تتخطفهم . هذا كله وأتابك لم يستحضر قرا
أرسلان بن داود ، ولم يجتمع به ، بل بعث إليه يأمره بالعود إلى
أبيه ، وأنه مستغن عنه وانحاز عنهم فنزل أرض حمص ، وكتب إلى
شهاب الدين محمود بن بوري يطلبها .

وترددت الرسل بينهم على أن يسلم إلى أتابك حمص ، ويعوض
أنر واليه ببارين ، واللكمة (١٩٣) والحصن الشرقي ، وأن يتزوج
أتابك أمه زمرد خاتون بنت جاولي ، ويتزوج محمود ابنة أتابك ،
ويسلم أتابك حمص ، ويسلم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرد خاتون من دارها إلى عسكر زنكي ، مع أصحابه
المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ،
وقد اجتمع عنده رسول الخليفة المقتدي ، واللبسة التشريف الواصل
إليه ، ورسول السلطان ، ورسول مصر ، والروم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثم خرج منها إلى
بزاغا وفتحها بالسيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرم من سنة
ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وقتل كل من كان بها على قبر شرف
الدولة مسلم بن قريش ، وكان ضرب عليها بسهم في عينه فمات .

وعاد منها إلى حلب ، وسار إلى الأثارب ، ففتحها ، في ثالث
صفر .

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ، حدثت زلزلة شديدة ثم اتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل ، فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد وخرجت الاحجار من الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دويًا عظيمًا ، وانقلبت الأثارب فهلك فيها ستمائة من المسلمين ، وسلم الوالي ومعه نفر يسير ، وهلك أكثر البلاد من شيخ ، وتل عمار (١٩٤) ، وتل خالدا ، وزربنا (١٩٥) ، وشوهدت الأرض تموج ، والاحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال .

وانهدم في حلب دور كثيرة ، وتشعث السور ، واضطربت جدران القلعة ، وسار أتابك مشرقًا فنزل القلعة فأخذها ، وسار منها إلى القلعة (١٩٦) ، ثم إلى الموصل .

وتواترت الزلازل إلى شوال ، وقيل : إن عدتها كانت ثمانين زلزلة .

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتابك على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثم قرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافيا ، وأطلق القطيعة .

وفي هذه السنة ، نهض سوار إلى الفرنج فغزم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غزم ، وانهزم المسلمون فغزم الفرنج ، وأخذوا منهم ألفا ومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابن عمرون ، وكان قد سلمها إلى الباطنية (١٩٧) .

وفي شهر رمضان منها ، استحكم الفساد بين أتابك وتمرناش ، فنزل أتابك زنكي دارا (١٩٨) ، وحصرها وافتتحها في شوال ، وأخذ رأس عين (١٩٩) وجبل جور (٢٠٠) وذا القرنين (٢٠١) ، ومات سوتكين الكرجي بحران ، فأنفذ أتابك زنكي وأخذها .

وقتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك على فراشه ، ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من شوال من السنة ، قتله البغش ويوسف الخادم ، وفراش ، وكان قد قربهم واصطفاهم (٢٠٢) .

وسير أنر إلى محمد أخيه صاحب بعلبك ، فأجلسه في منصب أخيه وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرق إلى أتابك زنكي .

وعلمت والدته زمرد شاتون ، فارسلت إلى زوجها زنكي ، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها ، وتحثه على الوصول ، فأقبل وفي مقدمته الأمير الحاجب صلاح الدين ، فسار إلى حماة .

ووصل زنكي حتى عبر الفرات ، ونزل بالناعورة ، وبخل حلب ، ورحل إلى حماة في سابع ذي الحجة ، ورحل إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، فحصرها أول محرم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وضربها بالمجانيق إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر .

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر ، وكان قد حلف لأهل القلعة بالإيمان المغلظة والمصدق والطلاق ، فلما نزلوا غدر بهم ، وسلخ واليها ، وشدق الباقيين ، وكانوا سبعة وثلاثين رجلا ، وغدر بالنساء ، وأخذهم .

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها ، فنزل على داريا ، وزحف إلى البلد ، وراسل محمد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبك وحمص ، وما يقترح معهما عوضا عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوفوه الغدر به ، فمات محمد بن بوري ، في ثامن شعبان ، ونصب ولده غضب الدولة أبق مكانه .

وكاتب أنر الفرنج في نجدته ، وتسليم بانياس من إبراهيم بن طرغت إليهم ، فتجمعوا لذلك ، فرحل أتابك عن دمشق ، في خامس

شهر رمضان ، لاقاء الفرنج إن قاربوا منه إلى ناحية بصرى وصرخد من حوران ، وأقام مدة ، ثم عاد إلى الغوطة فنزل عذراء ، وأحرق عدة ضياع من الغوطة .

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان ، فرحل أتابك إلى ناحية حمص . وأسر ريمند صاحب أنطاكية إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس ، وقتله ، ونزل معين الدين أنر عليها فحصرها وتسلمها ، وسلمها إلى الفرنج ، وعانت خاتون إلى حلب في العشرين من ربيع الأول .

وعاد أتابك إلى حلب في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، واستقر الحال بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق .

ومات قاضي حلب أبو غانم محمد بن أبي جرادة في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فولى أتابك قضاء حلب ولده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة ، ولما استحضره وولاه القضاء قال له : « هذا الامر قد نزعت من عنقي ، وقلدتك إياه ، فينبغي أن تتقي الله وأن تساوي بين الخصمين ، هكذا » ، وجمع بين أصابعه .

وكثر عيث التركمان وفسادهم ، وامتدت أيديهم إلى بلاد الفرنج ، فارسلوا رسولا إلى أتابك يشكونهم ، فعاد الرسول متنصلا ، فلقى قوم من التركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرب والتركمان مالا يحصى .

وعاد أتابك في سنة ست وثلاثين على الحلبيين بالقطيعة التي كان قررها على الأملاك ، وأرسل اليهم علي الفوتي العجمي ، فعسف الناس في استخراج القطيعة ، وأحرق بهم ، ومات ابن شقارة بحلب ، وصارت أملاكه إلى بيت المال فرد على الناس ما كان وظف على أملاكه من القطيعة وأخذ منهم .

وأغار الفرنج في سنة ست وثلاثين وخمسمائة على بلد سمرمين ،

واخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا إلى جبل السماق ، وكذلك فعلوا بكفر طاب ، وذهروا فاغار علم الدين بن سيف الدين سوار مع التركمان إلى باب انطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

واغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدة المقتولين سبعمائة رجل .

واتفق في هذه السنة خلاف شديد بين أتابك زنكي وقرا أرسلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمر (٢٠٣) ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمر ، وعاد إلى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتى بها .

وفي هذه السنة تقرر الصلح بين أتابك والارتقية ووصل أولادهم إلى الخدمة ثم عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزير أتابك ضياء الدين بن الكفرتوئي ووزر موضعه أبا الرضا بن صدقة ، ثم عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهب سوار في شهر رمضان إلى بلد أنطاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج ، فحاض التركمان إليهم العاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كل من كان بالخيم ، ونهبوا وسبوا ، وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم ، والأسرى والرؤوس .

وفتح أتابك قلعة أشب المشهورة بالحصانة (٢٠٤) ، في ثالث وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج ملك انطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فريهم إلى بلد الشمال واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتفق الصلح بينهما .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة انيرون (٢٠٥) ، وبعدها قلعة حيزان (٢٠٦) ، ومما كان أيضا بيد الفرنج جملين ، والموزر (٢٠٧) ، وتل موزن (٢٠٨) ، وغيرهما .

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الفرنج ، ومعها مال كثير ودواب ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميع الخيالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السنة .

وفي يوم الاربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعت خيل تركمان نهضت من بلد حلب ، فأوقعت بخيل خارجة من بأسوطا (٢٠٩) فقتلوهم ، واسروا صاحب بأسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلموه إلى سوار فقيده .

وعزل أتابك وزيره جلال الدين أبا الرضا بالموصل ، واستوزر أبا الغنائم حبشي بن محمد الحلبي .

وكان أتابك زنكي لا يزال يفكر في فتح الرها ، ونفسه في كل حين تطالبه بذلك ، إلى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لأمير اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النزول عليها في عسكر عظيم ؛ وكاتب التركمان بالوصول إليه ، فوصل خلق عظيم .

وأحاط المسلمون بها من كل الجهات ، وحالوا بينها وبين من يدخل إليها بميرة أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيون فنقبوا عنة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأنذوا أتابك في إطلاق النار فيه ، فدخل إلى النقب نفسه وشاهده ثم أنن لهم ، فألقوا النار فيه ، فوقع السور في الحال (٢١٠) .

وهجم المسلمون البلد ، وملكوه بالسيف يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ، وشرعوا في النهب والقتل والاسر والسبي ، حتى امتلأت أيديهم من الغنائم ، ثم أمر أتابك برفع السيف عن أهلها ، ومنع السبي ، ورده من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران هو الذي يحدث أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهل عليه أمرها ، فوجد على عضادة محرابها مكتوب :

أصبحت صفرا من « بني الأصفر »
أختال بالأعلام والمذبر
دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمذكر
مظهر الرحب على أنني
لولا « جمال الدين » لم أظهر

فبلغ ذلك رئيس حران ، فقال : « أمدوا جمال الدين ، واكتبوا عماد الدين » ، فبلغ ذلك زنكي ، فقال : « صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها » ، وأمر عماله بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج ، وأن يأخذوه على قدر مغلاتها (٢١١) .

ثم رحل إلى سروج ففتحها ، وهرب الفرنج منها ، ثم رحل فنزل على البيرة ، في هذه السنة فحاصرها في هذه السنة .

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها ، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها ، (٢١٢) وسار حتى نخل الموصل ، وأخذ فرخان شاه بن السلطان الذي قتل جقر ، وعزم على تملك الموصل ، فقتله بدم جقر ، وولى الموصل مكانه الأمير زين الدين علي كوجك .

ثم شرع زنكي في الجمع والاحتشاد ، والاستكثار من عمل المجانيق ، وآلة الحرب ، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة ؛ ويظهر للناس أن ذلك لقصد الجهاد ، وبعض الناس يقول : إنه لقصد دمشق ومنازلتها ، وكان ببيعك مجانيق فحملت إلى حمص ، في شعبان من هذه السنة .

وقيل : إن عزمه انثنى عن الجهاد في هذه السنة ، وأن جماعة من الأرمين بالرها عاملوا عليها ، وأرادوا الإيقاع بمن كان فيها من المسلمين وأطلع على حالهم ؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها ، وقوبل من عزم على الفساد بالقتل والصلب .

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة ، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرزقش الخادم ؛ كان تهدده في النهار ، فخاف منه فقتله في الليل في فراشه .

وقيل : إنه شرب ونام ، فانتبه فوجد يرزقش الخادم وجماعة من غلمانهم يشربون فضل شرابه ، فتوعدهم ، ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء يرزقش إلى تحت القلعة ، فنادى أهل القلعة : « شيلوني فقد قتل أتابك » .

فقالوا له : « اذهب إلى لعنة الله ، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله (٢١٣) » .

وقد كان أتابك ضايق القلعة ، فقل الماء فيها جدا ، والرسول من صاحبها علي بن مالك تتردد بينه وبين أتابك ، فبذل علي بن مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها ، فأجابه إلى ذلك .

ونزل الرسول ، وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من أذان أخواته ، وأحضر الرسول ، وقال لبعض خواصه : « امض بفرسه

وقربه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني . ففعل ذلك ،
فشرب الفرس مرقة اليخني ، فعلم أن الماء قد قل عندهم ، فغالط
الرسول ودافعه ، ولم يجبه إلى ملتمسه ، فأسقط في يد علي بن
مالك .

وكان في القلعة عنده بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش ، فصعدت
في درجة المئذنة حتى علت عليها ، ورفعت رأسها إلى السماء ،
وصاحت صيحة عظيمة ، فأرسل الله سحابة ظالت القلعة ، وأمطروا
حتى روي ، فتقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى تحت القلعة ،
ونادى علي بن مالك ، وقال له : « يا أمير علي ، ايش بقى خلصك
من أتابك » فقال له : « يا عاقل ، يخلصني الذي خلصك من حبس
بك » .

يعني حين قتل بك علي منبج وخلص حسان ، فصندوق
فأله - وكان مذكوره - .

وأخبرني والدي - رحمه الله - أن حارس أتابك كان يحرسه في
الليلة التي قتل فيها بهنين البيتين .

ياراقد الليل مسرورا بأوله ،
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا !
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجاج النارا !

وكان أتابك جبارا عظيما ذا هيبة وسطوة ، وقيل : إن
الشاووش (٢١٤) كان يصيح خارج باب العراق ، وهو نازل من
القلعة ، وكان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة
أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولا يجسر من هيبتة أن يدوس
عرقا منه ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أحدا من أجناله أن يأخذ
لفلاح علاقة تبين إلا بئمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ؛
وإن تعدى أحد صلبه .

وكان يقول : « ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد » - يعني نفسه - فعمرت البلاد في أيامه بعد خرابها وأمنت بعد خوفها ، وكان لايبقي على مفسد ، وأوصى ولاته وعماله بأهل حران ، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، وهذا ما حكاه أهل حران عنه .

وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون عنه ضد ذلك (٢١٥) .

وكانت الأسعار في السنة التي توفي فيها رخيصة جدا ، الحنطة ست مكايك بدينار ؛ والشعير اثنا عشر مكوكا بدينار ؛ والعدس أربع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار ؛ والقطن ستون رطلا بدينار ؛ واللينار هو الذي جعله أتابك دينار الغلة ؛ وقدره خمسون قرطيسا برسا (٢١٦) وذلك لقلّة العالم .

ولما قتل افتقرت عساكره فأخذ عسكر حلب ولله نور الدين أبا القاسم محمود بن زنكي ، وطلبوا حلب فملكوه إياها ، وأخذ نور الدين خاتمه من إصبه قبل مسيره إلى حلب ، وسار أجناد الموصل بسيف النين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وحده ، فخرج أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ، ودفنوه على باب مشهد علي - عليه السلام - في جوار الشهداء من الصحابة - رضوان الله عليهم - وبني بذوه عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن (٢١٧) .

وملك الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن أقر سنقر حلب ، عند ذلك في شهر ربيع الآخر يوم الثلاثاء عاشر الشهر ، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ووصل إليه صلاح الدين الياغيساني يدبر أموره ويقوم بحفظ دولته ، فحينئذ راسل جوسلين الفرنجي أهل الرها وعامتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان وتسليم البلد ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره ، فخرج جوسلين هاربا إلى بلده .

وبخلها نور الدين فنهبها وسبى أهلها ، وخذلت منهم ، فلم يبق بها منهم إلا القليل (٢١٨) .

وأرسل نور الدين من سببها جارية في جملة ما أهداه إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أبيه بالموصل ، فلما رآها دخل إليها ، وخرج من عندها وقد اغتسل ، وقال لمن عنده : « تعلمون ما جرى لي يومنا هذا ؟ » قالوا : « لا » ، قال : « لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع بيدي من النهب جارية رائقة أعجبنى حسننها ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب ، وكان مهيبا مخوفا ، فرددتها وقلبي متعلق بها ، فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عنة جوار منهن تلك الجارية ، فوطئتها خوفا أن يقع مثل تلك الدفعة » .

وشرع نور الدين - رحمه الله - في صرف همته إلى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلاد الفرنج : ففتح أرتاح بالسيف ، ونهبها وفتح حصن مابولة ، وبسرفوث ، وكفرلاثا وهاب (٢١٩) .

وكان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذوه ، فلما رأوا من نور الدين الجد في أول أمره ، علموا بعد ما أملوه .

وخرج ملك الألمان ونزل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وسار لنجدتها سيف الدين غازي من الموصل ، ونور الدين محمود ، فوصلوا إلى حمص .

وتوجه نور الدين إلى بعلبك ، واجتمع بمعين الدين أنز بها ،

ورحل ملك الالمان عن دمشق ، وكان صحبته ولد الفذش ؛ وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين ، فأخذ ولد الفذش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على أخذ طرابلس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبك يقول له في قصد حصن العريمة وأخذه من ولد الفذش .

فسار نور الدين ومعين الدين أنرمعه ، وسيرا إلى سيف الدين غازي إلى حمص ، يستنجذانه فأمدهما بعسكر كثير مع الديبيسي صاحب الجزيرة ، فنازلوا الحصن ، وحصروه وبه ولد الفذش .

فزحف المسلمون إليه مرارا ، ونقب النقبون السور فطلب من به من الفرنج الأمان ، فملكه المسلمون ، وأخذوا كل من به من فارس وراجل ، وصبي ، وامرأة ، وفيهم ابن الفذش ، وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى حمص (٢٢٠) .
ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل .

وتجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ، فخرج إليهم نور الدين بعسكره والتفاهم بيغرى (٢٢١) ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الفرنج ، وأسر منهم جماعة وقتل خلق ، ولم ينج إلا القليل .
وفي هذه الواقعة يقول الشيخ أبو عبد القيسراني من قصيدة :

وكيف لانثني على عيشناال
—محمود والسلطان « محمود ! »
وصارم الاسلام لا ينثني
إلا وشاؤ الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة
إلا و « نور الدين » موجود (٢٢٢)

وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب ، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها ، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ؛ واستدعى برهان الدين أبا الحسن

علي بن الحسن البلخي الحنفي وولاه تدريسها ، فغير الأذان بحلب ، ومنع المؤننين من قولهم : « حي على خير العمل » وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال لهم : « من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه » . فأئذوا الأذان المشروع ، واستمر الأمر من ذلك اليوم .

وجدد المدرسة العسرونية على مذهب الشافعي ، وولاهما شرف الدين بن أبي عصرون (٢٢٣) ، ومدرسة الذفري ، وولاهما القطب النيسابوري (٢٢٤) ، ومسجد الغضائري وقف عليه وقفها ، وولاه الشيخ شعيب (٢٢٥) ، وصار يعرف به .

وبقي برهان الدين البلخي بحلب مدرسا بالحلاوية إلى أن أخرجه مجد الدين بن الداية ، لوحشة وقعت بينهما ، ووليها علاء الدين عبد الرحمن بن محمود الغزنوي ، ومات ووليها ابنه محمود ، ثم وليها الرضي صاحب المحيط ، ثم وليها علاء الدين الكاساني (٢٢٦) .

وتوفي سيف الدين غازي بن زكي الموصل في سنة أربع وأربعين وترك ولدا صغيرا ، فرباه عمه نور الدين ، وعطف عليه .

واتفق الوزير جمال الدين وزين الدين علي أن ملكوا قطب الدين مودود بن زكي الموصل ، وكان نور الدين أكبر منه ، وكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه .

وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد ، وكان بسنجار ، فكتب إليه يستدعيه ليتسلم سنجار .

فسار جريئة في سبعين فارسا من أمراء دولته فوصل سنجار مجدا ، ونزل بظاهر البلد ، وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله ، فراه الرسول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة ، فسير من لحق أباه في الطريق ، وأعلمه بوصول نور

الدين ، فعاد إلى سنجار ، وسلمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان صاحب الحصن (٢٢٧) يستدعيه لمؤبة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطب الدين والوزير جمال الدين ، وزين الدين بالموصل ، جمعوا العساكر ، وعزموا على قصد سنجار وساروا إلى تل أعفر (٢٢٨) ، فأشار الوزير جمال الدين بمداراته ، وقال : « إننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان ، وجعلنا محلنا دونه ، وهو فيعظمنا عند الفرنج ، ويظهر أنه تبع لنا ، ويقول : إن كنتم كما نحب وإلا سلمت البلاد إلى صاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ، فإن هزمناه طمع فينا السلطان ويقول : إن الذي كانوا يعظمونه ، ويخوفوننا به أضعف منهم ، وقد هزموه ، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ، ويقولون : إن الذي كان يحتمي بهم أضعف منه ، وبالجملة فهو ابن أتابك الكبير » : وأشار بالصلح .

وسار إلى نور الدين بنفسه ، فوفق بينهما على أن يسلم سنجار إلى قطب الدين ، ويتسلم الرحبة ، ويستقل نور الدين بالشام جميعه ، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرها ، فإنها لنور الدين (٢٢٩) .

وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان قد أخذه أبوه أتابك من الخزائن ، وكانت كثيرة جدا .

فغزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكية ، وقصد حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره ، وخرّب ربهضه ، ونهب سوانه ، ثم رحل إلى حصن إنب (٢٣٠) فحصره أيضا .

فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم ، وذلك الأعمال ، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب ، فلقبهم يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وأقتلوا قتالا عظيما ، وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمع كثير ، وأسر مثله .

وكان ممن قتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية ، وكان من عظماء الفرنج وأقويائهم . ويحكى عنه أنه كان يأخذ الركاب الحديد بيده ، فيطبقه بيده الواحدة ؛ وأنه مريوما وهو راكب حصانا قويا تحت قنطرة فيها حلقة أو شيء مما يتعلق به ، فتعلق بيديه وضم فخذه على الحصان فمنعه الحركة .

فلما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند ، وتزوجت أمه بابرنس آخر ، ليدير البلد إلى أن يكبر ابنها (٢٣١) ، وأقام معها بأنطاكية ، فغزاهم نور الدين غزوة ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فهزمهم ، وقتل منهم خلقا وأسر كذلك ، وأسر البرنس الثاني زوج أم بيمند ، واستقل بيمند بأنطاكية .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني من قصيدة أولها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
صافحت يا « بن عماد الدين » ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
أغررت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
ظهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب (٢٣٢)

وقال ابن منير في ذلك :

صدم الصليب على صلابة عوده ،
فتفرقت أيدي سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس زلة
بالروح ، مما قد جنت غدراة

تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النير قناة (٢٣٣)

وسار نور الدين محمود إلى أفسامية ، في سنة خمس وأربعين ،
فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله ، واجتمع الفرنج وساروا إليه
ليرحلوه عنه ، فوجدوه قد ملكه وملاه من الرجال والنخائر ، فسار
في طلبهم ، فعدلوا عن طريقه ، وبخلوا ببلادهم .

وجمع نور الدين العساكر وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي
ليملكها وكان جوسلين من أشجع الفرنج وأسبهم رأيا ، فجمع
الفرنج وأكثر ، وسار إلى نور الدين والتقى ، فانهزم المسلمون وقتل
منهم وأسر .

وكان سلاحدار نور الدين ممن أسر ، فأخذ جوسلين سلاحه ،
فسيره إلى الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية ، وقال :
« هذا سلاح زوج ابنتك » . فعظم ذلك على نور الدين ، وهجر
الراحة إلى أن يأخذ بثأره ، وجعل يفكر في حيلة يحتال بها على
جوسلين ، وعلم أنه إن قصده احتفى في حصونه .

فأحضر أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن ظفروا
بجوسلين ، فجعلوا عليه العيون ، فخرج إلى الصيد فظفر به طائفة
من التركمان ، فصانعهم على مال يؤتيه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه
إذا أحضر المال ، وأرسل في إحضاره .

فمضى بعض التركمان إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ، وكان
ابن داية نور الدين ، واستنابه في حلب ، وسلم أمورها إليه ،
فأحسن الولاية فيها والتدبير ، فأعلم ذلك التركماني ابن الداية
بصورة الحال ، فسير مجد الدين معه عسكرا ، فكبسوا أولئك
التركمان ، وأخذوا جوسلين أسيرا ، واحضروه إلى ابن الداية ، في
محرم هذه السنة (٢٣٤) .

فسار نور الدين عند ذلك إلى قلاع جوسلين ، ففتح عزاز بعد الحصار ، في ثامن عشر ربيع الاول ، سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وفتح تل باشر ، وتل خالد ؛ وفتح عين تاب (٢٣٥) سنة خمسین ، وفتح قدورس (٢٣٦) والراوندان (٢٣٧) ، وبرج الرصاص ، وحصن البيرة وكفرسود (٢٣٩) ، ومرعش (٢٤٠) ونهر الجوز.

وتجمع الفرنج وساروا إليه وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن فتحها ، في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فلما قاربوا منه رجع إليهم ، وأقيهم عند دلوک ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج ، وقتل منهم وأسر كثير ، وعاد إلى دلوک ففتحها (٢٤١) .

وأما تل باشر فإنه تسلمها منهم بعد فتحه دمشق ، لأنهم لما علموا أنه فتح دمشق ، وأنه يقصدهم ولا طاقة لهم به راسلوه ، وبذلوا له تسليمها إليه ، فسير إليهم الأمير حسان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلمها منهم ، وحصنها .

وكان فتحه دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، لأن الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لا عراض دمشق بينه وبين عسقلان (٢٤٢) .

وطمع الفرنج في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونها منهم في كل سنة ، فخاف نور الدين أن يملكها الفرنج ، فاحتال في أخذها لعلمه أن أخذها بالقهر يصعب لأنه متى نازلها راسل صاحبها الفرنج مستنجدا بهم ، وأعادوه خوفا من نور الدين أن يملكها فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين أبوق بن محمد بن بوري صاحبها ، واستماله وهاداه ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، فكان يقول له في بعض

الأوقات : « إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق » - يعني بعض أمراء مجير الدين - فكان يبعد ذلك عنه ، يأخذ أقطاعه ، فلما لم يبق عنه أحد من الأمراء قدم أميراً يقال له عطاء بن حفاظ الخادم ، وكان شجاعاً وفوض إليه أمور دولته ، فكان نور الدين لا يتمكن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله .

فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب أهلها واستمالهم ، وكان الناس يميلون إليه ، لما هو عليه من العدل والبيان والاحسان ، فوعدوه بالتسليم إليه .

فلما حصر دمشق أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم لذلك .

فتسلم نور الدين دمشق ، وخرج الفرنج وقد قضى الأمر فعادوا - خائبين ، وسلمها إليه أهلها من باب شرقي ، والتجأ مجير الدين إلى القلعة ، فراسله وبذل له عوضاً عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلمها إليه وسار إلى حمص ، ثم إنه راسل أهل دمشق ، فعلم نور الدين ، فخاف منه ، فأخذ منه حمص ، وعوضه ببالس ، فلم يرض بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نور الدين إلى حارم ، وهي لببمند صاحب أنطاكية ، وحصرها في سنة إحدى وخمسين ، وضيق على أهلها ، فتجمع الفرنج وعزموا على قصده فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لاتلقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة والرأي مطاوعته » ، فأرسلوا إلى نور الدين ، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم ورجع نور الدين إلى حلب .

ووقعت الزلازل في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفرطاب ، وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميميس (٢٤٢) ،

عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وتهدمت أسوار هذه البلاد
فجمع نور الدين العساكر ، وخاف على البلاد من الفرنج ، وشرع في
عمارتها حتى أمن عليها .

وأما شيزر ، فأنقلبت القلعة على صاحبها وأهله ، فهلكوا كلهم ،
وكان قد ختن ولدا له وعمل وليمة ، وأحضر أهله في داره ، وكان له
فرس يحبه ولايكاد يفارقه ، وإذا كان في مجلس أقيم ذلك الفرس
على بابه ، فكان ذلك اليوم على الباب ، فجاءت الزلزلة فقام الناس
ليخرجوا من الدار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله ،
فامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم فهلكوا .

وبادر نور الدين ، ووصل إلى شيزر ، وقد هلك تساج الدولة بن
مقذ وأولاده ، ولم يسلم منهم إلا الخاتون أخت شمس الملوك زوجة
تاج الدولة ، ونبشت من تحت الردم سالمة ، فقتل القلعة وعمر
أسوارها ودورها ، وكان نور الدين قد سأل أخت شمس الملوك عن
المال وهددها ، فذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم ، ونبشت
هي دونهم ، ولا تعلم بشيء ، وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم .

وكان شرف الدولة اسماعيل غائبا ، فلما حضر وعاین قلعة
شيزر ، ورأى زوجة أخيه في ذلك الذل بعد العز ، عمل قصيدة
أولها :

ليس الصباح من المساء بأمثل
فأقول لليل الطويل ألا انجلي

قال فيها :

يا « تاج دولة هاشم » بل ياأبا الت
يجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك « قلعة شيزر »
والستر دون ذسائها لم يسبل

لرأيت حصنا هائل المرأى غدا
متهلها مثل النقا المتهيل
لايهتدي فيه السعاة لاسلك
فكأنما تسري بقاع مهول

ذكر فيها زوجة أخيه ، فقال :

نزلت على رغم الزمان ولو حوت
يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع
وتعوضت عن عزها بتذلل (٢٤٤)

وأقامت الزلازل تتردد في البلاد سبع سنين ، وهلك فيها خلق
كثير .

وفي هذه السنة أبطل الملك العادل نور الدين ، وهو بشير ،
مظالم ومكوسا ببلايه كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثم إن نور الدين تلافى الحال مع ضحاك البقاعي ، وراسله ،
وهو ببعلبك ، وكان قد عصى فيها بعد فتح دمشق ، ولم ير أن يحصره
بها لقربه من الفرنج ، فسامها إلى نور الدين في هذه
السنة (٢٤٥) .

وجرت وقعة بين نور الدين وبين الفرنج بين طبرية وبانياس ،
فكسرههم نور الدين كسرة عظيمة في جمادى الاولى سنة اثنتين
 وخمسين وخمسمائة (٢٤٦) .

ثم عاد نور الدين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين ،
مرضا شديدا ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه
الأصغر نصرة الدين أمير أميران محمد بن زنكي وأرجف بموت نور
الدين ؛ فجمع أمير أميران الناس ، واستمال الحلبيين ، وملك

المدينة دون القلعة ، وأذن للشيعة أن يزيدوا في الأذان : « حي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر » ، على عادتهم من قبل ، فمالوا إليه لذلك .

وثارت فتنة بين السنة والشيعة ، ونهب الشيعة مدرسة ابن عسرون وغيرها من أدر السنة ، وكان أسد الدين شيركوه بحمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه ذلك ، وقال : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت ، وإن كان مات فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد » .

فعاد مجدا إلى حلب ، فوجد نور الدين وقد ترجع إلى الصلاح ، فأجلسه في طيارة مشرفة إلى المدينة ، بحيث يراه الناس كلهم ، وهو مصفر الوجه من المرض ، ونادوا إلى الناس : « هذا سلطانكم » . فقال بعضهم : « ما هذا نور الدين ، بل هو فلان » - يعزون رجلا كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك - .

ولما تحقق أمير أميران عافية أخيه خرج من الدار التي كان بها تحت القلعة ، وبيده ترس يحميه من النشاب ، وكان الناس قد تفرقوا عنه ، فسار إلى حران ، فملكها .

وسير نور الدين إلى قاضي حلب ، جدي أبي الفضل هبة الله بن أبي جراحة ، وكان يلي بها القضاء والخطابة والامامة ، وقال له : « تمضي إلى الجامع ، وتصلي بالناس ، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه » .

فنزل جدي ، وجلس بشمالية الجامع تحت المنارة ، واستدعى المؤننين ، وأمرهم بالأذان المشروع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا ، فقال لهم : « ها أنا أسفل منكم ولي أسوة بكم » .

فصعد المؤننون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تحت المنارة من

عوام الشيعة وغوغائهم خلق كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : « يا أصحابنا ، وفقكم الله ، من كان على طهارة فليدخل وليصل ، ومن كان محدثا فليجدد وضوءه ويصلي ، فان المولى نور الدين - بحمد الله - في عافية ، وقد تقدم بما يفعل ، فانصرفوا راشدين . »

فانصرفوا وقالوا : « ايش نقول لقاضينا ! ونزل المؤنذون وصلى بالناس ، وسكنت الفتن .

فلما عوفي نور الدين قصد حران ، فهرب نصرة الدين أمير أميران ، وترك أولاده بالقلعة بحران فسلمها ، وأخرجهم منها ، وسلمها إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أخيه ، قطب الدين .

ثم سار إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار ، وقد مات أبوهم ، فشفع إليه بعض الأمراء في إبقائها عليهم ، فغضب ، وقال : « هلا شفعتهم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي » ، وأخذها منهم .

وخرج مجد الدين بن الداية من حلب إلى الغزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين ، فلقى جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذة أسيرا ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثم إن الفرنج أغاروا على بلد عين تاب ، فأخذوا التركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يريدون أنطاكية ، فخرج إليهم مجد الدين ، ولقيهم بالجومة (٢٤٧) ، وكسرههم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وأسر البرنس الثاني وخالقا معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهل ذي الحجة من سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع ، ولى نور الدين كمال الدين أبا الفضل محمد بن الشهر زوري قضاء ممالكه كلها ؛ وأمر القضاة ببلاؤه أن يكتبوا في الكتب بالنيابة عنه ، وكان قد حلف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان

ذلك بدمشق في السنة المذكورة ، فامتنع زكي الدين قاضي دمشق ، فعزل ؛ وكتب إلى جدي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضا .

ووصل نور الدين ومعه مجد الدين بن الداية ، واستدعاه نور الدين إلى القلعة ، وقال : « كنا قد عاهدنا كمال الدين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنت إلا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير » فامتنع وقال : « لا أنوب عن مكانين » . فولى قضاء حلب محيي الدين أبا حامد بن كمال الدين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لقمان الكردي ؛ وذلك بإشارة مجد الدين لوحشة كانت بينه وبين جدي .

ثم إن نور الدين جمع العساكر بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنج جموعهم ، وساروا إليه . فطلب منهم المصاف فلم يجيبوه ، وتلطفوا معه حتى عاد إلى حلب .

ثم جمع العساكر في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وبخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصرا له ، وعازما على أن يقصد طرابلس .

فاجتمع الفرنج ، وخرج معهم الدوقس الرومي ، وكان قد خرج في جمع كثير من الروم ، واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا ، فإنهم يكونون آمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا ، وساروا مجدين إلى أن قربوا من يذك (٢٤٨) المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدين والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا جميعا إلى عسكر نور الدين ، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح ، حتى خالطهم الفرنج ، فقتلوا ، واسروا ، قتلوا عظيما واسرا كبيرا .

وكان الدوقس أشدهم على المسلمين ، فلم يبق أصحابه على أحد ، وقصدوا خيمة نور الدين ، وقد ركب فيها فرسة ، فنجا بنفسه ؛ ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله ، فنزل انسان

كردي ، وفداه بذفسه ، فقطع الشبحة ونجا نور الدين ، وقتل الكردي ، فأحسن إلى مخالفه ، ووقف عليهم الوقوف (٢٤٩) .

ووصل نور الدين إلى بحيرة قدس (٢٥٠) ، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به من سالم من العسكر ، فقال له بعضهم : « المصلحة أن نسير ، فان الفرنج ربما طمعوا وجاءوا إلينا ، ونحن على هذه الحال » ؛ فوبخه وأسكته ، وقال : « إذا كان معي ألف فارس التقيتهم ، ووالله لأستظل بسقف حتى أخذ بثأري وثأر الاسلام » .

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوضا عما أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكره كأن لم يهزم ولم ينكب ، وكل من قتل أعطى أولاده أقطاعه .

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجة قال له بعض صحابة السوء : « إن لك في بلادك إدارات وصلات ووقوفا كثيرة على الفقهاء ، والفقراء ، والقراء ، والصوفية وغيرهم ؛ فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح » ، فغضب من ذلك وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفاؤكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ! » وقيل : إن برهان الدين البلخي قال لنور الدين : « أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والطبول والزمر ، كلا والله . »

فلما سمع نور الدين كلامه عاهد الله على التوبة ، ونزع عنه ثيابه تلك التي كان يلبسها ، والتزم بلبس الخشن ؛ وبطل جميع ما كان بقي في بلاده من الأعراس والمكوس والضرائب ؛ ومنع من ارتكاب الفواحش ، وكتب إلى البلاد إلى زهادها وعبادها يذكر لهم ما نال

المسلمين من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، وان يحدثوا المسلمين على الغزاة ؛ وكاتب الملوك الاسلامية يطلب منهم النجد والاستعداد ، وامتنع من الذوم على الوطنيء وعن جميع الشهوات .

وراسله الفرنج في طلب الصلح فامتنع ، فبينما هو في الاستعداد للجهاد إذ ورد عليه في شهر ربيع الأول ، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور وزير العاضد بمصر إلى دمشق ، ملتحجاً إليه ، ومستجيراً به على ضرغام ، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها .

وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر ، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره ، فبقي متردداً بين أن يفعل ذلك وبين أن يجعل جل قصده إلى الفرنج ، ثم قوي عزمه وسير أسد الدين شيركوه بن شادي ، في عسكر معه ، في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وتقدم إلى أسد الدين أن يعيد شاور إلى منصبه .

وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق ، بما بقي من العساكر ليمنع الفرنج من التعرض لآسد الدين وشاور في طريقهما ، فاشتغل الفرنج بحفظ بلادهم من نور الدين عن التعرض لهما ، ووصل أسد الدين وشاور إلى بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ، ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جمادى الآخرة ، فخرج ضرغام فقتل ، وقتل أخوه ، وخلع على شاور وأعيد إلى الوزارة .

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، فغدر شاور ، وعاد عما كان قرره مع نور الدين ، وأمر أسد الدين بالعود إلى الشام فامتنع ،

وطلب ما كان استقر فلم يجبه إليه ، فأرسل أسد الدين نوابه فتسلموا ببليس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجد بهم ، وخوفهم من نور الدين إن ملك مصر ، فسارعوا إلى تلبية ، وطمعوا في ملك الديار المصرية ، وساروا إلى ببليس ، وسار نور الدين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم من يحفظها .

وسار ملك القدس في الباقيين إلى ببليس ، واستعان بجمع كثير كانوا خرجوا إلى زيارة القدس ؛ وأقام أسد الدين ببليس ، وحصره الفرنج ، والعسكر المصري ثلاثة أشهر وهو يغاليهم القتال ويرأوهم ، فلم يظفروا منه بطائل ، مع أن سور ببليس قصير ، وهو من طين (٢٥١) .

فعند ذلك خرج نور الدين لقصد بلاد الفرنج ، إلى حلب وجمع العساكر ، وأرسل إلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ، وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وإلى نجم الدين أبي صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف واستنجد بهم .

فسار قطب الدين ومقدم عسكره زين الدين علي كوجك ، وسير صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحب الحصن فقال له خواجه وندماؤه : « على أي شيء عزمت ؟ » فقال : « على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقى نفسه ومن معه في المهالك » .

فلما جاء الغد أمر العسكر أن يتجهز للغزاة فسألوه عما صدفه عن رأيه ، فقال : « إن نور الدين إن لم أنجده خرجت بلادي عن يدي ، فانه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحدثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل واحد منهم ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ،

ويبكون ، فأخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء علي . ثم تجهز وسار بنفسه .

ولما اجتمعت العساكر خرج نور الدين الى حارم ، وحصرها ، ونصب المجانيق عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس ييمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدم كبير من الروم .

وابن لاون ملك الارمن ، وجمعوا جميع من بقي من الفرنج بالساحل ، وقصدوا نور الدين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكن منهم إن طلبوه « ويبتعدوا » عن البلاد إن لقوه ؛ وسير اذقاله إلى تيزين (٢٥٢) ، فساروا فنزلوا على الصفي (٢٥٣) ، ثم عادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للاقتال فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون حتى وصلوا إلى جدارهم ؛ ونور الدين واقف بازا ثمهم على تل هناك يتضرع إلى الله ، وهو مكشوف الرأس .

وبقي راجل الفرنج فوق عم ، مما يلي حارم بالصفي ، فعطف عليهم زين الدين علي كوجك ، في عسكر الموصل ؛ وكان نور الدين قد جعله كميناً في طرف العمق ، وأجام القصب ؛ فقتلهم عن آخرهم .

ورجعت الخيالة من الفرنج خوفاً على الراجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمر على ما قدره ، فرأوا الرجالة منهم قتلى وأسرى ، واتبعهم نور الدين مع من إنهمز من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتد الحرب ، وكثر القتل في الفرنج ، فوقع عليهم الغلبة .

وعدل المسلمون إلى الأسر ، فأسروا صاحب أنطاكية ، وصاحب

طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، ولم يسلم إلا مليح ابن لاون ؛ قيل إن الياروقية أفرجوا له حتى هرب ، لأنه كان خالهم ، وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السنة ، وبث سراياه في أعمال أنطاكية ، فنهبوها وأسروا أهلها ، وباع البرنس بمال عظيم وأسرى المسلمين (٢٥٤) .

ثم سار في هذه السنة إلى دمشق ، بعد أن أنزل لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، ثم خرج إلى بانياس ، فحصرها وقتلها ، وكان معه أخوه نصر الدين أمير أميران - وكان قد رضي عنه وسامحه - وهو على حارم ، بعد أن دخل إلى الفرنج ، فأصابه سهم أنهب إحدى عينيه ، فقال له : « لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت زهاب الأخرى » ، وجد في حصارها وفتحها ، وملاً القلعة بالنخائر والرجال ، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على ما سوى ذلك مالا في كل سنة .

ووصل خبر فتح حارم وبانياس إلى الفرنج النازلين على بلبيس ، فأرادوا العود إلى بلادهم ، فراسلوا أسد الدين في الصلح رجاء أن يلحقوا بانياس ، فاتفق الحال معهم على أن يعودوا إلى الشام ، ويسلم ما بيده من أعمال مصر إلى أهلها ، ولم يكن عنده علم بما جرى لنور الدين بالشام ، وكانت النخائر قد قلت عنده بلبيس .

وخرج من الديار المصرية إلى الشام ، وجاء الفرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمر قد فات ، وكشف أسد الدين الديار المصرية ، واستصغر أمر من بها .

وبخلت سنة إحدى وستين وخمس مائة ، فسار نور الدين إلى المنيطرة (٢٥٥) ، جريدة في قلة من العسكر ، على غفلة من الفرنج ، وحصر حصنها ، وأخذ عذوة ، وقتل من به ، وسبى وغنم

غنيمة كثيرة ، وأيس الفرنج من استرجاعه بعد أن تجمعوا له وتفرقوا .

وتحدث أسد الدين مع نور الدين ، في عوده إلى الديار المصرية ، فلما رأى جده سيره إليها في ألفي فارس من خيار العسكر ، في سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

فسار على البر ، وترك بلاد الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصرية ، وعبر النيل إلى الجانب الغربي عند أطفح (٢٥٦) ، وحكم على البلاد الغربية ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، فأقام نيفاً وخمسين يوماً .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسد الدين إلى الصعيد ، وبلغ إلى موضع يعرف بالبايين (٢٥٧) ؛ وسارت العساكر المصرية والفرنجية خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة وقد جعل أثقاله في القلب ليتذكر بها ؛ وجعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب ، وأوصاهم متى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلاً ، فإذا عادوا فارجعوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنج على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسد الدين بمن معه على من بقي منهم ، فهزمهم ووضع السيف فيهم ، وأكثر القتل والأسر ، وعاد الذين حملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مضوا قتلاً وأسراً فانهزموا .

وسار أسد الدين إلى الاسكندرية ، ففتحها باتفاق من أهلها واستتاب بها صلاح الدين ، وعاد إلى الصعيد ، وجبى أمواله .

وتجمع الفرنج والمصريون ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسد الدين ، فوقع الصلح على أن بذلوا لأسد الدين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن

الفرنج لا يقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشام ؛
وتسلم المصريون الاسكندرية (٢٥٨) .

وأما نور الدين فإنه جمع العساكر في هذه السنة ، وبخل من
حمص إلى بلاد الفرنج ، فنازل عرقة ، ونهب بلدها ، وخرب
بلادهم ، وفتح صافيتا والعريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى
بانياس ، وخرج إلى هونين (٢٥٩) ، فانهزم الفرنج عنه
وأحرقوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فخرب سورته وعاد .

وكان حسان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نور الدين منبج ولده
غازي بن حسان ، فعصى عليه في هذه السنة ، فسير إليه عسكريا ،
وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وهو الذي
ابتنى المدرسة الحنفية بمنبج .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، نزل شهاب الدين مالك بن
علي بن مالك صاحب قلعة جعبر ليتصيد ، فأخذه بنو كلاب أسيرا
وحملوه إلى نور الدين في رجب ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في
الاقطاع فلم يجبه ، فعدل إلى الشدة والعنف .

ثم سير إليها عسكريا فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللين مع
صاحبها ، إلى أن اتفق الحال على أن عوضه عنها بسروج وبزاعا
والملوحة (٢٦٠) ، وسلم إليه القلعة في سنة أربع وستين ، وقيل
لمالك : « أيما أحب إليك سروج أو القلعة ؟ » فقال : « هذه أكثر
مالا ، وأما العز ففارقناه بالقلعة » .

وفي هذه السنة أطلق نور الدين في بلاده بعض ما كان قد بقي من
المظالم والمؤن .

ثم إن الفرنج طمعوا في الديار المصرية فصعدوا إليها في سنة أربع
وستين وخمسمائة ، وأخذوا بلبليس وساروا إلى القاهرة فقاتلوها ؛
وسير العاضد يستغيث إلى نور الدين ، وسير شعور نسائه في

الكتب ، فوصله الرسول وهو بحلب ، وبذل له ثلاث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم .

وكتبوا إلى أسد الدين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص ، وقد عزم على الإيفاد إليه ، فأمره بالتجهيز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح والدواب ، وحكمه في العسكر والخزائن فاختر ألفي فارس ، وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سالخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء (٢٦١) .

وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم : عز الدين جورديك ، وغرس الدين قلج ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة بن ياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان ، وصلاح الدين ابن أخيه .

وسار أسد الدين ، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، وبخل إليها واجتمع بالعاقد ، وخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وفي نفس شاور منه ما فيها ، ولا يتجاسر على إظهاره .

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به ، فخرج في بعض الأيام على عادته فلم يجده في الخيام ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي - رضي الله عنه - فلقيه صلاح الدين ، وجورديك ، في جمع من العسكر وخدموه ، وأعلموه أن أسد الدين قد مضى للزيارة فقال : « نمضي إليه » فساروا جميعا ، فساوره صلاح الدين وجورديك ، وألقياه إلى الأرض ، فهرب عنه أصحابه وأخذ أسيرا .

وأرسلوا إلى أسد الدين فحضر في الحال ، وجاءه التوقيع في الحال بالوزارة على يد خادم خاص ، ويقول : « لا بد من رأسه » ، جريا على عادتهم في وزرائهم أن الذي يقوى على الآخر يقتله ، فقتل وأنفذ رأسه إلى العاقد (٢٦٢) .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعه الوزارة ، فسار وبخل القصر ، وترتب وزيرا في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام أمرا ناهيا إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة (٢٦٣) .

وفوض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الأمراء ، الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عين الدولة بن ياروق ، وسيف الدولة المشطوب ، وشهاب الدين محمود الحارمي - خال السلطان صلاح الدين - وقطب الدين ينال بن حسان .

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، وأحضره عنده ، وولاه الوزارة بعد عمه ، وخلع عليه ، ولقبه بالملك الناصر ، فاستتبت أحواله ، وبذل المال ، وتاب عن شرب الخمر ، وأخذ في الجود والتشمير في أموره كلها ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فميل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سوى عين الدولة بن ياروق ، فإنه امتنع ، وعاد إلى نور الدين إلى الشام .

فاستمر الملك الناصر بالديار المصرية وزيرا ، وهو نائب عن نور الدين ، وكان إذا كتب إليه كتابا يكتب : « الأمير الاسفهلار ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ويذكر اسمه .

وسير الملك الناصر ، وطلب أباه نجم الدين وأهله ، فسيرهم نور الدين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التجار خلق عظيم ، وذلك في سنة خمس وستين .

وخاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمع الفرنج ، وساروا إليه وتقدمهم ابن الهذفري ، وابن الدقيق (٢٦٤) ، فرحل نور الدين

نحوهما قبل أن تلحقهما بقية عساكر الفرنج فرجعا خوفا منه واجتمعا ببقيّة الفرنج .

وسلك نور الدين وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عشترا (٢٦٥) على عزم الغزاة ، فأتاه خبر الزلازل الحادثة بالشام ، فإنها خربت حلب خرابا شنيعا ، وخرج أهلها إلى ظاهرها .

وتواترت الزلازل بها أياما متعددة ، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وهلك من الناس ما يزيد على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قد احترق جامع حلب وما يجاوره من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة ، فاهتم نور الدين في عمارته وإعادة الأسواق التي تليها إلى ما كانت عليه ، وقيل : إن الاسماعيلية أحرقوه .

وبلغه أيضا وفاة مجد الدين ابن دايتيه ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ، فتوجه نور الدين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها قد تهدمت .

ونزل على ظاهر حلب حتى أحكم عمارة جميع أسوارها ، وبني الفصيل الدائر على البلد ، وهو سور ثان .

ورمم نوابه ما خرب من الحصون والقلاع مثل بعلبك ، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وخرج نور الدين إلى تل باشر ، فوصله الخبر بوفاة أخيه قطب الدين بالموصل في ذي الحجة ، وكان أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ، وكان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ، ولأنه زوج ابنته .

ثم إن فخر الدين عبد المسيح وخاتون ابنة تمرتاش بن إيلغازي

زوجة قطب الدين ، وهي والدة سيف الدين غازي بن قطب الدين
اتفقا على صرف قطب الدين عن وصيته لابنه عماد الدين إلى سيف
الدين غازي .

فرحل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على
أخذ الملك له ؛ فسار نور الدين في سنة ست وستين وخمسمائة ،
وعبر الفرات عند قلعة جعبر في مستهل المحرم ، وقصد الرقة
فحصرها وأخذها ؛ ثم سار في الخابور ، فملكه جميعه ، وملك
نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر ، وكانت أكثر عساكره في الشام
في مقابلة الفرنج .

فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها
المجانيق ، وفتحها فسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته
كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطاعة ، ويحدثونه على الوصول
إليهم ، فسار إلى الموصل .

وكان سيف الدين غازي وعبد المسيح قد سيرا عز الدين مسعود
ابن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب أذربيجان
وأصبهان ، يستنجدانه على نور الدين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولا
ينهاه عن التعرض للموصل فقال نور الدين : « قل لصاحبك أنا
أصلح لأولاد أخي منك ، فلا تدخل بيننا ؛ وعند الفراغ من إصلاح
بلادهم يكون لي معك الحديث على باب همذان ، فانك قد ملكت هذه
المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ؛ وقد بليت
أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت
ملوكهم » .

وأقام على الموصل فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد
المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم بذلك فأرسل
إلى نور الدين في تسليم البلد على أن يقره بيد سيف الدين ؛ وطلب

الامان لذفسه وعلى أن يمضي صحبته إلى الشام ، ويقطعه ما يرضيه
فدسلم البلد ، وأبقى فيه سيف الدين غازي .
وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السنة .

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة
العاضية وإقامة الخطبة المستضيئية العباسية ، فامتنع واعتذر
بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، وكان يؤثر أن لا يقطع
الخطبة للمصريين في ذلك الوقت ، خوفا من دور الدين أن يدخل إلى
الديار المصرية فيأخذها منه ، وإذا كان العاضد معه امتنع وأهل
مصر معه ، فلم يقبل عذره نور الدين ، وألح عليه .

وكان العاضد مريضا فخطب للمستضيء في الديار المصرية ، وتوفي
العاضد ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، وقيل : إنه علم قبل موته ؛ وكان
ذلك في سنة سبع وستين وخمسمائة .

وفي هذه السنة تتبع نور الدين رسوم المظالم والمؤن في جميع
البلاد التي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المذكرات
والفواحدش ، بعدما كان أطلق من ذلك في تواريخ متقدمة ، وكان مبلغ
ما أطلقه أولا وثانیا خمسمائة ألف وستة وثمانين ألفا وأربعمائة
وستين ديناراً .

وكان رأى وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني في المنام كأنه
يفصل ثياب نور الدين ، ففسر ذلك عليه ، ففكر في ذلك ولم يرد عليه
جواباً ، فخجل وزيره وبقي أياماً واستدعاه ، وقال : « تعال
يا خالد ، اغسل ثيابي » ؛ وأمره فكتب توقيعاً بإزالة ما ذكرناه .

وسار الملك الناصر من مصر غازياً ، فنازل حصن الشوبك
وحصره ، فطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام ، فلما سمع نور
الدين بذلك سار عن دمشق ، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى ،
فقيل للملك الناصر : « إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا
الجانب ملك بلاد الفرنج ، فلا يبقى لك معه بيار مصر مقام ، وأن

جاء وانت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك
بما شاء ؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر » .

فرحل عن الشوبك إلى مصر ، وكتب إلى نور الدين يعتذر
باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الوثوب بها ،
فلم يقبل نور الدين عذره ، وتغير عليه وعزم على الدخول إلى الديار
المصرية .

فسمع الملك الناصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهاب الدين ،
وتقي الدين عمر ، وغيرهم من الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه من حركة
نور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحد ، فقام تقي الدين ، وقال :
« إذا جاءنا قاتلناه » ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين
أيوب والد الملك الناصر ، وأقعد تقي الدين ، وقال للملك الناصر :
« أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، ونحن أكثر محبة لك من
جميع من ترى ؛ ووالله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا
إلا أن نقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف
لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ، وكل من نراه عندك ،
فهو كذلك ، وهذه البلاد لنور الدين ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن
أراد عزلك سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب وتقول
له : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد ، ولأحاجة إلى ذلك بل
يرسل المولى نجابا يضع في رقبتى منيلا ، ويأخذني إليك » .
وتفرقوا .

فلما خلا نجم الدين أيوب بالملك الناصر قال له : « كيف فعلت
مثل هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه
ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه ، وحينئذ لانقوى به ، وأما إذا بلغه
طاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا ؛ والأقدار بيد الله ؛ ووالله لو أراد
نور الدين قسبة من قصب السكر لقاتلته عليها حتى أمنعه أو
أقتل » ، ففعل ما أشار به عليه والده ، فترك نور الدين قصده ،
واشتغل بغيره .

وخرج نور الدين بالعساكر ، ففتح حصن عرقة ، وصافيتا ، وعريمة (٢٦٧) ، ونهب وخرب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

ثم إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستين للغارة ، فسار نور الدين إليهم ، فنزل عشترا ، وسير عسكره إلى أعمال طبرية ، فغزموا غنائم عظيمة ، وعادوا .

وكان نور الدين قد استخدم مليح بن لاون ، ملك الأرمن ، وأقطعه أقطاعا من بلاد الاسلام ، وحضر معه حروبا متعددة فأنجده في هذه السنة بطائفة من عسكره ، فدخل مليح إلى أذنة وطرسوس والمصيصة ، وفتحها من يد ملك الروم ، وأرسل إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم وثلاثين أسيرا من أعيانهم (٢٦٨) .

وقصد قلج أرسلان ذا الذون بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس (٢٦٩) ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريدا ، فاستجار بنور الدين ، ووصل إليه فأكرمه ، وسير إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه ، فلم يفعل ؛ فسار نور الدين إليه في هذه السنة فابتدأ بكيسوم (٢٧٠) ، وبهسنى (٢٧١) ، ومرعش ، ومرزبان (٢٧٢) ، ومايليها ، وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القعدة ، والباقي بعدها .

وسير طائفة من عسكره إلى سيواس ، فملكها ؛ ورأسله قلج أرسلان في الصلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه ، وأعطى سيواس ذا الذون ، وجعل معه قطعة من عسكره ؛ وشرط على قلج أرسلان إنجابه بعساكره إلى الغزاة .

واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل واحد منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتفقا على قتال الفرنج ، وأيهما سبق أقام للآخر منتظرا ، إلى أن يقدم عليه ، فسبق صلاح الدين ووصل إلى الكرك وحصره .

وسار نور الدين فوصل إلى الرقيم (٢٧٣) - وبينه وبين الكرك مرحلتان - فخاف صلاح الدين ، واتفق رأيهم وأهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرا على أخذ مصر منه .

فعاد إلى مصر ، وأرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر ، وأنه بلغه أنه مريض ، ويخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم ، ولم يكن مريضا ، وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجلب عن الوصف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين ، فعظم ذلك عليه ولم يظهر التأثر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهم عندنا » .

واتفق أن صلاح الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سقط عن الفرس ، وبقي أياما ومات ، وهو غائب عنه ، في السابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وخاف صلاح الدين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكة أخرى لتكون عنة له بحيث أن نور الدين إن غلبه إلى الديار المصرية سار هو وأهله إليها وأقاموا بها .

فسير أخاه الأكبر تورا نذاه يأنن نور الدين له في ذلك ، وسيره قاصدا عبد النبي بن مهدي ، وكان دعا إلى نفسه ، وقطع خطبة بني العباس ، فمضى إليها ، وفتح زبيد وعين ومعظم بلاد اليمن (٢٧٤) .

وصلاح الدين على ما كان عليه من الطاعة في الظاهر لنور الدين إلى أن اتفق أن مرض نور الدين بعلة الخوانيق بدمشق ، وتوفي بها يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وكان قد شرع في التاهب للدخول إلى الديار المصرية وختن ولده الملك

الصالح اسماعيل بدمشق ، في خامس شوال ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للأيتام الذين ختنهم معه .

واتسع ملكه بحيث خطب له بالحرمين الشريفين وبلاد اليمن التي افتتحها شمس الملوك ، وآنعمر بلد حلب في زمانه لعدله وحسن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل .

وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ، مثل الحاضر السلیماني ، وخارج باب الأربعين ، وغير ذلك من الأبواب جميعها .

وارتفعت الاسعار مع كثرة المغلات لكثرة العالم ، حتى كانت الاسعار في السنة التي مات فيها بعد ذلك الرخص في السنة التي مات فيها والله : الحنطة مكوك ونصف بدينار ، والشعير مكوك ونصف بدينار ، والعدس مكوك ومصع بدينار ، والجلبان كذلك ، والقطن ستة أرطال جوز بدينار .
والله تعالى يرحمه

وقام الملك الصالح بالملك بعده (٢٧٥) ، وكان عمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له الأمراء بدمشق . وخطب له الملك الناصر صلاح الدين بمصر ، وأرسل إليه رسولا يعزيه ، ومعه ننانير مصرية عليها اسمه ، ويعلمه أنه في طاعته ، وأن الخطبة أقيمت له بمصر .

وأما حلب فكان الوالي بقلعتها جمال الدين شاذبخت (٢٧٦) - الخادم الهندي ، عتيق نور الدين - وهو الذي بني المدرسة لأصحاب أبي حنيفة بحلب ، وقبر بها - ، فوصله كتاب الطير بوفاة نور الدين ؛ فأمر في الحال بضرب الدباب (٢٧٧) ، والكوسات ، والبوقات ؛ وأحضر المقدمين والأعيان بحلب ، والفقهاء والأمراء ، وقال :

« قد وصل كتاب الطائر ، يخبر أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ؛ وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه » ،

فاظهروا السرور بذلك ، وحمدوا الله تعالى ، فقال لهم : « تحلفون لولده الملك الصالح ، كما أمر الملك العادل بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم ، كما كانت لآبيه » . فحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يترك أحدا منهم يزول من مكانه .

ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبس ثياب الحداد ، وخرج إليهم وقال : « يحسن الله عزاءكم في الملك العادل ، فإن الله قد نقله إلى جنات النعيم » .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين إلى حلب ، لاثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم الملك الصالح .

وكان وزير الملك العادل نور الدين : موفق الدين خالد بن محمد ابن نصر بن القيسراني ، رسولا عنه بمصر .

فاتفق رأي الجماعة على أن ولوا وزارة الملك الصالح : شهاب الدين أبا صالح عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي ، وكان عدلا على خزائن نور الدين .

وكان شمس الدين علي (٢٧٨) ، ابن داية نور الدين ، أخو مجد الدين لأمه ، من أكبر الأمراء النورية ، وأمر حلب راجع إليه وإلى إخوته في أيام نور الدين ، وكان بحلب عند موت نور الدين ، وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن أخواه ؛ فتولى شمس الدين علي تدبير حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشحنة بالمدينة .

وكان نور الدين قد سير إلى الموصل وغيرها من البلاد يستدعي العساكر ، بحجة الغزاة ؛ ومقصوده الطلوع إلى مصر ، فصار سيف

الدين غازي بعسكر الموصل ، وعلى مقدمته سعد الدين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نور الدين واليا من قبله بالموصل ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الأخبار بموت نور الدين هرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب جريئة .

وأما سيف الدين فإنه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعة جعبر ؛ فأرسل شمس الدين علي بن الداية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدين ابن عمه من البلاد الجزرية ، فلم يمكنه الأمر ، فالتفت مع بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين علي .

وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم قد صار متولي تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهر زوري وجماعة من الأمراء معه ، وكان قد أشار كمال الدين على الأمراء بمشاوره الملك الناصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجة عليهم ، فخافوا منه ولم يفعلوا .

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالا ، وخوفهم بالاستنجاد بصلاح الدين وسيف الدين ، فعادوا . وبلغ ذلك كله الملك الناصر صلاح الدين ؛ فأرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدد من سيف الدين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفه ، وأنكر صالح الفرنج ، وبذل المال لهم ، وبذل من نفسه قصد الفرنج ، وكفهم عن التطاول إلى شيء من بلاد الملك الصالح .

وكتب إلى كمال الدين وابن المقدم ، والأمراء ، وقال : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامه ، أو يثق به مثلي لسلم إليه مصر ، ولو لم يعجل عليه الموت لعهد إلي بتربية ولده ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأكافي إنعام أبيه ، وأجازي كلا منكم على فعله . »

وكثر خوف شمس الدين علي بن الداية من سيف الدين غازي ، وأن يعبر الفرات إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصالح ، فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين بن المقدم عسكريا ، فنهجه ؛ وعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين علي بن الداية ، عوضا عما أخذ منه .

ثم إن الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصالح إلى ابن الداية بحلب ، لأنها أم البلاد ، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعد الدين كمشتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدين علي أتابكا للملك الصالح ، وحلف شمس الدين وجمال الدين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدين عثمان إلى دمشق .

وسار الملك الصالح وأمه مع سعد الدين كمشتكين والأمراء الذين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وصل من جمال الدين شاذبخت من خوف الأمراء من بني الداية ، فقبضوا « سابق الدين عثمان » ، بقنسرين ؛ وكنتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدر الدين حسن ، فقبضوه ، وبخلوا من « باب الميدان » وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا إليه ؛ وبادروا بالملك الصالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان « بشمس الدين علي » نقرس ، فحمل في محفه ، وحضر بين يدي الملك الصالح ، فزندوا يديه ، وقيدوا أخويه ، وجعلوا الجميع في المطمورة (٢٧٩) ، بالمركز .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدم جماعة من الأجناد ، فصار في مقدار خمسمائة راجل ، و « شمس الدين » في مقدار مائة ، وأمر أسباسلار (٢٨٠) باب القلعة أبا بكر بـ... مقبل : أن يمنع من يصعد إلى القلعة من أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدين وبدر الدين ، فكانا يصعدان ، ومع كل واحد

منهما غلام واحد ؛ ووكل بباب شمس الدين ثلاثين رجلا كل ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : « أنا أبعث الرجال إليك ، ليقوموا في الخدمة » ، وكان يوكل بالأجناد الذين خالفوه حفضة يمنعون من يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصالح .

وأما حال المدينة فان السنة من أهل البلد مالوا إلى « المجبية » ، لتعصبهم للسنة على الشيعة ، وجمعهم بدر الدين حسن شحنة حلب ، واستحلفهم في الليل ، وكان فيهم بذو العجمي ، والشيخ أبو يعلى بن أمين الدولة ، وبذو قاضي بالس - على ما ذكر - وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشاب وبني الطرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشيعة ، يتوالون أبا الفضل بن الخشاب ، ويقدمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للملك الصالح ، وعلى مخالفة بني الداية ، فسير بدر الدين حسن إلى ابن الخشاب ، وقال له : « إن جماعة عندي قذفوك ، وتحذثوا بأنك تطعن في الدولة ، وأذك تريد أن تملك حلب » .

وكان بدر الدين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السنة والشيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاء من الشيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي بالقرب من الزجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدولة ، بالسجن الأصفر (٢٨١) . وكان فيها أموال الأيتام ، وانتقل ابن العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من « مسجد السيبة » (٢٨٢) .

وقتل في ذلك اليوم في « مدرسة الزجاجين » الشيخ أبو العباس المغربي ، وكان مقرئا محدثا .

وثارت الفتنة بين الطائفتين ؛ وطلب الفقراء دور الاغنياء فنهب دار أبي جعفر بن المنذر بالعقبة (٢٨٣) ، فجمع بدر الدين حسن

جماعة من الاجناد ومن اهل البلد السنة ومن العسكر ، والبسهم السلاح ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : « إن أبا الفضل بن الخشاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعض السنة ، فتعينني بذقابين وزراقين حتى أقبض عليه ، وأعتقه ، إلى أن يحضر الملك الصالح » .

فأمر الاجناد بلبس السلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى « تل فيروز » (٢٨٤) - وهو موضع سوق الصاغة الآن - وكان إذ ذاك تلا .

وأخذوا الفلايج والأبواب ، وسدوا الدروب ، وزحفوا من الطرق والأسطحة ، إلى دار ابن الخشاب ، ووقع قتال شديد ، وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدار ، فأحرقها ونهبها ، ونهب أدر جماعة من المجاورين له .

وانهزم القاضي أبو الفضل ، واختفى في دار فخرأ وابن كيا عميد بالقرب من حمام شراحيل (٢٨٥) ، فأقام بها إلى أن وصل الملك الصالح في الحرم ، من سنة سبعين وخمس مائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الداية - كما ذكرنا - وصار الأمر والتدبير إلى سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو الذي بني الخانكاه (٢٨٦) المنسوبة إليه بحلب ، في جوارنا ، وهي كانت دار « أبي الطيب المتنبي » ، بحلب .

وكان شمس الدين علي قد عزم على أن الملك الصالح إذا قدم أخذه بمفرده ، وصعد به إلى القلعة ، ولا يمكن أحدا من الأمراء من الصعود ، ويطردهم ، ويستقل بالأمور .

فسير « شاذبخت » من أسر ذلك إلى الأمراء الذين كانوا في صحبة « الملك الصالح » ، فاتفق رأيهم في قنسرين على قبض أولاد الداية ، وتحالفوا على أن قدموا كمشتكين ، فلما رحلوا من قنسرين ، بدأوا بسابق الدين ، وكان قد وجه إلى دمشق في تقرير

الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطريق لئلا يصل إلى حلب من يخبر أخويه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة - كما ذكرنا - .

وأما أبو الفضل بن الخشاب ، فإن « الملك الصالح » أمنه ، وسير له خاتما ، وركب إلى القلعة ، ومعه خالق كثير من أهل حلب ، وعوامها ، يمشون في خدمته ، وأكد أمره ، وقرر على أن يقتل ، فلما نخل إلى القلعة ، ووصل قدام الفرن بالقلعة ، ضربه علي أخو عز الدين جورديك فرماه . وجاء بعض أجناد القلعة فاحتز رأسه ، وجعلوه على باب القلعة .

ثم رفع على رمح إلى برج بالقلعة ، يقال له « برج الزيت » ؛ وتفرق أصحابه من تحت القلعة ، عند ذلك .

واستولى على دولة « الملك الصالح » أمير لالا المجاهد ياقوت وهو الحاكم عليه ، وهو الذي رباه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدم العساكر ومتولي اقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ، فخاف ، وولوا رئاسة حلب الرئيس صفي الدين طارق بن الطريرة ، وعزلوا أبا محمد الحكم ، وكان يتولى الرئاسة في أيام نور الدين .

فخاف ابن المقدم والأمراء ، الذين بدمشق ، أن يستقر أمر كمشتكين بحلب ، فآخذ الملك الصالح ، ويسير إلى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد الداية ، فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ، ليصل اليهم ، ويسلموا إليه دمشق ، فخاف أن تكون مكية منهم ، فامتنع من ذلك ، وراسل سعد الدين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وابقائها في يده .

فخاف الأمراء ، بدمشق من اتفاق « سيف الدولة » « الملك الصالح » عليهم ، فكاتبوا « الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، واستدعوه من مصر ليملكوه عليهم ، فسار من مصر في

سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهم ، فخرج اليه صاحب بصرى - وكان ممن كاتبه .

ولما وصل الى دمشق خرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه ودخل البلد ، ونزل في دار ابيه المعروفة بدار «العقيقي» (٢٨٧) ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» ، فأعلمه أنه انما جاء في خدمة «الملك الصالح» ، فسلم اليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» اليها ، وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستعان به ، وتزوج «خاتون بنت معين الدين» ، وكانت زوجة «نور الدين» ، واستخلف اخاه طغتكين سيف الاسلام .

وسار الى حمص وحماه ، وهما في اقطاع «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» . وكان ظالما ، فسار منها بعد موت «نور الدين» فملك «الملك الناصر» في حادي عشر جمادى الاولى ، من سنة سبعين ، مدينة حمص . وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القلاع من جهة نور الدين ، فترك في البلد من يحفظه ، ويمنع من في القلعة من النزول .

وسار الى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة ، وكان بالقلعة عز الدين جورديك ، فأرسل اليه ، وقال له: «اني في طاعة الملك الصالح ، والخطبة له في البلاد التي في يدي على حالها ، والمقصود اتفاق الكلمة على طاعة الملك الصالح ، وأن نستعيد البلاد الجزرية ونحفظ بلاده » فاستحلفه جورديك على ذلك ، وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة ، وفي اطلاق شمس الدين علي وأخويه من السجن ، وكان اقطاعهم قد قبض من نوابهم ولم يبق في ايديهم غير شيزر ، «وقلعة جعبر» .

واستخلف جورديك بقلعة «حماة» أخاه ليحفظها ، فلما وصل جورديك قبض عليه كمشتكين ، وسجنه ، فعلم اخوه بذلك ، فسلم قلعة حماة الى الملك الناصر .

وسار الملك الناصر الى حلب ، فوصلها في ثالث جمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها فركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب ، وقال لهم: «أنا يتيتمكم ، وقد عرفتم احسان أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظالم ينتزع ملكي» ، وقال أقوالا كثيرة ، وبكى فأبكى الناس وبذلوا انفسهم وأمـوالهم له ، واتفقوا على القتال دونه ، والذب عنه .

فجعل الحلبيون يخرجون ويقاتلون الملك الناصر عند «جبل جوشن» فلا يقدر ان يتقرب الى البلد ، وأرسل سعد الدين كمشتكين الى «سنان» مقدم الاسماعيلية ، وبذل له أموالا كثيرة ليقتل الملك الناصر ، فقفزوا عليه ، فحماه الله منهم وقتلوا (٢٨٨) .

وبقي محاصرا حلب الى سلخ جمادى الآخرة ، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده ، وكان «ريمند» صاحب طرابلس الذي أسره نور الدين ، قد أطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين ألفا صورية ، في هذه السنة ، وصار موضع «مري» ملك الفرنج (٢٨٩) ، فأرسل من بحلب اليه يطلبون منه ان يقصد بعض البلاد التي بيد الملك الناصر ، ليرحل عنهم ، فسار الى حمص نازلها ، فرحل الملك الناصر عن حلب ، مستهل شهر رجب . فلما نزل «الرسن» رحل الفرنج عن حمص ، ووصل الملك الناصر اليها ، وحصر قلعتها الى ان تسلمها .

وسار الى بعلبك ، فتسلمها وقلعتها ، في رابع شهر رمضان ، من سنة سبعين وخمسائة .

وأما سيف الدين غازي فانه جمع عساكره ، وكاتب اخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، لينزل اليه بعساكره ليجمعها على نصرة الملك الصالح ، فامتنع ، وكان الملك الناصر قـد كاتبه ، وأطمعه في ملك الموصل ، لأنه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيف الدين الى «سنجار» محاصرا لها ، وسير عسكرا كثيرا الى حلب مع أخيه عز الدين مسعود ، مع أكبر أمرائه «زلفندار» ،

فوصل عز الدين الى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا الى حماة ، فقاتلوها .

فارس الملك الناصر ، وبذل لهم تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبا عن الملك الصالح ، فلم يجيبوه الى ذلك ، وقالوا : « لا بد من تسليم جميع ما اخذناه من الشام ، وعوده الى مصر » .

فسار الملك الناصر الى عز الدين ، وزلفندار ، فالتقوا في تساع عشر شهر رمضان ، على قرون حماة (٢٩٠) ، فانهزم عسكر الموصل ، وثبت عز الدين بعد الهزيمة ، فقال الملك الناصر : « اما ان يكون هذا أشجع الناس ، أو أنه لا يعرف الحرب » . وأمر أصحابه فحملوا فحملوا عليه حتى ازالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة وتبعهم الملك الناصر ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة فاطلقهم .

ونزل الملك الناصر على حلب ، محاصرا لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح ، على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم ، وأخذ المعرة ، وكفرطاب ، وانتظم الحال بينهم على ذلك .

ورحل عن حلب ، في العشر الأول من شوال ، الى حماة ، فوصلته خلع الخليفة بها مع رسوله ، ووصل خبر الكسرة الى سيف الدين ، وهو محاصر سنجار ، فصالح « عماد الدين » على ما بيده ورحل الى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملك الناصر من حماة الى « بارين » ، وفيها نائب عز الدين ابن الزعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها الى أن سلمها واليها اليه بالأمان ، فعاد الى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه اسد الدين ، وعاد الى دمشق .

وخرج سيف الدين غازي صاحب الموصل ، في سنة احدى وسبعين وخمسمائة . وسار الى «نصيبين» ، واستنجد صاحب «حصن كيفا» وصاحب «ماربين» ، فاجتمع معه عسكر كثير بلغت عدتهم ستة آلاف فارس ، وأقام بنصيبين حتى خرج الشتاء ، فضجرت العساكر وفنيت نفقاتهم . (٢٩١)

ثم سار الى حلب ، فعبر ب «البيرة» وخيم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كمشتكين والملك الصالح ، لتستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين اليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، فسار ووصل الى حلب .

وخرج الملك الصالح للقاءه بنفسه ، فالتقاه قريب «القلعة» واعتنقه ، وضمه اليه ، وبكى ، ثم امره بالعود الى القلعة فعاد ، وسار هو فنزل «بعين المباركة» (٢٩٢) ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب تخرج الى خدمته في كل يوم ، وصعد الى قلعة حلب جريدة ، وأكل فيها شيئا ، ونزل ، وسار منها الى «تل السلطان» ، (٢٩٣) ومعه عسكر حلب ، مضافا الى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجل ادعى أنه المنتظر ، وادعى النبوة «بجبل ليلون» ، واستغوى اهل تلك الناحية ، وأظهر لهم زخارف ، ومحالا ، وقال لهم: «اذا جاء العسكر اليكم ، فسوف ارميهم بكف من تراب فأهلكهم». وأغاروا على «تركمان» «بجبل سمعان» وكان مقيما باتباعه «بكفرند» ، فخرج «طمان» من العسكر ، وسعد الدين كمشتكين بجماعة من العسكر ، ووصلوا اليهم ، فجعل اتباعه يصيحون : «وعدك با مولانا!» والسيف يعمل فيهم ، فألقى التراب ، فزحف اليه العسكر ، وقتل الرجال وسبى النساء ، والتجأ جماعة الى المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكر الى «تل السلطان» ، بعد ان قتل وصلب . (٢٩٥)

وكان الملك الناصر بدمشق في قل من العسكر ، لأنه كان قد سيرها الى مصر ، وأنفذ اليها يستدعيها ، فلو عاجله سيف الدين لبلغ منه غرضاً ، لكنه تأخر ، فوصل عسكر مصر الى الملك الناصر .

فسار من دمشق الى ناحية حلب ، ليلقى سيف الدين ، فالتقاه «بتل السلطان» ، وكان «سيف الدين» قد سبقه الى تل السلطان ، فوصل الملك الناصر العصر ، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا ، فألقوا نفوسهم الى الأرض ليس فيهم حركة .

فأشير على سيف الدين بلقائهم في تلك الحالة ، فقال زلفندار: «ما بنا حاجة الى القتال في هذه الساعة ، وغدا بكرة نأخذهم كلهم» ، فترك القتال الى الغد ، فلما أصبحوا اصططفوا للقتال ، فجعل «زلفندار» الأعلام في وهدة من الأرض ، لا يراها الا من هو قريب منه فلما التقى الفريقان ، ظن أكثر الناس ان سيف الدين قد انهزم ، لأنهم لم يروا الأعلام ، فانهزموا بعد ان كان مظفر الدين بن زين الدين - وهو في الميمنة - قد كسر ميسرة الملك الناصر ، وولوا الأدبار ، وأسر منهم جماعة فأطلقهم الملك الناصر ، منهم : فخر الدين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبع العسكر ، فلم يقتل غير رجل واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوال ، سنة احدى وسبعين وخمسمائة .

ونزل الملك الناصر وعسكره ، في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها ، وفرق الاصطبلات والخزائن ، ووهب خيمة سيف الدين عز الدين فروخ شاه ، ووصل سيف الدين الى حلب ، وترك أخاه عز الدين في جماعة من العسكر ، وعبر الفرات ، وسار الى الموصل .

ووصل الملك الناصر الى حلب ، يوم الأحد ثالث عشر شوال ، فأقام عليها أربعة أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن

عشر شوال فنزل بزاعا (٢٩٦) فحصرها ، وتسلمها يوم الاثنين العشرين من شوال ، ورحل فنزل منبج ، فحصرها ، في التاسع والعشرين من شوال ، وبها قطب الدين ينال بن حسان ، وكان شديد العداوة للملك الناصر ، وكان قد حذق عليه لذلك ، فملك المدينة ، ونقبت القلعة ، فحصره بها ، ونقبها النقادون ، وملكها عنوة ، وأخذ كل ما كان فيها ، وأخذ صاحبها أسيرا ، ثم أطلقه ، فسار الى الموصل ، فأقطعه سيف الدين «الركة».

ورحل الملك الناصر الى «عزاز» فنازلها ثالث ذي القعدة وحصرها ونصب عليها المنجنقات .

وجلس يوما في خيمة بعض امرائه ، ويقال له «جاولي» مقدم الاسدية ، فوثب عليه باطني ، فجرحه بسكين في رأسه ، فرد المغفر عنه ، وأمسك الملك الناصر يدي الباطني بيديه ، الا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية ، بل يضرب ضربا ضعيفا ، فبقي الباطني يضربه بالسكين في رقبتيه ، وكان عليه كزاغند (٢٩٧) ، فكانت الضربات تقع في زيقه ، والزرد يمنعه من الوصول . وجاء «سيف الدين يازكج» فأمسك السكين ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها من يده الى ان قتل . وجاء باطنيان آخران فقتلا .

وركب الملك الناصر الى خيمته ، ولازم حصار عزاز ، حتى تسلمها بعد قتال شديد ، في بكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجة . ورحل عنها إلى « مرج دابق » .

ثم سار فنزل حلب ، يوم الجمعة ، منتصفاً ذي الحجة ، وحصرها ، وبها جماعة من العسكر ، ومنع أهل البلد الملك الناصر من التقرب الى البلد ، وكانوا يخرجون الى خيم المعسكر فيقاتلوه ، واذا مسك واحد منهم شرحت قدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفون عن القتال ، وقام في نصرته السنة والشيعة من الحلبيين ، وأعطى الشيعة «الشرقية» في المسجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصلاة .

واتفق ان الحلبيين اجتمعوا تحت القلعة ، شاكين في السلاح ، يستأذنون الملك الصالح في الخروج الى قتال العسكر ، فدخل رسول من الملك الناصر ، يقال له «سعد الدين ابو حامد العجمي الكاتب» ، فصاح عوام الحلبيين: «ما نصالح يا رسول ، رح ، ودع عنك الفضول» . ورجموا به بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه الى قريب من الخيام .

ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح بين الملك الصالح ، وسيف الدين صاحب الموصل ، وصاحب الحصن ، وصاحب مارين ، وبين الملك الناصر ، وتحالفوا ، واستقرت على ان يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر ، واستقر الصلح ، ورحل الملك الناصر ، في السادس عشر من محرم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرر الصلح ، أخرج الملك الصالح الى الملك الناصر اخته بنت نور الدين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحمل لها شيئاً كثيراً ، وقال لها: «ما تريدين؟» قالت: «أريد قلعة عزان» - وكانوا قد علموها ذلك - فسلمها إليهم .

ورحل الى بلد «الاسماعيلية» (٢٩٨) ، وحصرهم ، ثم صالحهم بوساطة خاله محمود بن تكش ، وسار بعساكره الى مصر ، وكان في شروط الصلح ان يطلق عز الدين جورديك ، وشمس الدين علي بن الداية ، وأخواه ، سابق الدين ، وبيدر الدين ، فسار أولاد الداية الى الملك الناصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم ، وأما جورديك ، فأقام في خدمة الملك الصالح ، وعلم الجماعة براءته مما ظنوا به .

وعصى غرس الدين قلج في «تل خالد» (٢٩٩) لأنه نسب اليه امرأ وجب وحشته ، فحصل فيها بماله ، وحصنها ، فخرج اليه سعد الدين كمشتكين بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدة ، فسير واستشفع بالملك الناصر ، فشفع فيه الى الملك

الناصر ، فقبـل الشـفاعة وامنه ، فخرج بمـاله وأهله ، وحاشيته ، ومضى الى منبـج ، فنزل بهـا عند «الدويل» ، وكان الملك الناصر قد اقطعه اياها ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السنة ، أظهر اهل «جبـل السـماق» الفسق والفجور ، وتسموا بالصفاة ، واختلط النساء والرجال في مجالس الشرب ، ولا يمتنع احدهم من اخته ولا بنته ، ولبس النساء ثياب الرجال ، واعلن بعضهم بأن «سنان» ربه ، فسير الملك الصالح اليهم عسكر حلب ، فهربوا من «الجبل» وتحصنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل «سنان» ، وسأل فيهم ، وأنكر حالهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وانهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سعد الدين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكر عنهم (٣٠٠) .

وشرع «سنان» في تتبع المقدمين منهم ، فأهلكهم ، وكان في «الباب» منهم جماعة فثار بهم «البنوية» (٣٠١) من اهل ذلك البلد ، وقاتلوهم من التركمان ، فانهزموا واختبئوا في المغاير ، فنهبوا دورهم ، وعروا نساءهم ، وبخنوا عليهم في المغاير ، وقتلوا من امكنهم قتله .

ثم ان الاسماعيلية قفزوا على الوزير شهاب الدين أبي صالح بن العجمي ، يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان السبب في ذلك أن أبا صالح كان يواطىء المجاهد «اللالا» وجمال الدين شاذبخت ، على سعد الدين كمشتكين ، ويحاولون حطه عن مرتبته ، فعلم كمشتكين ذلك ، فكتب كتابا الى «سنان» مقدم الاسماعيلية «بالحصون» ، على لسان الملك الصالح ، يلتمس منه قتل أبي صالح ، واللالا ، وشاذبخت ، وكان قد احضر الكتاب إلى الملك الصالح ، وهو خارج الى الصيد ، وطلب خطه ، وهو أبيض ، لم يكتب فيه شيء أصلا ، وقال له : «المولى خارج ويحتاج ان يكتب كتابا في امر كذا وكذا ، فيكتب المولى علامته» . فكتب ثقة بأن الامر كما ذكر .

فكتب كمشتكين الى «سنان» بالامر الذي اراده ، وسيره
إليه ، فلم يشك «سنان» في أن الامر وقع من الملك الصالح ، ليستقل
بأموره وملكه ، فندب جماعة لقتل المذكورين ، فوثبوا على شهاب
الدين أبي صالح عندما خرج من باب الجامع
الشرقي (٣٠٢) ، بالقرب من «خانكاه القصر» (٣٠٣) ، وتعلق
بنيل «بغلثاقه» (٣٠٤) ، ليضربه بالسكين ، فرفس اللالا
الفرس ، وخرج من «البغلثاق» ، فنجأ ، وأحاط الناس بالجماعة
الذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يترددان الى «ركابدار»
(٣٠٥) اللالا ، فقتل احدهما وصلب ، وصلب الركابدار
ايضا ، وكتب على صدره : «هذا جزاء من يؤوي الملعنة».

وأما الآخر ، فصعدوا به الى القلعة ، فضرب ضربا
عنيفا ، ووثب كعبه ، ليقرر على السبب الذي أوجب ووثبهم ، فقال
للك الصالح : «انت تبعث كتبك الى مولانا سنان بقتل من أمرنا
بقتله ، ثم تذكر فعل ذلك؟» فقال: «ما أمرت بشيء» . وكتب إلى
«سنان» يعتب عليه فيما فعل بأبي صالح واللالا ، فقال: «أنا ما
فعلت شيئا الا بأمرك وخطك» . وسير اليه كتابا فيه علامته بقتل
الثلاثة المذكورين ، فعلم أن ذلك كان مكيدة من كمشتكين .

وكان الاسماعيلية قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدروا على
الوثوب عليه ، لشدة احتزازه في القلعة ، فعند ذلك وجداء
كمشتكين طريقا للطعن عليه ، وقالوا: «انما اراد قتل هؤلاء ليستقل
بملكك ، ويفعل فيه ما لا يقدر ان يفعله معهم ، وانه قد
استصغرك ، واحتقر امرك».

وكانت حارم لسعد الدين كمشتكين ، أقطعه إياها الملك
الصالح ، حين أخذها من بدر الدين حسن ، فأنهاى الى الملك
الصالح أن سعد الدين يريد أن يسلمها إلى الفرنج ، لأن أصله
فرنجي ، وانه قد قرر معهم ان يبيعها عليهم بمال وافر ، والدليل
على صدق ذلك أنه اطلق البرنس «ارناط» فقطع الطريق

بالكرك ، وسير أمواله من حلب وغيبها ، وكتب اليه رجل من الفرنج يقال له : الفارس «بدران» بشيء من ذلك ، وبعث بعدة كتب من سعد الدين الى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعله وضع ذلك كله عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقبض الملك الصالح على سعد الدين ، في التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستورا إلى حارم ، وطلب تسليمها منه ، فامتنع فحمل اليها تحت «الدوطة» ، وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذب ، فاستدعى بعض من يثق اليه من المستدفظين بالقلعة ، وأسر إليهما (٣٠٦) أنهم لا يسلمونها ، ولو قطع ، ثم قال لهما جهرا ، «بعلامة كذا وكذا ، سلموا » فصعد الى القلعة ، وأظهر من فيها العصيان والمقاتلة ، فعذب عذابا شديدا ، وعلق برجليه ، وسقط بالخل ، والكلس ، والدخان ، وعصر ، وأصحابه يشاهدونه ، ولا يجيبون إلى التسليم .

وخرج الفرنج من «أنطاكية» ، يطلبون «حارم» ، فتقدم الملك الصالح بخندق كمشتكين ، فخذق بوتر ، وأصحابه يشاهدونه ولا يسلمون ، وكسروا يديه وعذقه ، ورموه الى خندق «حارم» ، فحين علم الفرنج ذلك ساروا الى شيزر .

وبخل الملك الصالح الى حلب ، وخلف العسكر بأرض «عم» (٣٠٧) «وجاشر» ، حول حارم ، يمنعونها من الفرنج ، ويباكرونها كل يوم لطلب التسليم ، ومقدم العسكر «طمان بن غازي» - وكان من أكبر الأمراء .

وعاد الفرنج الى حماة فحاصروها ، ولم يظفروا بطاؤل ، وطمعوا في حارم ، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظنوا ان الملك الصالح صبي ، وعسكره قليل ، والملك الناصر بمصر ، فلا ينجدهم الا بعد ان يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير من

الفرنجة ، كان قد خرج من البحر الى الساحل ، يقال له كند كبير «فلنط لماني» (٣٠٨) ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ، حيث لم يسلموها الى الملك الصالح .

وحصرها الفرنجة ، وضايقوها بالمجانيق والصلالم ، فصاح من فيها : «صلاح الدين يا منصور! فأحضروا خيمة ، كانوا اخذوها من خيم الملك الناصر في كسرة «الرملة» في هذه السنة (٣٠٩) ، واخبروهم بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بازائهم من «عم» الى تيزين (٣١٠) .

وبخلت سنة اربع وسبعين: والفرنجة مجدون على قتال «حارم» ، ونقبوا في تل القلعة ، من جهة القبلة نقبا ، ومن جهة الشمال آخر ، فانهد السور على من تحته ، وهو موضع البغلة ، التي جدها السلطان الملك الظاهر - قدس الله روحه .

وامتنع القتال من تلك الناحية ، خوفا من وقوع شيء آخر فأخرج المسلمون رجلا من عندهم الى «طمان» ، يطلب الامان من الملك الصالح والنجدة ، فسير الى الملك الصالح ، واعلمه .

فانتخب الملك الصالح رجلا اجلادا من الحلبيين ، اعطاهم مالا جزيلا ، وقال لهم: «اريد منكم ان تدخلوا قلعة حارم» ، فجاءوا ، والفرنجة محدقون بها ، في الليل ، فسلخوا خيامهم مفرقين ، حتى جاوزوها ، وصاحوا بالتكبير والتهليل ، وصعدوا القلعة ، وصار فيها شوكة من المقاتلة ، بعد ان كان قتل من المسلمين بها رجال عدة ، والمسلمون - اعني عسكر حلب - اذ ذاك حول الفرنجة جرايد ، واثقالهم «بدير سمعان» ، وهم يتحفظون من يمكنهم أخذه من الفرنجة ويحفظون اطراف البلد .

وسار العسكر عند ذاك الى «دير أطمعة» (٣١١) ، وصادفوا

الفرنج في وطاة «أطمة» فحملوا عليهم ، فانهزموا وقتل من
الفرنج ، واسر جماعة ، فدام حصار الفرنج أربعة أشهر ، وأرسل
الملك الصالح اليهم ، وقال : «إن الملك الناصر واصل الى
الشام ، وربما يسلم من بشارم اليه قلعتها ، ويضحي في
جواركم ، وبذل لهم مالا بمقدار ما انفقوا مدة حصارهم
لها ، وانتظم الصلح ، ورحلوا .

وخرج الملك الصالح ، فنزل على «حارم» ، فسلمها إليه أصحاب
كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولى فيها «سرخك» جمدار
(٣١٢) أبيه نور الدين ، وبخل حلب وطالب نواب كمشستكين
بماله ، واعتقل ابن التنبى وزيره ، فأحضر بعض المال ، وعذب
حتى أحضره ، ثم هرب من الاعتقال .

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، سعى جماعة بالقاضي
محيي الدين أبي حامد بن الشهرزوري ، قاضي حلب وقدحوا فيه
عند جمال الدين شاذبخت ، وأوهموه انه يميل الى الملك
الصالح ، ووضعوا على لسانه أشعارا نسبوها إليه ، فأوجب ذلك
استيحاشه ، وتوجه الى الموصل ، وعرض القضاء على عمي «أبي
غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرانة» فامتنع ، فقلد والذي
القضاء بحلب وأعمالها ، وبقي على قضائها الى ان مات الملك
الصالح وفي دولة عز الدين وعماد الدين ومدة من دولة لالسلطان الملك
الناصر .

وقبض الملك الصالح قرية للاسماعيلية تعرف بحجير من ضياع
نقرة بني اسد ، فكتب «سنان» الى الملك الصالح كتباً عدة في
اطلاقهم ، فلم يطلقها ، فأرسل جماعة من الرجال معهم النفط
والنار ، فعمدوا الى الدكان التي في رأس «الزجاجين» من الشرق في
القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائب رئيس البلد بمن معه في المربعة ، والجماعة المرتبون

لحراسة الأسواق ، وأخذوا السقائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الاسماعيلية من أسطحة الأسواق ، وألقوا النار والذفت في الأسواق ، فاحترق سوق البز الكبير وسوق العطارين ، وسوق مجد الدين ، المعد للبز ، وسوق الخليع ، وسوق الشراشين - وهو الآن يعرف بالكتانيين - وسوق السراجين ، والسوق الذي غربي الجامع ، جميعه ، الى أن انتهى الحريق الى المدرسة الحلاوية (٣١٣) .

واحترق للتجار والسوقية ، من القماش والآلات شيء كثير ، واقتدر كثير منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيلية بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ومات سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، ووليها اخوه عز الدين مسعود ، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان الملك الصالح في هاتين السنتين رخي البال ، مستقرا في مملكته ، سالكا في الاحسان الى اهل حلب طريق أبيه عفيف اليد والفرج واللسان ، فقدر الله تعالى أن حضر أجله ، وله نحو من تسع عشرة سنة ، (٣١٤) فمرض بالقولنج ، واشتد مرضه .

فدخل اليه طبيبه «ابن سكرة اليهودي» ، وقال له سرا : «يا مولانا شفاؤك في الخمر ، فإن رأيت أن تأذن لي في حملي في كمي ، بحيث لا يطلع اللالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحد من خلق الله علي ذلك » ، فقال : «يا حكيم ، كنت والله أظنك عاقلا ، ونبيينا صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله لم يجعل شفاء امتي فيما حرم عليها . (٣١٥) وما يؤمنني ان أموت عقيب شربها - فألقى الله ، والخمر في بطني ، والله لو قال لي ملك من الملائكة : إن شفاؤك في الخمر لم استعملته » .
حكى لي ذلك والدي عن ابن سكرة الطبيب .

ولم أيس من نفسه أحضر الأمراء والمستحفظين ، وأوصاهم

بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك ، فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك ايضا ، وهو زوج اخذك ، وكان والدك يحبه ويؤثره ، وهو تولى تربيته ، وليس له غير سنجار ، فلو أعطيته البلد لكان أصلح ، وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ، ولا حاجة له الى بلدك » ، فقال له: «إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم ان صلاح الدين ، قد تغلب على البلاد الشامية ، سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام ، وأن سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلايه » . فاستحسنوا هذا القول منه ، وعجبوا من حسن رأيه مع شدة مرضه ، وصغر سنه .

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بقلعة حلب ، الى أن ابقت والدته «الخانكاه» تجاه القلعة ، ونقل اليها في ايام ، فسير الامراء (٣١٦) . جورديك ، والبصيري ، ويزغش ، وجمال الدين شاذبخت ، الذوريون ، مع جماعة المماليك الذورية ، الى «عز الدين» ، يستدعونه ، وجددوا الايمان فيما بينهم له .

وأما علم الدين سليمان بن جندر ، وحسام الدين طمان بن غازي ، وأهل الحاضر ، فانهم راسلوا «عماد الدين» صاحب سنجار ، وكتبوا أمرهم ، و«شاذبخت» هو والوالي بالقلعة ، والحافظ لخزانتها ، والمدير للأمور مع «الذورية» ، فسير الى علم الدين سليمان ، وحسام الدين طمان ، وطلب منهما الموافقة في اليمين لعز الدين ، فماطلا ، ودافعا ، فلما تأخر وصول «عماد الدين» عليهما ، وافقا على اليمين لعز الدين .

ولما وصل رسول الأمير الى عز الدين ، سار هو ومجد الدين قايماز الى الفرات ، فنزل على «البيرة» ، ووصل شهاب الدين - أخو عماد الدين - مخفيا ، واجتمع بطمان وابن

جنذر ، وأعلمهما ان «عماد الدين» في بعض الطريق ، فأخبروه بأخذ
اليمين عليهم ، وأن تربصه بالحركة احوجهم الى ذلك ، فعاد اليه
أخوه وعرفه ، فعاد الى بلاده .

وأما «عز الدين» ، فحين وصل الى «البيرة» أرسل الى الامراء
الذين بحلب ، واستدعاهم اليه . فخرجوا والتقوا به
«بالبيرة» ، وساروا معه الى حلب ، وبخلها في العشرين من
شعبان ، واستقبله مقدموها ورؤساؤها ، وصعد الى القلعة .

وكان «تقي الدين عمير» - ابن أخي الملك
الناصر - بمنبج ، فعزم على ان يحوّل بين «عز الدين»
وحلب ، حين وصل الى «البيرة» لانه وصل جريئة ، وتخلف عنهم
الغلمان والحشد ، ثم انه ثقاقل هو وأصحابه عن ذلك .

ولما وصل «عز الدين» الى حلب ، سار تقي الدين من منبج الى
حماة ، وثار اهل حماة ، ونادوا بشعار «عز الدين» ، فأشار عسكر
حلب على عز الدين بقصدها ، وقصد دمشق ، وأطعموه فيها وفي
غيرها من الشام ، وأعلموه محبة اهل الشام لاهل بيته .

وكان «الملك الناصر» بالليار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا
يمين ، ولا نغدر به» ، ولما بلغ «الملك الناصر» اخذ عز الدين حلب
قال : «خرجت حلب عن أيدينا ، ولم يبق لنا فيها طمع» .

وأقام عز الدين بحلب ، فسير إليه أخوه «عماد الدين زنكي بن
مودود» ، وقال : «كيف تختص انت ببلاد عمي وابنه
وبأمواله ، دوني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه» وطلب منه تسليم حلب
إليه ، وأن يأخذ منه «سنجار» عوضا عنها .

فامتنع «عز الدين» ، ولم يجبه الى ما أراد ، فأرسل اليه وهدده
بأن يسلم «سنجار» الى «الملك الناصر» فيضايق الموصل بها ،
فأشار عليه طائفة من الامراء ، بأخذ «سنجار» منها واعطائه

حلب ، وكا أشد الناس في ذلك «مجاهد الدين» ، وهو الذي كان يقول تدبيره ، وكان أمراء حلب لا يلتفتون الى «مجاهد الدين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكه عسكر الموصل ، فلذلك ميل «عز الدين» الى ذلك .

وشرع «عز الدين» في الميل الى الأمراء ، الذين حلفوا له أولا ، والاعراض عن الذين مالوا الى اخيه «عماد الدين» ، وأحسن الى اهل حلب ، وخلق عليهم ، وأجراهم على عادتهم في أيام عمه «نور الدين» ، وابنه «الملك الصالح» ، وأبقى قضايتها والذي ، وخطيبها عمي ، ورئيسها «صفي الدين طارق بن الطريرة» على ولاياتهم ، وولى بقلعة حلب «شهاب الدين اسحق بن أميرك» الجاندار (٣١٨) صاحب الرقة ، وأبقى «شهاب» «شاذبخت» في القلعة ناظرا معه ، وولى مدينة حلب والديوان مظفر الدين بن زين الدين .

وكان الصلح قد انفسخ ، بموت الملك الصالح ، بين الفرنج والمسلمين ، وكانت «شيخ الحديد» (٣١٩) مناصفة بين المسلمين والفرنج ، فأضافها عسكر حلب ، قبل وصول عز الدين الى «الدريساك» (٣٢٠) ، واختصوا بها دون الفرنج ، وحضر اهلها الى طمان ، فأعطاهم الأمان .

فلما وصل «عز الدين» سير العساكر الى ناحية «حارم» ، وحاولوا نهب «العمق» ، فأنحاز اهل كله الى «شيخ» لعلمهم بأن «طمانا» أمنهم ، فأراد عساكر الموصل ان ينهبوها ، فقال لهم: «ان شيخ لحلب ، وانهم في امانى» . فلم يلتفتوا الى قوله ، وسار واليهما ليلا ، فسبقتهم الى «المخاض» ، ووقف في وجوههم يربهم ، فقتل منهم جماعة ، ثم تكاثروا وعبروا ، فسبقتهم طمان الى «شيخ» ، وأمرهم ان يجعلوا النساء في المغائر ودربها .

فوصل عسكر الموصل ، فـراوا ذلك ، فــزموا على القتال ، فصاح طمان: «اذا كنتم تخفرون ذمتي ، فأنا أرحل الى الفرنج» . وسار في اصحابه الى ان قرب من «يغرا» ، فوصله من اخبره بأنهم عادوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلا ، وخافوا من ملامة عز الدين ، فعاد «طمان» ، ونزل كل منهم في خيامه «بحارم» .

وكاتب المواصلة «عز الدين» يطعنون على «طمان» ، وأنه وافق اهل «شيخ» في العصيان ، وأراد اللحاق بالفرنج ، فأحضر «طمان» والمواصلة ، وتقابلوا بين يديه ، فقال عز الدين : «الحق مع حسام الدين ، ولا يجوز نقض العهد لواحد من المسلمين» . وكان ذلك في شهر رمضان من السنة .

وبقيت المواجهة بين امراء حلب والمواصلة ، والحلييون لا يرون التغاضي لمجاهد الدين ومجاهد الدين يحاول ان يكونوا معه كأمرء الموصل ، والأمراء الحلييون يمدون عليه ، بأنهم اختاروه لهذا الامر ، ويطلبون منه الزيانة ، ويختلق المواصلة عليهم الاكائب .

فهرب الأمير علم الدين سليمان بن جندر ، قاصدا «الملك الناصر» الى مصر ، فقالوا لعز الدين: «ان طمانا سيهرب بعده ، فأمر عز الدين مظفر الدين بن زين الدين ، وبني الغراف ، والجراحي وغيرهم ان يمدوا من «السعدي» الى «المباركة» في طريقه ، وان يقف جماعة حول دار «طمان» - وكان يسكن خارج المدينة - فلما لم يجر من «طمان» شيء من ذلك ، جاؤوا إليه نصف الليل ، وطلبوه ، فخرج اليهم ، فوجد ابن زين الدين وبني الغراف ، فسألهم عما يريدون ، فقالوا: «انه انهي الى عز الدين بأنك تريد الهرب ، وقد أمرنا بأن نعوقك» فقال: «والله ما لهذا صحة ، ولو اردت المسير عن حلب لمضيت ، لا على وجه الخفية ، ولا أخاف من أحد» .

أمره الى الوالي بالقلعة : شهاب الدين اسحق ، وسلم البلد والعسكر الى مظفر الدين بن زين الدين ، وسار الى الرقة ، سادس عشر شوال ، فأقام بها فصل الربيع .

وراسل اخاه «عماد الدين» ، في المقيضة «بسنجار» ، ليتوفر على حفظ بلاده ، ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه انه يحتاج الى الاقامة بالشام ، لتعلق اطماع «الملك الناصر» بحلب ، وقدم عليه أخوه . واستقرت المقيضة على ذلك ، وتحالفا على ان تكون حلب وأعمالها لعماد الدين و«سنجار» وأعمالها لعز الدين ، وأن كل واحد منهما ينجد صاحبه ، وأن يكون «طمان» مع عماد الدين ، فسير «طمان» ، وصعد الى قلعة حلب ، وكان معهم علامة من عز الدين ، فتسلمها ، وسير عز الدين من تسلم سنجار .

وفي حال طلوع «طمان» ، ونقل الوالي متاعه ، طمع «مظفر الدين بن زين الدين» بأن يملك القلعة ، ووافق جماعة من الحلبيين كاندوا بقربه ، في الدار المعروفة بشمس الدين علي بن الداية وجماعة من الأجناد ، ولبس هو زربية ، تحت قبائه ، وألبس جماعة من اصحابه الزرد تحت الثياب ، ومع كل واحد منهم سيف ، وأرسل الى شهاب الدين ، وقال له: إنه وصلني كتاب من اتابك عز الدين ، وأمرني أن أطلع في جماعة اليك ، فأمره بالصعود .

وكان «جمال الدين شاذبخت» ، في حوش القلعة الشرقي ، الذي هدمه الملك العادل - وكان بين الجسرين اللذين جدهما السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - وعمل مكان ذلك الحوش بغلة (٣٢٢) - فرأى الجند مجتمعين تحت القلعة ، فسير «شاذبخت» ، وأحضر بوابا كان للقلعة ، يقال له «علي بن منيعة» وكان جلدا يقظا ، وأمره بالاحتراز .

فلما ان أراد أن يدخل من باب القلعة ، تقدم إليه ، وقال له: «لا تدخل إلا أنت وحدك» . وكان في ركابه جماعة فمنعواهم ، فلم يتم له ما أراد .

وعاد ابن زين الدين الى داره ، وقيل إن ابن مقبــــــــــــل
الاسبسلار ، قال له: «أنت تصعد الى القلعة ، فما هذا الزرد
عليك؟» فعاد ، وجعل يعتذر عما شاع في الناس من فعله .

وكتب شهاب الدين الوالي وجمال الدين شاذبخت الى عز الدين
كتابا بخط «حسين بن يلدك» ، إمام «المقام» . وأخذ تحته خطوط
الاجناد ، والنقيب والاسبسلار ، فلم يمكن «عز الدين» مكاشفته في
ذلك ، لقرب «الملك الناصر» من البلاد .

وبعث «مظفر الدين» الى «عز الدين» يعتذر ، ويقول: «إن
الاسماعيلية أوعدونني القتل ، وما أمكنني الا الاحتـزار
بالسلاح ، أنا ومن معي ، وأذكر الحفظة بالقلعة ذلك علي ، ولم يكن
ذلك لأمر غير ما ذكرته» . فلم يقابله على ذلك .

وأما «طمان» ، فإنه قبض على الجماعة الذين كانوا
معه ، وحبسهم في القلعة ، واطلع على ما كانوا اضمروه ، وأطلقهم
في اليوم الثاني ، وستر هذا الأمر .

ثم وصل قطب الدين ابن عماد الدين الى حلب ، ثم ورد أبوه
«عماد الدين» ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور
الدين ، ووصل على البرية من جهة «الأحص» (٣٢٣) والتقاء
الأكابر من الحلبيين ، وصعد الى قلعة حلب ، في ثلاث عشر
المحرم ، من سنة ثمان وسبعين وخمسائة ، وقيل في مستهله .

وولى القلعة «عبد الصمد بن الحسن الحــــــــــــكــــــــــــاك
الموصلي» ، والعسكر ، والخزائن ، والنظر في احوال القلعة الى
مجاهد الدين بـزغش ، وأنزل «شاذبخت» مــــــــــــن
القلعة ، والقضاء ، والخطابة ، والرئاسة ، على ما كان عليه ، في
أيام أخيه وابن عمه .

وولى الوزارة «بهاء الدين أبا الفتح نصر بن محمد بن

القيسراني « ، أخا «موفق الدين خــــــالد» - وزير نور الدين - واستمر الشيعة في أيامــــه ، وأيام أخيه ، على قاعدتهم ، التي أقرهم عليها «الملك الصالح» ، من إقامة شعارهم بالشرقية ، بالمسجد الجامع .

وأبقي «سرخك» في حارم على ما كان عليه . وحكم «شاذبخت» في عزاز وقلعتها - وهو وكيل عن ابنة نور الدين التي أطلقها الملك الناصر لها - وصالح الفرنج .

وجرى في الاحسان الى اهل حلب ، على قاعدة عمه وابن عمه وأخيه ، ولما بلغ الملك الناصر حديث حلب وأخذ عماد الدين إياها ، قال : «أخذنا والله حلب» ، فقليل له : «كيف قلت في عز الدين لما أخذها : خرجت حلب عن أيدينا ، وقلت : حين أخذها عماد الدين : أخذنا حلب؟» فقال : «لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال ، وعماد الدين ، لا مال ولا رجال» !

وخرج «الملك الناصر» ، من مصر في خامس المحرم من هذه السنة ، وخرج الناس يودعونه ، ويسيرون معه ويتأسفون على فراقه ، وكان معه معلم لبعض أولاده ، فالتفت الى بعض الحاضرين ، وأشد :

تمتع من شميم عرار «نجد»
فما بعد العشية من عرار

فأذقبض السلطان ، وتطير ، فقدر انه لم يعد الى مصر ، الى أن مات ، مع طول مدته ، واتساع ملكه في غيرها .

وسار على «أيلة» وأغار على بلاد الفرنج في طريقه ، ووصل دمشق في صفر ، ثم خرج منها الى ناحية «الغور» ، فأغار على ناحية «طبرية» و«بيسان» ، وعاد الى دمشق ، ثم خرج الى «بيروت» ، ونازلها ، واجتمع الفرنج فدخلوها ، فدخل الى

دمشق ، وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج على قتاله ، فجعل ذلك حجة عليهم .

وسار حتى نزل على حلب ، في ثامن عشر من جمادى الاولى ، سنة ثمانى وسبعين وخمسمائة . ونزل على «عين أشمونيث» (٣٢٤) ، وامتد عسكريه حولها شرقا ، وأقام ثلاثة أيام ، فقال له عماد الدين : «امض الى سنجار ، وخذها وادفعها إلي ، وأنا اعطيك حلب» .

وكان «عماد الدين» قد ندم على مقبضه ايضه أخيه بحلب وسنجار ، حيث وصل ووجد خزائنها صافرا من المال ، وقلعتها خالية من العدد والاسلح والآلات ، وأنه يجاور مثل «الملك الناصر» فيها .

فعند ذلك سار «الملك الناصر» الى جسر «البيرة» ، وكان صاحبها «شهاب الدين بن أرتق» قد صار في طاعته ، فعبر اليه مظفر الدين ابن زين الدين الى الناحية الشاميه ، وحران إذاك في يده ، كان أقطعه اياها عز الدين صاحب الموصل ، وحصلت بينه وبينه ودشة من الوقت الذي عزم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانت رساله تتردد الى «الملك الناصر» تطمعه في البلاد ، وتحثه على الوصول .

وعاد ابن زين الدين معه حتى عبر الفرات في جسر «البيرة» ، وكان «عز الدين» قد وصل بعساكر الموصل الى «دارا» (٣٢٥) ليمنع «الملك الناصر» من حلب ، فلما عبر الفرات عاد الى الموصل ، وعبر «الملك الناصر» ، فأخذ «الرها» من ابن الزعفراني ، وسلمها الى ابن زين الدين ، وأخذ الرقة من ابن حسان ، ودفعها الى ابن الزعفراني ، وكاتب ملوك الشرق ، فأطاعوه ، وقصد «نصيبين» فأخذها .

وسار الى الموصل ، وفيها عسكري قوي ، فقتل قتالا شديدا ، ولم يظفر منها بطائل ، فرحل عنها الى «سنجار» فأنفذ

«مجاهد الدين» اليها عسكرا ، فمنعه «الملك الناصر» من الوصول ، وحاصر «سنجار» ، فسلمها اليه امير تلك الناحية ، وصارت «الباشورة» (٣٢٦) معه ، فضعفت نفس واليها «امير اميران» أخي عز الدين ، فسلمها بالامان ، في ثاني شهر رمضان من السنة ، وقرر «الملك الناصر» أمورها ، وعاد الى حران .

ولما قصد «الملك الناصر» البلاد الشرقية ، رأى عماد الدين ان يخرب المعقل المطيفة ببلد حلب ، فشن الغارات على شاطئ الفرات ، وهدم حصن بالس ، وحصر قلعة نادر (٣٢٧) ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشط ، فأخربها واستاق مواشيها ، وأحرق جسر «قلعة نجم» (٣٢٩) ، وعبر الفرات فأغار على «سروج» (٣٣٤)

ثم عاد الى حلب ، ثم خرج وهدم «حصن الكرزين» (٣٣١) وخرب حصن «بزاغا» وقلعة «عزان» ، في جمادى الآخرة ، وخرب حصن «كفرلاثا» (٣٣٢) بعد اخذه من صاحبه بكمش ، وكان قد استأمن الى «الملك الناصر» ، وضاق الحال عليه ، فشرع في قطع جامكية اجناد من القلعة ، وقتل على نفسه في الذفقات .

وأما «الملك الناصر» ، فرحل من «حران» فنزل «بحرزم» (٣٣٣) تحت قلة «ماردين» . فلم ير له فيها طمعا ، فسار الى «أمد» ، في ذي الحجة ، وكان قد وعد «نور الدين محمد بن قرا أرسلان» بأخذها من ابن نيسان (٣٣٤) ، وتسليمها اليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلمها في العشر الاول ، من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وكان فيها من المال شيء عظيم ، فسلم ذلك كله مع البلد الى نور الدين ، وقيل له في أخذ الاموال وتسليم البلد فقال : «ماكنت لاعطيه الاصل وابخل بالفرع» .

ثم إن الملك الناصر عبر الى الشام ، فمر «بتل خالد»

فحصرها ، فسلمها أهلها بالأمان في المحرم . ثم سار منها الى عين
تاب ، وبها «ناصر الدين محمد» أخو «الشيخ اسماعيل
الخرندار» ، فدخل في طاعته ، فأبقاها عليه .

ولما علم «عماد الدين» ذلك ، وتحقق قصده لحلب ، أخذ رهائن
الحلبيين ، وأصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم ، خوفا من تسليم
البلد ، وقسم الأبراج والأبواب على جماعة من الأمراء ، وكان
الأمراء «الياروقية» بها في شوكتهم .

وجاء الملك الناصر ، ونزل على حلب في السادس والعشرين من
محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتد عسكره من «بابلى» الى
النهر ممتدا الى «باسلين» (٣٣٥) ، ونزل هو على «الخانقية»
(٣٣٦) ، وقاتل عسكر حلب قتالا عظيما ، في ذلك اليوم ، وأسر
«حسام الدين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «باندقوسا»
(٣٣٧) ، وهو الذي تولى شحنكية حلب ، فيما بعد .

وهجم تاج الملوك دوري بن أيوب ، أخو «الملك الناصر» ، على
عسكر حلب ، فضرب بنشاب زنبورك (٣٣٨) فأصاب ركبته ، فوقع
في الأكل ، فبقي أياما ، ومات بعد فتح حلب ، ودفن بتربة «شهاب
الدين الحارمي» ، «بالمقام» (٣٣٩) ، ثم نقل الى دمشق .

وجد الملك الناصر ، بسبب أخيه على محاصرة حلب
أياما ، فاجتمع إليه (٣٤٠) الأجناد من العسكر والرجال ، وطلبوا
منه قرارهم فمطلهم ، فقالوا : « قد ذهبنا أخبارنا (٣٤١) ونحتاج
لغلاء الأسرى عار الى مـــــــالا بـــــــد
منه ، وشح بماله ، فقال لهم : «أنتم تعلمون حالي ، وقلة
مالي ، وأنني تسلمت حلب صافرا من الأموال ، وضياعها في
أقطاعكم» . فقال له بعضهم : «من يريد حلب يحتاج الى أن يخرج
الأموال ولو باع حلي نسائه ، فأحضر أواني من الذهب والفضة ،
وغيرها ؛ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ، ويقاثلون أشد قتال بغير جامكية (٣٤٢) ، ولا قرار ، نخوة على البلد ، ومحبة لملكهم ، فأفكر عماد الدين ، ورأى أنه لا قبل له بالملك الناصر ، وأن ماله ينفد ، ولا يفيد شيئا ، فخلا ليلة بطمان ، وقال له:

« ما عندك في أمرنا؟ هذا الملك الناصر ، قد نزل محاصرا لنا ، وهو ملك قوي ، ذو مال ، والظاهر أنه يطيل الحصار ، وتعلم انني اخذت حلب خالية من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته ، ولا أدري عاقبة هذا الأمر الى ما ينتهي

فأحس طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا اذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والایمان ، على أن لا يطلع احد على ما يدور بيننا ، فإن هؤلاء الامراء ان اطلعوا على شيء مما نحن فيه افسدوه ، وانعكس الغرض» ، فتحالفوا على كتمان ذلك ، فقال له طمان: «أرى من الرأي في حلب ان تسلمها الى الملك الناصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهك حرمتها ، ويضعف امرها ، وتفنى الاموال ، وتضجر الرجال ، ويستغل بلدها فيتقوى هو وعسكره به ، ونحن لا نزداد الا ضعفا ، والآن فنحن عندنا قوة ، ونأخذ منه ما نريد من الاموال والبلاد ، ونستريح من الأجناد والحاحهم في الطلب ، ثم قد اصبح ملكا عظيما ، وهو صاحب مصر ، وأكثر الشام ، وملوك الشرق قد اطاعوه ومعظم الجزيرة في يده . فقال له: «والله هذا الذي قلته كله رأيي ، وهو الذي وقع لي فاخرج إليه ، وتحدث معه على ان يعطيني: الخابور ، وسنجار ، وأي شيء قدرت على ان تزداده فافعل ، واطلب الرقة لنفسك

ثم ان طمان كتم ذلك الأمر ، وباكر القتال ، وأظهر أن بداره واصطبله (بالحاضر) خشبا عظيما ، وأنه يريد نقضها كيلا يحرقها العسكر ، فكان يبني كل ليلة في داره ، خارج المدينة .

ويجتمع بالسلطان الملك الناصر ، خاليا ، ويرتب معه ، ويجيء الى عماد الدين ويقرر الحال معه ، وينزل ، ويصعد الى القلعة من «برج المذشار» - وكان عند باب الجبل الآن متصلا بالمذشار - الى ان قرر مع الملك الناصر : ان يأخذ حلب وعملها ، ولا يأخذ معها شيئا من أموالها ، ونخائرها ، وجميع ما فيها من الآلات والسلاح ، وأن يعطي عماد الدين عوضا عنها : سنجار ، والخابور ونصيبين ، وسروج ، وأن يكون لطمان الرقة (٣٤٣) ، ويكون مع عماد الدين .

وشرط عليه ان تكون الخطابة والقضاء الحذفية (٣٤٤) بحلب ، في بني العديم ، على ما هي عليه ، كما كان في دولة الملك الصالح ، وان لا ينقل الى الشافعية .

هذا كله يتقرر ، والقتيال في كل يوم بين العسكرين على حاله ، وليس عند الطائفتين علم بما يجري ، ويخرج من الحلبيين في كل يوم عشرة آلاف مقاتل او أكثر ، يقاتلون أشد قتال .

ولم يعلم أحد من الأمراء ولا من أهل البلد ، حتى صعدت أعلام «الملك الناصر» على القلعة ، بعد أن توثق كل واحد من الملوك من صاحبه بالآيمان ، فأسقط في أيدي أهل حلب والأمراء من «الياروقية» ، وغيرهم ، وخُصاف «الياروقية» على أخبازهم ، والحلبيون على أنفسهم ، لما تكرر منهم من قتال «الملك الناصر» ، مرة بعد أخرى ، في أيام الملك الصالح .

وصرح العوام بسبه ، وحمل رجل من الحلبيين يقال له «سيف بن المؤنن» إجان الغسال ، وصار بها الى تحت الطيارة (٣٤٥) ، بالقلعة ، وعماد الدين جالس بها يشير اليه ان يغسل فيها كالمخانيث ، ونادى اليه : «يا عماد الدين ، نحن كنا نقاتل بلا جامكية ولا جراية ، فما حملك على أن فعلت ما فعلت؟»

وقيل: إن بعضهم رماه بالذشاب ، فوقع في وسط

الطيارة ، وعمـال عوام حلب اشـعـاراً عامية ، كانوا يغنون
بها ، ويدقون على طبيلاتهم بها ، منها:

أحباب قلبي لا تلووموني
هذا «عماد الدين» مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب
وزانه المولى نصيبين
ودق آخر على طبله ، وقال مشيراً الى «عماد الدين»:
وبعت «بسنجار» قلعة حلب
عدمك من بايع مشتري
خریت على حلب خرية
نسخت بها خرية «الاشعري» (٣٤٦)

وصعد اليه «صفي الدين» - رئيس البلد - ووبخه على ما
فعل ، وهو في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقال له عماد الدين:
فما مات ، فاستهزأ به (٣٤٧) .

وأنفذ عسكر حلب وأهلها ، الى السلطان الملك الناصر : عز
الدين جورديك ، وزين الدين بك ، فاستحلفوه للعسكر ولأهل
البلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجت العساكر ومقدمو حلب اليه الى «الميدان الأخضر» (٣٤٨)
وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم .

ولما استقر أمر الصلح ، حضر الملك الناصر صلاح الدين عند
أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يعوده وقال له: «هذه حلب ، قد
أخذناها ، وهي لك» فقال: «لو كان وأنا حي ، والله ، لقد أخذتها
غالية حيث تفقد مثلي» . فبكى الملك الناصر والحاضرون .

وأقام «عماد الدين» بالقلعة ، يقضي أشغاله ، وينقل
أقمشته ، وخزائنه ، والسلطان الملك الناصر مقيم «بالميدان

الاخضر ، ، الى يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر ، فنزل «عماد الدين» من القلعة ورتب فيها «طمان» مقيما بها ، الى ان يتسلم نواب «عماد الدين» ما اعتاض به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا .

ونزل عماد الدين ، في ذلك اليوم الى السلطان الملك الناصر وعمل له السلطان وليمة واحتفل وقدم «لعماد الدين» اشياء فاخرة من الخيل والعدد ، والمتاع الفاخر ، وهم في ذلك إذ جاءه بعض أصحابه وأسر اليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يظهر جـزعا ولا هلعا ، وكتم ذلك عن عماد الدين ، الى ان انقضى المجلس ، وأمرهم بتجهيزه .

فلما انقضى أمر الدعوة ، وعلم عماد الدين بعد ذلك عزاه عن أخيه ، وسار السلطان الملك الناصر معه مشيعا في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قرا حصار» (٣٤٩) فنزل به ، والسلطان في خيمته الى ان وصل «عماد الدين» رسل أصحابه يخبرونه بأنهم تسلموا «سنجار» ، والمواضع التي تقررت له معها ، فرفعت اعلام الملك الناصر ، عند ذلك على القلعة ، وصعد اليها في يوم الاثنين السابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وامتنع سرخك ، والي «حارم» ، من تسليمها الى السلطان الملك الناصر ، فبذل له ما يحب من الاقطاع ، فاشتط في الطلب ، وراسل الفرنج ، ليستنجد بهم ، فسمع بعض الأجناد ، بقلعة حارم ذلك ، فخافوا ان يسلموها الى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحبسوه ، وأرسلوا الى السلطان ، يعلمونه بذلك ، ويطلبون منه الامان والانعام ، فأجابهم الى ذلك وتسلمها .

وأقر عين تاب بيد صاحبها ، وسلم «تل خالد» الى «بدر الدين دلدريم» صاحب «تل باشر» ، وكان من كبار الياقوتية ، واقطع

«عزاز» الأمير علم الدين سليمان بن جندر . وولى الملك الناصر قلعة حلب سيف الدين يازكج الأسدي ، وولى شحنة حلب حسام الدين تميرك بن يونس ، وولى ديوان حلب ناصح الدين بسن العميد الدمشقي ، وأبقى الرئيس «صفي الدين طارق بن أبي غانم بن الطريرة» ، في منصبه على حاله ، وزاد اقطاعه .

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصب ، فما زال به ، حتى نقل الخطابة عن الحنفية الى الشافعية ، وعزل عنها عمي «أبو المعالي» . ووليها «أبو البركات سعيد بن هاشم» ، وفعل في القضاء كذلك ، فسير إلى القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي إلى دمشق ، بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأحضر إلى حلب وولى قضاءها ، وعزل «والدي» عن القضاء ، وامتنحه محيي الدين بن الزكي ، بقصيدة بائية ، قال فيها :

وفتحكم «حلبا» بالسيف في صفر
مبشر بفتوح «القدس» في رجب

فاتفق من أحسن الاتفاقات ، وأعجبها ، فتح القدس في شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدين في القضاء بحلب مدة ، ثم استتاب القاضي زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي في قضاء حلب ، وسار الى بلده دمشق .

ثم إن السلطان «الملك الناصر» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وجعل فيها ولده الملك «الظاهر غازي» - وكان صبيا - وجعل تدبير أمره الى سيف الدين يازكج .

وسار الى دمشق ، ثم خرج الى الغزاة في جمادى الآخرة ، وسار الى «بيسان» ، وقد هرب أهلها ، فخربها ، وجرد

قطعة من العسكر ، فخربوا «الناصر» والفولة» (٣٥٠) ، وما حولهما من الضياع .

وجاء الفرنج فنزلوا «عين الجالوت» ، ودار المسلمون بهم ، وبنوا السرايا في بيارهم ، للغارة والنهب ، ووقع جورنيك ، وجاولي الاسدي ، وجماعة من الذورية على عسكر «الكرك» و «الشوبك» ، سائرين في نجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا مائة نفر ، وعادوا .

وجرى للمسلمين مع الفرنج وقعات ، ولم يتجاسروا على الخروج للمصاف ، وعاد السلطان «الى الطور» (٣٥١) في سابع عشر جمادى الآخرة . فنزل تحت «الجبل» ، مترقبا رحيلهم ، ليجد فرصة ، فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على أعقابهم . ورحل نحوهم ، وناوشهم العسكر الاسلامي ، فلم يخسروا اليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين ، وفرغت أزواد المسلمين ، فعادوا الى دمشق ، وبذل السلطان دمشق ، في رابع وعشرين من جمادى الآخرة .

ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج اليها في رجب ، وكتب الى أخيه «الملك العادل» ، وأمره ان يلتقيه الى الكرك ، وسار السلطان الى الكرك ، وحاصرها ، ونهب أعمالها ، وهجم ربضها ، في رابع شعبان ، وهدم سورها بالمنجنيات ، وأعجزه طعم خندقها ، ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل» ، رحل عنها ، ونزل بازائها (٣٥٢)

ووصل أخوه «الملك العادل» ، من مصر ، وعقد لابن أخيه ، «تقي الدين عمر» ، على ولايتها ، فسار اليها في نصف شعبان .

وعاد السلطان الملك الناصر الى دمشق ، والملك العادل أخوه معه ، فعقد له على ولاية حلب ، وسار اليها في ثاني وعشرين من

شهر رمضان ، وخرج السلطان الملك الظاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل الى والده في شوال .

ويقال إن «الملك العادل» دفع الى السلطان ، لأجل حلب ، ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، وقيل دون ذلك ، وكان السلطان محتاجا اليها لأجل الغزاة ، فلذلك سلم اليه حلب ، وأخذها من ولده .

ولما دخلها «الملك العادل» ، ولى بقلعتها صارم الدين بـزغش ، وولى الديوان والأقطاع والجند ، واسـتـهـدأ الأموال ، وشحنكية البلد : «شجاع الدين محمد بن بـزغش البصراوي» ، واسـتـكـتب الصنيعة ابن النحال - وكان نصرانيا - فأسلم على يديه ، وولى وقوف الجامع فخر الدين أحمد ابن عبد الله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الدائرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وأن لا يتعرض لوقف المسجد الجامع ، بل يوفر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع الى «الزريخاناه» (٣٥٣) إلا ما فضل عن ذلك كله ، وجدد في أيامه مساجد متعددة كانت قد تهدمت.

ووقع في أيامه وقعة بين الحنفية والشافعية ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الأخضر ، وأصلح بين الفريقين ، وخلع على الأكابر من الفقهاء والمدرسين ، وهدم الحوش القبلي الشرقي الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى أن يسفحه فسفحه السلطان الملك الظاهر بعده ، وكتب عليه اسمه بالسواد الى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجدد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضها .

ووصل رسول الخليفة شيخ الشيوخ «صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل» ، الى السلطان «الملك الناصر» ، في الإصلاح بينه وبين عز الدين - صاحب الموصل - وورد معه من الموصل القاضي محيي

الدين أبو حامد بن الشهرزوري ، الذي كان قاضي حلب ثم دولي قضاء الموصل ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الظاهر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظاهر ، ولم يتفق الصلح بينهما (٣٥٤)

وحضرتني حكاية جرت لشيخ الشيوخ مع «محيي الدين» ، في هذه السفرة ، وذلك ان شيخ الشيوخ كان قد وصل الى السلطان «الملك الناصر» ، وهو محاصر للموصل ، ليصلح بينه وبين عز الدين ، في المحاصرة الاولى ، فلم يتفق الصلح ، واتهم أهل الموصل شيخ الشيوخ بالميل مع «الملك الناصر» ، فعمل محيي الدين فيه ابياتا منها:

بعثت رسولا أم بعثت محرصا
على القتل تستجلي القتال وتستحلي؟

وقال فيها مخاطبا للامام الناصر:

فلا تغترر منه بفضل تنمس
فما هكذا كان «الجنيد» ولا «الشبلي» (٣٥٥)

فبلغت الأبيات شيخ الشيوخ.

فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخ الشيوخ:
«كيف تلك الأبيات التي عملتها في؟» فغالطه عنها ، فأقسم عليه بالله ان يذشده اياها ، فذكرها له ، حتى أذشده البيت الذي ذكرناه أولا ، فقال: «والله لقد ظلمتني ، وإنني والله ، اجتهدت في الاصلاح فما اتفق» فأذشده تمامها ، حتى بلغ الى قوله: «فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي» فقال : «والله لقد صدقت ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي ، أدور على أبواب الملوك من باب هذا الى باب هذا».

ثم إن الرسل ساروا عن غير زبدة ، وتوجه الملك العادل من حلب في ذي الحجة ، وعيد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد الى حلب .

واهتم السـلطان الملك الناصر ، في سنة ثمانين وخمس مائة ، لغزاة «الكرك» ، فوصل اليه «نور الدين بن قرا أرسلان» ، واجتاز بحلب ، فأكرمه «الملك العادل» ، وأطلعه الى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه الى دمشق ، فخرج السلطان ، والتقاءه على عين الجر (٣٥٦) ، «بالبقاع» ، ثم تقدم الى دمشق وتجرد وتأهب للغزاة ، وخرج الى «الكرك» ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقي الدين ابن أخيه ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم الى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدثت العساكر بها ، وهجموا الربض ، وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعا على سطح جبل ، وسدوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس (أرناط) ، فكتب من فيها الفرنج ، فوصلوا في جمـوعهم الى مـوضع يعرف «بالواله» (٣٥٧) ، فسير «الملك الناصر» الأتقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنقات .

ورحل عنها في جمادى الآخرة ، وأمر بعض العسكر فدخلوا الى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخرّبوها ، واستنذفوا منها أسرى من المسلمين ، وفعلوا في «سـبسطية» (٣٥٨) و«جينين» (٣٥٩) مثل ذلك ، وعادوا ودخلوا دمشق مع السلطان .

ووصل اليه «شيخ الشيوخ» بالخلع ، من الخليفة الناصر ، له ولأخيه «الملك العادل» ، ولابن عمه ناصر الدين (٣٦٠) ، فلبسوها ، ثم خلع السلطان ، بعد أيام خلعتة الوارثة من الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان .

وورد اليه رسول مظفر الدين بن زين الدين ، يخبره ان عسكر

الموصل ، وعسكر قـزل نزلوا على اربـل ، وأنهم نهبوا وأخربوا ، وأنه انتصر عليهم ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويقوي طمعه ، وبذل له اذا سار اليها خمسين الف دينار ، فعند ذلك هادن الفرنج مدة .

ورحل من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقام بها الى أن خرجت السنة .

وسار منها الى حران والتقاء مظفر الدين بالبيرة ، في المحرم سنة احدى وثمانين ، وعاد معه الى حران ، وطالبه بما بذل له من المال ، فأذكر ، فقبض عليه ، ووكل به .

ثم أخذ منه مدينتي حران والرها ، وأقام في الاعتقال الى مستهل شهر ربيع الأول ثم أطلقه خوفا من انحراف الناس عنه ، لأنهم علموا انه الذي ملكه البلاد الجزرية ، واعاد عليه حران ، ووعده باعادة الرها ، اذا عاد من سفرته ، فأعادهما عليه .

وسار الملك الناصر الى الموصل ، فوصل بلد (٣٦١) ، فنزلت اليه والدة عز الدين ، ومعها ابنة نور الدين ، وغيرها من نساء بني اتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فريهن خائبات ، ظنا منه أن عز الدين أرسلهن عجزا عن حفظ الموصل ، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك .

ورحل حتى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجري القتال بين العسكرين ، وبذل اهل الموصل نفوسهم في القتال لرد النساء ، وندم السلطان على ربهن ، وافتتح تل عفر ، فأعطاهما عماد الدين صاحب سنجار.

وأقام على حصار الموصل شهرين ، ثم رحل وجاءه الخبر بموت شاه أرمن ، وكاتبه جماعة من أهل خلاط ، فترك الموصل طمعا في خلاط ، فاصطلى أهل خلاط مع البهلوان صاحب اذربيجان ، فنزل

السلطان على ميا فارقين ، وكان صاحبها قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمر تاش ، وملك بعده حسام الدين يولق أرسلان ، وهو طفل ، فطمع في أخذها ، ونازلها ، فقتلها من واليها ، وزوج بعض بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان ، ثم عاد الى الموصل عند اياسه من خلاط ، فوصل الى كهرزمار (٣٦٢) ، فسار عائدا الى حران ، واتبعه عز الدين بالقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبهاء الدين الريب ، رسولين اليه في موافقته على الخطبة والسكة ، وأن يكون معه عسكر من جهته ، وان يسلم اليه شهرزور (٣٦٣) وأعمالها ، وما وراء الزاب .

واشتد مرض السلطان بحران في شوال ، وأيس منه ، وأرجف بموته ، ووصل اليه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها ، واستدعى المقدمين من الأمراء من البلاد ، فوصلوا اليه . وعزم الملك العادل على استحلاف الناس لذفسه .

وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعا في ملك الشام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرق على أحداثها مالا ، وسار إلى حمص ، وجرى من بقي الدين بمصر حركات من يريد أن يستبد بالملك .

وتمائل السلطان ، وبلغه ذلك كله ، وأركب ، فـراه الناس ، وفرحوا ، وابتنى دارا ظاهر حران فجلس فيها حين عوفي ، فسميت دار العافية . ولما عوفي رد على مظفر الدين الرها ، وأعطاه سنجقا ، وأحضر رسولي الموصل ، وحلف لهما على ما تقرر في يوم عرفة .

وبلغه موت ابن عمه ناصر الدين ، صاحب حمص ، ورحل عن حران الى حلب ، وصعد قلعتها يوم الأحد ، رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأقام بها أربعة ايام ، ثم رحل الى دمشق ، فلقه «أسد الدين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار الى دمشق .

وسير الى «الملك العادل» ، وطلبه اليه الى دمشق ، فخرج من حلب جريئة ، ليلة السبت الرابع والعشرين ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين . فوصل اليه الى دمشق ، وجرت بينهما أحاديث ، ومراجعات استقرت على أن الملك العادل يطلع الى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكه ، ويسلم حلب الى الملك «الظاهر غازي» ، وينزل الأفضل الى دمشق من مصر ، وينزل تقي الدين أيضا منها .

وكان الذي حمّله على إخراج الملك العادل من حلب أن علم الدين سليمان بن جندر كان بينه وبين الملك الناصر صحبة قديمة ، قبل الملك ، ومعاشرة ، وانبساط ، وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويقدم عليه غيره .

فلما عوفي الملك الناصر سايره يوما «سليمان» ، وجرى حديث مرضه ، وكان قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد ، فقال له «سليمان بن جندر»: «بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأذك كنت خارجا الى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة؟» . قال: «وكيف ذلك؟» - وهو يضحك - . قال:

«إذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه ، قصد أعالي الشجرة ، ليحمي فراخه ، وأنت سلمت الحصون الى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ،

هذه حلب ، وهي أم البلاد بيد أخيك ، وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد ابن أسد الدين ، وابذك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرج متى شاء ، وابذك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد» . فقال له: «صدقت ، وأكتم هذا الأمر» .

ثم أخذ حلب من أخيه ، وأعطاه ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطى

الملك العادل بعد ذلك حران ، والرها وميافارقين ، ليخرجه من الشام ، ويتوفر الشام على أولاده .

فكان ما كان ، وأخرج «تقي الدين» من مصر ، فشوق عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسير الملك العادل «الصنيعة» لاحتضار أهله من حلب وسار «الملك الظاهر» - قدس الله روحه - الى حلب ، وسير في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا» (٣٦٤) ، وولاه قلعة حلب ، وأوصاه بتربية الملك الظاهر ، وأخيه الملك الزاهر ، وحسام الدين بشارة ، صاحب بانياس - وولاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرار «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاء ، في كل شهر أربعة آلاف دينار . وكل يوم قباء وكمه (٣٦٥) ، وعليق دوابه من الأهراء ، وخبزه من الأهراء ، واستمرت هذه الوظيفة ، الى سنة ست وثمانين الى رجب .

فورد كتاب الملك الناصر الى ولده الملك الظاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الاقطاعات ، وأن البلد بلده ، وكان القاضي الزبداني يكتب له ، فلم يعجبه ، فانصرف على حال غير محمودة .

وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرت حكاية مستملحة عنه ، فأثبتها :

أخبرني الزكي احمد بن مسعود الموصللي المقرئ ، قال: كنت أوم بعلم الدين سليمان بن جندر ، فاتفق أن خرجت معه الى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، فقال: كنت ومجد الدين أبوبكر بن الداية والملك الناصر صلاح الدين ، تحت هذه الشجرة ، وذور الدين إذ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج فقال مجد الدين : كنت أتمنى أن نور

الدين يفتح حارم ، ويعطيني إياها ، فقال صلاح الدين: أتمنى على الله مصر ، ثم قالاً لي: تمن أنت شيئاً ، فقلت: إذا كان مجد الدين صاحب حارم وصلاح الدين صاحب مصر ، ما أضيع بينهما ، فقالا: لا بد من أن تتمنى شيئاً ، فقلت: إذا كان ولا بد من ذلك فأريد «عم» .

فقدر الله نور الدين كسر الفرنج ، وفتح حارم ، وأعطاهما مجد الدين ، وأعطاني «عم» . فقال صلاح الدين: أخذت أنا مصر والله ، فإننا كنا ثلثة ، وتمنى «مجد الدين» حارم ، وأخذها ، وتمنى علم الدين «عم» وأخذها . وقد بقيت آمينتي . فقدر الله تعالى: أن فتح أسد الدين مصر ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين وهذا من أغرب الاتفاقات .

وزوج السلطان الملك الناصر ولده «الملك الظاهر» ، في هذه السنة ، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل» . وبخل بها يوم الأربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان . ثم إن السلطان عزم على قصد «الكرك» مرة أخرى فبرز من دمشق ، في النصف من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وسير إلى حلب يستدعي عسكرها ، فاعتاق عليه ، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية» ، وبلاد «ابن لاون» ، وذلك أنه كان قد مات ، وأوصى لابن أخيه بالملك .

وكان الملك المظفر تقي الدين بجماعة ، فسـير إليه السلطان ، وأمره بالدخول إلى بلاد العدو ، فوصل إلى حلب في سابع عشرين محرم ، ونزل في دار «عفيف الدين بن زريق» (٣٦٦) ، وأقام بها إلى أن صالحهم ، في العشر الآخر من شهر ربيع الأول ، ثم سار حتى لحق السلطان ، وأما السلطان فإنه سار إلى رأس الماء (٣٦٧) واجتمعت إليه العساكر الإسلامية من الموصل ، والشرق ، ومصر ، والشام ، «بعثت» ، بعد أن أتمته الأخبار أن البردس «أرناط» يريد الخروج على الحاج ، فأقام قريباً

من «الكرك» مشغلا خاطره ، ليلزم مكانه الى أن وصل الحاج ، وتقدم الى الكرك ، وبث سراياه ، فنهبوا بلدها وبلد «الشوبك» ، وخربوه .

وأرسل الى ولده الملك الافضل ، فأخذ قطعة من العسكر ، فدخل الى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخرج اليهم جمع من الداوية والاسبطارية ، فظفروا بهم ، وقتل منهم جماعه ، وأسر الباقون ، وقتل مقدم الاسبتار .

وعاد السلطان الى العسكر ، وعرض العسكر قلبا وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجاليشية وساقه ، وعرف كلا منهم موضعه ، وسار على تعبئة ، فنزل بالأقحوانة (٣٦٨) بالقرب من طبرية ، وكان القمص صاحبها (٣٦٩) قد انتمى الى السلطان ، لخلف جرى بينه وبين الفرنج . فأرسل الفرنج اليه البطرك والقسوس والرهبان ، وتهنئته بفسخ نكاح زوجته ، وتحريمه ، فاعتذر ، وتنصل ، ورجع عن السلطان اليهم ، ثم ساروا كلهم بجموعهم الى «صفورية» (٣٧٠) .

فرحل السلطان ، يوم الخميس اسبع بقين من ربيع الآخر ، وخلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم الى الفرنج ، فلم يخرجوا من خيمهم ، فنزل ، وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنة الليل ، جعل في مقابلة الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل الى طبرية جريئة ، وقاتلها ، وأخذها في ساعة من نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدموا إلى عساكر المسلمين ، فعاد السلطان الى عسكره ، والتقى الفريقان ، وجرى بينهما قتال ، وفرق بينهما الليل . وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحرض بعضهم بعضا .

فلما كان صباح السبت لخمسة بقين من الشهر ، طلب كل من الأفريقين موضعه ، وعلم المسلمون أن «الأرين» من ورائهم ، وبلاذ القوم بين أيديهم ، فحملت العساكر الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة واحدة ، فهرب القمص في أوائل الأمر نحو «صور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجوا وحده ، فلم يزل سقيما حتى مات في رجب .

وأحاط المسلمون بالباقيين من كل جانب ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينج منهم أحد . واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين - وحطين : قرية عندها قبر شعيب عليه السلام - فضايقهم المسلمون على التل ، وأوقدوا النيران حولهم ، فقتلهم العطش ، وضاق الأمر بهم حتى استسلموا للأسر ، فأسر مقدموهم وهم : الملك كي ، والبرزس أرناط صاحب الكرك وأخو الملك ، وابن الهنفرى ، وأولاد الست (٣٧٢) ، وصاحب جبيل ، ومقدم الداوية ، ومقدم للأسبتار ، وأمم لايقع عليها الاحضاء ، حتى كان الرجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجيا ، في حلقهم حبل .

وأسروا من المصاف ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين الفا من الفرنج ، ما بين رجل ، وامرأة ، وصبي . وقتل من المقدمين وغيرهم خلق لا يحصى ، ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا الى الساحل مثل هذه الواقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصليبوت ، وهو قطعة خشب مغلفة بالذهب ، مرصعة بالجواهر ، يزعمون أن ربهم صلب عليها ، وضربت في يديه المسامير ، أحضروه معهم المصاف تبركا به ، ورفعوه على رمح عال .

فأما مقدم الداوية والأسبتار ، فاختار السلطان قتلهم فقتلوا ، وأما الملك «كي» ، فإنه أكرمه ، وجلس له في دهليز الخيمة ، واستحضره ، وأحضر معه «البرزس أرناط» ، وناول

المالك «كي» شربة من جلاب بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول الملك بعضها «ابرذس أرناط» ، فقال السلطان للترجمان: « أنت الذي سقيته ، والا ما سقيته أنا » . وأراد بذلك عادة العرب ان الأسير إذا أكل أو شرب ممن أسره أمن .

وكان السلطان قد نذر مرتين إن أظفره الله به أن يقتله : إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، وبعثرة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم .

والمرة الأخرى ان السلطان كان قد هانته ، وتحالفا على أمن القوافل المترددة من الشام الى مصر ، فاجتاز به قافلة عظيمة ، غزيرة الاموال ، كثيرة الرجال ، ومعها جماعة من الأجناد ، فغدر بهم الملعون ، واخذهم وأموالهم وقال لهم: «قولوا لحمد يـجـيـء وينصركم» فبلغ ذلك السلطان وسير اليه ، وهديه ، ولامه ، وطلب منه ردها فلم يجب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به .

فالتفت السلطان الى «ارناط» ، وواقفه على ما قال ، وقال له: «ها أنا أنتصر لحمد» . ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعل . فسل السيف ، وضربه به ، فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وأخذ ورمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك على تلك الصورة لم يشـك في أنه يثني به ، فاستحضره ، وطيب قلبه ، وقال: «لم تجر عادة الملوكة أنهم يقتلون الملوكة ، ولكن هذا طغى ، وتجاوز حده فجرى ما جرى» .

ثم إن السلطان أصبح يوم الأحد ، الخامس والعشرين ، فنزل على «طبرية» ، وتسلم قلعتها بالأمان من صاحبها ، ثم رحل منها يوم الثلاثاء الى «عكا» ، فنزل عليها يوم الأربعاء سـلـخ الشهر ، وقـاـتلها يوم الخميس مسـتـهل جمـادى

الأولى ، فأخذها ، واستنفذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وأخذ جميع ما فيها ، وتفرق العسكر .

وفتح بعدها : قيسارية ونابلس ، وحيفا ، وصفورية ، والناصرية ، والشقيف ، والفولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكانها ، وأموالها .

ورحل السلطان من عكا إلى «تبنين» ، وقاتلها وفتحها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ، ثم رحل منها إلى «صيدا» فتسلمها يوم الأربعاء العشرين منه ، ثم سار إلى «بيروت» ، ففتحها في التاسع والعشرين منه ، ثم سلمت «جبيل» إلى أصحابه وهو على بيروت .

ثم سار إلى «عسقلان» ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد أن تسلم في طريقه مواضع «كالرملة» «ويبنا» و«الداروم» . وأقام على عسقلان ، وتسلم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنطرون ، وبيت لحم ، ومسجد الخليل عليه السلام .

وسار إلى بيت «المقدس» ، فنزل عليه يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستين ألفا غير النساء والصبيان ، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزحف ، والقتال ، وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور ، مما يلي «وادي جهنم» ، في قرنة شمالية .

ولما رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأن جميع البلاد التي افتتحها السلطان صار من بقي من أهلها إلى «القدس» ، خرج عند ذلك إليه ابن بارزان (٣٧٤) ، ملقيا بيده ، ومتوسلا لأمر قومه ، حتى استقر مع السلطان خروج الفرنج عنها بأموالهم

وعيالهم ، وأن يؤدوا عن كل رجل منهم عشرة ننانير ، وعن كل امرأة خمسة ننانير ، وعن كل طفل لم يبلغ الحلم بينارين ، ومن عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصل من ذلك عن من خرج منهم مائتين وستين ألف دينار صورية ، واسترق بعد ذلك منهم نحو ستة عشر ألفا .

وكان السلطان قد رتب في كل باب أميرا أمينا لأخذ ما استقر عليهم ، فخانوا ، ولم يؤدوا الأمانة ، فأنه كان فيه ، على التحقيق ، العدة التي ذكرناها ، وأطلق «ابن بارزان» ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء ، وزن عنهم ثلاثين ألف دينار .

وتسلم القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين ، من شهر رجب ، وأقيمت صلاة الجمعة فيه ، في الجمعة التي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس محيي الدين بن زكي الدين - وهو يومئذ قاضي حلب - وأزيلت الصلبان من قبة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمارين ، وهدمت كنائسهم والمعابد ، وبنيت المحاريب والمساجد .

وأقام السلطان على «القدس» ، ثم رحل عنه ، في الخامس والعشرين من شعبان ، فنزل على صور بعد أن قدم عليه ولده «الملك الظاهر» ، من حلب في ثامن عشر شهر رمضان ، قبل وصوله إليها .

وكان نزوله على «صور» في ثاني عشرين من شهر رمضان ، وضايقها ، وقتلها ، واستدعى اسطول مصر ، فكانت منه غرة في بعض الليالي ، وظنوا أنه ليس في البحر - من يخافونه ، فما راعهم إلا ومراكب الفرنج من «صور» قد كبتهم ، واخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، فاندكس نشاط

السلطان ، ورحل عنها في ثاني ذي القعدة ، وأعطى العساكر دستورا ، وساروا الى بلادهم (٣٧٥) .

وأقام هو بعكا ، الى أن دخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وكان من «بهـونين» (٣٧٦) قد ارسـلوا الى السلطان ، وهو «بصور» ، فأمنهم ، وسير من تسلمها ، وسار السلطان فنزل على حصن «كوكب» (٣٧٧) في أوائل المحرم من السنة ، وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج غرتهم ليلا ، وكبسوهم بعفر بلا (٣٤٨) وقتلوا مقدمهم «سيف الدين» أخا «الجاولي» فسار السلطان ، ونزل عليها بمن كان قد بقي من خواصه بعكا ، وكان ولده «الملك الظاهر» قد عاد عنه الى حلب ، وعاد أخـوه «الملك العـادل» الى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصن منيع ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي محاصرا .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النصف من ربيع الأول الى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس» (٣٧٩) ، ووصل اليه «عماد الدين زنكي» صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تل قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسير إلى الملك الظاهر إلى حلب وإلى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين» قبالة «أنطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت اليه العساكر في هذه المنزلة .

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، على تعبئة لقاء العدو ، وبخل إلى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا» و«العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم ، ووصل إلى «أنطوطوس» (٣٨٠) في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ، ونظر إليها ، وسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، وأحدثت

العساكر بها من البحر الى البحر ، وزحف عليها ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذها بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما بها ، وخرب سور البلد .

وسار الى حلب ، فوصل اليه ولده «الملك الظاهر» في اثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيزين» . ووصل الى «جبل» في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتم نزول العسكر حتى تسلم البلد ، سلمها اليه قاضيها واهلها ، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلموها وبقيت القلعة ممتنعة ، وقاتل القلعة ، فسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

وسار عنها الى «اللاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشرين جمادى الاولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرق الليل بين الناس ، وأصبح المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين ، ونقبوا في السور مقدار ستين ذراعا ، فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وسلموها يوم السبت .

ورحل عن اللاذقية ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون (٣٨١) ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الاولى ، واستدار العسكر حولها ، واشتد القتال عليها من جميع الجوانب .

فضربها من جنين ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعة من سورها تمكن الصاعد الصعود منها ، وزحف عليها السلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان الا ساعة حتى ارتقى المسلمون على أسوار الرض ، فهجموه ، فأنضم اهلها الى القلعة ، فقاتلهم المسلمون فصاحوا الأمان ، وسلموها على صالح القدس .

وأقام السلطان بها حتى تسلم عدة قلاع ، «كالعيد» و«قلعة

الجماهريين» و«حصن بلاطس» . ثم رحل ونزل على بكاس (٣٨٢) وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شاطئ «العاصي» وصعد السلطان جريدة الى القلعة ، وهي على جبل مطل على العاصي ، فأحرق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف ، وفتحها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة غدوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيها . وكان لها قلعة تسمى «الشغر» قريبا منها يعبر من احدهما الى الأخرى بجسر ، ف ضربها بالمنجنيقات الى أن طلبوا الأمان ، ثم سلمها أهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر .

ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر الى قلعة تسمى «سرمانية» يوم السبت ، فقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرين الشهر المذكور .

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلها في ايام الجمع ، وكذلك القدس يوم الجمعة .

ثم سار السلطان جريدة الى «حصن برزية» وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة ، ويحيط به أوبية من سائر جوانبه ، وعلوها خمسمائة ذراع ونيف وسبعون ذراعا ، فتأمله وقوى عزمه على حصاره ، واستدعى الثقل وبقيّة العسكر ، يوم السبت رابع عشرين جمادى الآخرة . فنزل الثقل تحت الجبل .

وفي بكرة الأحد صعد السلطان جريدة ، مــــع المقاتلة ، والمنجنيقات ، وآلات الحصار الى الجبل ، فأحرق بالقلعة ، وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلا ونهار ، ثم قسم العسكر على ثلاثة أقسام ، يوم الثلاثاء ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ، بحيث لا يفتر القتال عليها .

وحضرت نوبة السلطان ، فتسلمها بنفسه ، وركب ، وصاح في

الناس ، فحملوا حملة الرجل الواحد ، وطلعوا الى الاسوار ، وهجموها عنوة ، ونهبوا جميع ما فيها ، وأسروا من كان فيها ، وعاد السلطان الى الثقل ، وأحضر صاحبها ومعه من اهله سبعة عشر نفرا ، فرق له السلطان ، وأطلقه مع جماعته ، وأنفذهم الى صاحب «انطاكية» ، استمالة له ، فانهم كانوا من اهله (٣٨٣) .

ثم سار السلطان حتى نزل على «درب ساك» ، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلها قتالا شديدا بالمنجنقات ، وأخذ الذقب تحت برج منها ، فوقع ، وحماه الفرنج بالرجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كل من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلما قتل منهم واحدا اقاموا غيره مقامه ، عوضا عن السور .

ثم طلبوا الامان على ان ينزلوا بأنفسهم وثيابهم لا غير ، بعد مراجعتهم انطاكية ، وتسلمها السلطان ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاهم علم الدين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشهر ، ونزل في مرج «بغراس» ، وأحرق بعض العسكر «ببغراس» ، وأقام يزكا (٣٨٤) على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وقاتل البلد مقاتلة شديدة ، حتى طلبوا الامان ، وشرطوا استئذان انطاكية ، وتسلمها في ثاني شعبان من السنة (٣٨٥)

وفي ذلك اليوم عاد الى الخيم ، وراسله أهل «انطاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشدة ضرر العسكر ، وقلق عماد الدين - صاحب سنجار - لطلب العود إلى بلاده ، واستقر الصلح بينه وبين صاحب انطاكية على انطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم ، وأن يكون ذلك إلى سبعة اشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان .

وطلبه ولده «الملك الظاهر» ان يتوجه معه الى حلب ، فسار معه اليها ، وبخلها في حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة «الملك الظاهر» ، وأنعم «الملك الظاهر» على جماعة كثيرة من عسكره ، فأشفق السلطان عليه ، وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد» ، ونصب عليها المناجيق ، وداومها بالقتال حتى تسامها بالأمان في رابع عشر شوال ، وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لزموا الحصار هذه المدة العظيمة ، وصابروهم من بها من الفرنج ، حتى فنيت أزوادهم ونخائهم ، وأكلوا دوابهم ، فرأسلوا أخا السلطان «الملك العادل» - وكان قريباً منهم ، منازل بعض القلاع - فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، وتسلمها ، وتسلم ايضاً «الشوبك» ، وغيرها من القلاع التي تجاورها .

ثم سار السلطان من «صفد» الى «كوكب» (٣٨٦) ، فنزل على سطح الجبل ، وأحرق العسكر بالقلعة ، وضايقها بالقتال ، حتى تمكن النقب من سورها ، فطلب أهلها الأمان فتسالمها في النصف من ذي القعدة (٣٨٧) .

وسار بعد ذلك بمدة الى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وسار الى «عسقلان» مودعاً أخاه «الملك العادل» وكان متوجهاً الى مصر ، فأخذ من أخيه عسقلان ، وأعطاه «الكرك» .

وتوجه لتفقد البلاد الساحلية - ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسائة - وهو بعكا . وتوجه الى دمشق فدخلها مستهل صفر .

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الأول ، الى «مرج فلوس» (٣٨٨) محاصراً «لشقيف أرنون» (٣٨٩) ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» - وهو قريب من شقيف أرنون - في سابع عشر ربيع الأول .

وضاق على الفرنج المجال ، وقلت أزوادهم . فنزل «أرناط» صاحب الشقيف اليه - وكان عظيما فيهم ذا رأي ودهاء ، فأظهر الطاعة والمودة للسلطان ، ووعد بتسليم المكان وقال: «أريد أن تمهلني حتى أخلص أولادي وأهلي من الفرنج ، وأسـلم إليـك الحصن ، وتعطيني موصعا أسكن فيه بدمشق ، وأقطعا تقوم بي وبأهلي وتمكنني الآن من الإقامة بالشقيف ، حتى أخلص أولاد». فأجابه السلطان إلى ذلك ، وجعل يتردد إلى خدمته .

وكانت الهدنة بين انطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره مشغول بذلك ، وقد سير إلى تقي الدين أن يجمع من يقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء أنطاكية .

وبلغه أيضا أن الفرنج قد تجمعوا «بصـور» في جمـوع عظيمة ، وكان الأمر قد اسـتقر مع «أرناط» أن يسـلم إليه «الشقيف» ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأن «المركيس» لم يمكنهم من المجيء اليه ، وطلب التأخير مدة أخرى ، فعلم السلطان مكره ، فأخذه وحبسه ، فأجاب إلى التسليم ، فسير مع جماعة من العسـكر إلى تحـصـنـت «الشـقيـف» ، فـسـمـواهم بالتسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسيسا حدثه بإسـانه وعاد بما قال اليهم ، فاشتدوا في المنع .

فعلم حينئذ أن ذلك كان تأكيدا مع القسيس ، فأعادوه إلى السلطان ، وسيره إلى «بانياس» ، وتقدم إلى «الشـقيـف» فحصره ، وضيق عليه ، وجعل عليه من يـحـفـظه ، إلى أن سلمها ، من بها بعد أن عذب صاحبها أشد العذاب ، واشترطوا إطلاق صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين (٣٩٠) .

وأما بقية الفرنج ، فإن ملكهم كان وعده السلطان أنه متى سلم «عسقلان» أطلقه ، فاتفق أنه أطلقه «بأنطربوس» ، حين فتح تلك الناحية ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفا أبدا فنكت .

واتفق مع « المركيس » صاحب « صور » وعسكرا مع جموع الفرنج على باب « صور » . واتفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت الزكايه فيها سجالا بين الفريقين ، بحيث تحتاج الفريقان في آخر تلك الايام ، من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار الفرنج إلى حصار « عكا » ، فنزلوا عليها في يوم الأربعاء ثامن شهر رجب . وسار السلطان فنزل عليهم بظاهر « عكا » ، ومنعهم من الاحاطة بسورها ، فكان نازلا على قطعة منها تلي الشمال ، ومعه الباب الشمالي من « عكا » مفتوحا ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب « عين البقر » ، وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

وجرت بينهم وبين الفرنج وقعات متعددة ، من أعظمها خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل ، فوقف المسلمون ايضا على تعبئة ، وتحركت ميسرة الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفر ، فتراجع عنهم ، وامده السلطان بأطلاب عدة من القلب ، فخف القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه فحملوا على القلب فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتهم الى « الاقدوانه » ومنهم من دخل دمشق .

ووصل الفرنج إلى خيم السلطان ، فقتلوا ذلك اليوم « أبا علي الحسين بن عبد الله بن رواحة » . وكان قد مدح النبي صلى الله عليه وسلم - ووقف بأزاء قبره ، وأنشد قصيدته ، وقال : « يارسول الله إن لكل شاعر جائزة وقرى ، وإنني أطلب جائزتي الشهادة ، فاستجاب الله دعاءه » .

وقتل ذلك اليوم مكبس السلطان وطشت داره (٣٩١) ، وثبتت ميسرة المسلمين ، وصاح « السلطان » فيمن بقي من المسلمين : « يال الاسلام » ، وعادت ميسرة الفرنج إلى عسكره ، فتكاثر

الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين ذفرا .

ثم إن الحرب اتصلت بينهم ليلا ونهارا ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشتاء ، فلقى المسلمون منه شدة .

وحضروا إلى السلطان ؛ وأشاروا عليه بالرحيل عن « عكا » إلى « الخروبة » (٣٩٢) ، لينفسي ما بين العسكرين . وكان ذلك للضجر من تلك المواقفة ، وملزمة القتال ، حتى أوهم السلطان (وقالوا له :) (٣٩٣) « إنك قد ضيقت على الفرنج مجال الهرب ، وحلت بينهم وبين صور ، وطرايلس ، ولو أفرجت لهم عن الطريق لما وقفوا بين يديك » فرحل السلطان إلى « الخروبة » .

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا ، وأحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتصل ما بينهم وبين « صور » ، وجاءت مراكبهم منها ، فحصرت « عكا » من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المخورة ، بعد أن كان من المير المجلوبة .

وتوفر الفرنج على قتال أهل « عكا » بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ، وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلا هلاليا : طرفاه متصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سورا مما يليهم ، وشرفوه بالجذويات والطوارق (٣٩٤) ، والتراس .

واتصلت الأمداد إليهم من البحر ، بالاقوات والرجال والأسلحة ، حتى كان ينقل إليهم البقول الرطبة ، والخضروات من جزيرة « قبرس » فتصبح عندهم في اليوم الثاني .

وسير السلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام يستدفر

ويسـتـصرخ ، واتصلـت الاخبار بـوصول ملك الالمان إلى « القسطنطينية » في ستمائة ألف رجل ، منهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة ألف سوقة وأتباع وضياع .

وحكى أنه كان في عسكره خمسة وعشرون ألف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات ، فأسقط في أيدي المسلمين ، واستولى اليأس عليهم ، وتعلقت آمالهم أنه ربما مانعه من في طريقه من « الأوج » (٣٩٥) ومن قلع أرسلان (٣٩٦) ، فلم يتدفق شيء من ذلك ، بل سار ، وقطع البلاد ، حتى وصل إلى المصيصة .

وأرسل الله عليهم وباء عظيما وحرا عظيما ، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر دوابهم ، وذبح البقر الذي يجر العجل ، فكان يموت في كل يوم ألوف من الرجال ، ويسابقون الموتان إلى ما معهم من الدواب الحاملة للأثقال ، حتى وصلوا إلى « انطاكية » ولم يبق منهم إلا دون العشر .

وكان في جملة من مات منهم ملكهم الذي غزا الشام ، في سنة أربع وأربعين ، وحاصر دمشق ، مات غريقا في نهر « بطرسوس » يقال له « الفاتر » ، نزل ، وسبح فيه فغرق ، وقيل بأنه سبى فيه وكان الماء باردا ، فمرض ومات ، وأخذ وسلق في خل ، وجمعت عظامه ليدفن في البيت المقدس .

وأوصى بالملك لابنه مكانه ، واتفقت الكلمة عليه ، فمرض « بالتينات » (٣٩٧) ، وأقام بها ، وسير « كندأكرا » على عسكره ، ووصل إلى « أنطاكية » ، فمات ذلك « الكند » بها .

وخرج البرنس إلى الملك ، واستدعاه إلى أنطاكية طمعا في أنه يموت ويأخذ ماله ، وكان قد فرق عسكره ثلاث فرق لكثرت ، فالفرقة الأولى : اجتازت تحت « بغراس » مع الكند المذكور ، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتي رجل ، ووقع أيضا على جمع عظيم

خرجوا للعلوفة ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأسروا زهاء خمسمائة نفر .

ولما وصل ملك الألمان إلى أنطاكية أخذها من صاحبها ، وأودع فيها خزائنه ، وسار منها يوم الأربعاء خامس وعشرين من شهر رجب ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، متوجهاً إلى عكا ، وفشا فيهم الوباء حتى لم يسلم من كل عشرة واحد ، ولم يخرجوا من « أنطاكية » حتى ملأوها قبوراً .

ووصل الملك إلى « طرابلس » ، في نحو ألفي فارس ، لو صادفهم مائة من المسلمين لأخذوهم ، ووصلوا إلى « عكا » رجالاً ضعفاء ، لا ينفعون ، ومات ابن ملك الألمان على « عكا » في ذي الحجة من سنة ست (٣٩٨) .

ووصل إلى المسلمين « بعكا » الأسطول المصري في خمسين شينياً غنم في طريقه إليها بطس ومراكب فرنجية ، أسر رجالها وغنم أموالها ، وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكا ، وتماسكت بما دخل فيها من الأقوات والأسلح ، وكان دخولها في يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ست وثمانين .

وفي هذا الشهر ، جهز الفرنج بطسامتعدة ، لمحاصرة « برج الذبان » - وهو على باب ميناء عكا - فجعلوا على صواري البطس برجاً ، وملأوه حطباً ودفطاً ، على أنهم يسيرون بالبطس ، فإذا قاربت « برج الذبان » ولاصقته ، أحرقوا البرج . الذي على الصاري ، وألصقوه ببرج الذبان ، ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذونه .

وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً ، ليلقوه في البرج إذا اشتعلت النار فيه . وعبؤوا بطسا ملأوها حطباً ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

وجعلوا في بطسه ثالثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لا يصل إليهم
نشاب ، ويكونون تحت القبو ، ويقدمون البطسة إلى البرج ،
فاوقدوا النار ، وضربوا النفط ، فانعكس الهواء عليهم ، فاحترقت
البطسة ، وهلك من فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها
المسلمون ، وانقلبت الثالثة التي فيها القبو بمن فيها . (٣٩٩) .

وفي هذه السنة ، في ربيع الأول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه
الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة
المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة ، والجروح ،
والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف « بعلي بن النحاس » ،
فرماها من السور ، بقدر نطف متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ،
كانت سببا لاحتراق تلك الآلات وما فيها ومن فيها .

واشتد حصار الفرنج على عكا ، ومل من بها من الأجناد المقام ،
ووصل إليهم من مصر مراكب فيها غلة ، فاتلفوها بالاضاعة
وبالتفريق ، تبرما بالمقام .

وفي ربيع الأول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها
ألوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك
« الفرنسيس » والآخر بملك « انكتير » ، فاشتدت وطأتهما على
عكا ، وعظمت نكايتهما ، في سورها ، وقل ما بها من الميرة
والسلاح .

فأمر السلطان بأن أوسق مركب عظيم من « بيروت » ، واستكثر
فيه من السلاح والأقوات والمقاتلة ، وأظهر عليه زي الفرنج
وشعارهم ، وأخذ قوم من أسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين ،
فتركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من
المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج ، وتزويوا بزي الفرنج ، وحلقوا
شعورهم ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليبا .

وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدة من بلادهم ، وأقلعوا

داخليين إلى مرسى « عكا » ، مسلمين على الفرنج بلغتهم ، مبشرين لهم بأن وراءهم من المدد ، من تشتد به منتهم ، وتعز به نصرتهم ، فلم يرتب المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى (٤٠٠) .

فدخلوا إلى « عكا » ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتمت هذه الحيلة ، وكانت من الفرص التي لا ينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطمعوا في أخرى مثلها ، فجهزوا مركبا عظيما من « بيروت » أيضا ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار ، وجعل فيه سبعمئة من مقاتلة المسلمين .

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الأرصاد ، فمكثوا أياما يلججون في البحر ، ويقاربون عكا ، فلا يجدون في الدخول مطمعا ، حتى صادفتهم مراكب « الانكيترا » في حال قدومه من بلاده ، في إحدى وعشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلته ، فغرق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأن الفرنج إن ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الأسر والذلة ، عمد رجل حلبي حجار من أهل « باب الأربعين » (٤٠١) ، يقال له « يعقوب » وكان مقدم الجماعة إلى سفلى المركب وأخذ قطاعته ، وخسف المركب ، وبخل فيه الماء ، وغرق ، ولم يظفر الكفار منه بشيء ، سوى رجلين تخطفهما الفرنج من رأس الماء ، واحتدما وهما في مراكبهم ، فأخبرا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى « عكا » قطع قلوب من بها ، وأسقط في أيديهم ، وهرب جماعة من الأمراء منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوب من بقي بها ، وعظمت الزكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأنن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات ، والعدد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا سالمين بأنفسهم ، وذرائعهم ، وأموالهم ، وقماشهم ، وضامذوا « للمركيس » عشرة آلاف دينار ، لأنه كان الواسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف .

وحاف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلموا « عكا » ، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كل من كان بها من المسلمين ، وفرقوا بينهم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتهم ، ثم قتلوا منهم ألفين ومائتين صبرا ، على دم واحد ، في يوم واحد ، حيث توهموا فيهم أنهم فقراء ، ليس لهم مفاد ، وأسروا من رجوا منه أن يفتدى بمال ، أو يكون من السلطان على بال (٤٠٢) .

وأقاموا بعكا نحو أربعين يوما ، و « الملك الناصر » على حصارهم ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى « عسقلان » ، فسار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكا إلى « يافا » ، وهي مسيرة يوم واحد ، في شهر كامل ، لمضايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناظلة ومطاردة ، فلما أشفق السلطان من أخذهم « عسقلان » سبق إليها فهدمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

فأقام الفرنج « بيافا » ، وانتقل السلطان إلى « الرملة » ، وشرع الفرنج في بناء « يافا » وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمارتها ، ثم ساروا إلى « الداروم » ، فحصروها ثلاث مرات ، وأخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

وعاد السلطان ، في ثالث ذي الحجة ، بالعساكر إلى البيت

المقدس ، وعمره ، وحصنه ، ووعر طريقه ، وعمق خندقه ، وجعل
« الملك العادل » ، بازاء الفرنج « بالرملة » .

وتوفي الملك المظفر تقي الدين ، « على مناز كرد » ، وهو محاصر
لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب « خلاط » ، وكسرة
تقي الدين .

وبخلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بـالبيت المقدس ، والملك
العادل في الرملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من
الفتوح ، ما بين عكا و « الداروم » ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ،
خوفا من أن يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتقطع مادتهم .

وعصى فيها الملك المنصور ابن تقي الدين على السلطان
بميا فارقين ، وحينئذ (٤٠٣) ، وحران ، والرها ، وسميساط ،
والموزر ، فسير إليه ابنه الملك الأفضل وأقطعه ذلك البلاد الشرقية ،
فسار إلى حلب ومعه أخوه « الملك الظاهر » ، ووصلا إلى حلب .
فأرسل السلطان أخاه « الملك العادل » ، جريدة ، في عشرين فارسا
من مماليكه ، وأمره أن يرد « الملك الأفضل » ، ويطيّب قلب « الملك
المنصور » ، ويعطيه ما يريد ، فوصل « الملك العادل » ، واجتمع
بـالملك المنصور ، وقرر أمره .

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات
ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه
وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ،
لمدة ثلاث سنين وخمسة أشهر ، على أن سلموا إلى المسلمين
« عسقلان » ، و « غزة » ، و « الداروم » . واقتصروا من البلاد
الساحلية على ما بين « صور » و « يافا » بعد أن فتح السلطان
« يافا » ، وبقي القلعة .

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلا منهم

يعرف « بالكند هري » ، وزوجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقر عندهم أن يجعلوها على كل مرة من ملكوه (٤٠٤) .

وسار السلطان من القدس إلى بيروت في شوال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية « الابرنس » وولده « قومص طرابلس » ؛ وخلع عليهما ، وجدد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

وفي سادس عشري ذي القعدة ، دخل إلى دمشق ، بعد مدة تقارب أربع سنين ، وكان « الملك الظاهر » قد ودعه من « القدس » ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان ، وأخبرني القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ودعه ، ثم سير إليه ، واستأننه في مراجعته في أشياء فأدخله عليه - وكنت حاضرا - ثم قال للملك الظاهر : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير : وأمرك بما أمرك الله به ، فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لا ينال ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقني على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فإنه كريم »

وفي شهر ذي القعدة ، سلم إلى « الملك المنصور » ما كان لأبيه بالشام ، وهو « منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرة النعمان » وانقضت سنة ثمان وثمانين .

والهدنة مع الفرنج مستمرة ، و« الملك الناصر » بدمشق ، « الملك الظاهر » بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الأفضل ، وهو أكبر ولد السلطان ، معه بدمشق .

فمرض السلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر بحمى حادة ، واختلط ذهنه في السابع ، وحبس كلامه ، وانجذبت مائة

المرض إلى دماغه ، وتوفي - رحمه الله - في الثالث عشر من مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السابع والعشرين من صفر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وليس في خزانته من المال يوم وفاته سوى دينار واحد صوري ، وسبعة وأربعين درهما نقرة (٤٠٥) ، ودعوته على المنابر من أقصى حضرموت في الجذوب إلى أوائل بلاد « أرانية » (٤٠٦) في الشمال عرضا ، ومن طرابلس الغرب إلى باب همذان طولا . ونقودها من الدراهم والدينار مضروبة باسمه ، وعساكرها مطيعة لأمره ، سائرة تحت لوائه . ومن جملة ملكه نيار مصر ، والشام جميعه ، والجزيرة ونيار بكر ، واليمن .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكان وزيره القاضي الفاضل « عبد الرحيم بن علي اليبساني » ، صاحب البلاغة في الكتابة .

واستقر ملك ابنه السلطان « الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » لحلب ، والبيرة ، وكفر طاب ، وعزاز ، وحارم ، وشيزر ، وبارين ، وتل باشر . واستقل بملك حلب ، وأنعم على رعيته ، واستمال قلوبهم بالاحسان ، وعمل بوصية أبيه في الأفعال الحسان ، وشارك أهل حلب في سرورهم والحزن ، وقلد أعناقهم أطواق الانعام والمنن ، وجالس الكبير منهم والصغير ، واستمال الجليل والحقير .

وكان - رحمه الله - مع طلاقة وجهه ، من أعظم الملوك هيبة ، وأشدهم سطوة ، وأسدهم رأيا ، وأكثرهم عطاء ، وكانت الوفود في كل عام تزحف ببابه من الشعراء ، والقراء ، والفقراء ، وغيرهم . وكان يوسعهم فضلا وإنعاما ، ويوليهم مبرة وإكراما .

ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد « سيف الدولة بن حمدان »
ما اجتمع ببابه - رحمه الله - وزاد على « سيف الدولة » في
الحب ، والفضل والعطاء .

وخرج صاحب ، الموصل « عز الدين » ، باتفاق « عماد الدين »
وصاحب ماربين . لاستنقاذ حران والرها ، من يد « الملك
العاذل » ، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ ونزل بنيسر .

ونزل « الملك العادل » ب حران ، واستنجد بعساكر « الملك
الظاهر » و « الملك الأفضل » ، فسير الملك الظاهر عسكره ومقدمه
الملك المنصور ابن تقي الدين ، ونزل الملك العادل على سروج
فافتتحها . ومرض عز الدين ، وعاد الى الموصل عن غير لقاء .

ثم نزل الملك العادل على الرقة ، فأخذها ، وأعطاه ابن أخيه
« الملك الظافر » . وسار بالعساكر الى نصيبين ، وأقطع الخابور
وبلد القنا ، ثم اصطلحوا في شهر شعبان .

وكان الياروقية ومقدمهم « دلدرم » صاحب « تل باشر » ، قد
تكبروا وتحامقوا على الملك الظاهر ، وقصروا في خدمته ، في حياة
أبيه . وكانوا يعظمون « بدر الدين دلدرم » ، ويركبون كلهم في
خدمته حتى كأنه السلطان ، وكان بأيديهم من الاقطاع خير ضياع
« جبل السماق » ، وغيرها ؛ وملك الملك الظاهر حلب ، فسلخوا معه
من حماقة ، ما كانوا يسلكونه من قبل ، فاعتقل مقدمهم « دلدرم »
في قلعة حلب ، وقيدته ، وأخرج الباقيين عن حلب ، وقبض اقطاعهم
وطلب من « دلدرم » تسليم « تل باشر » فامتنع ، وذلك في سنة
تسعين وخمسمائة .

واتفق أن وقع خلف بين الأفضل والملك العزيز ، بسبب اميرين من
الناصرية ، احدهما ميمون القصري ، والآخر سنقر الكبير ، وكان
بأيديهما عدة من القلاع ، فاستشعرا من الملك الأفضل أن
يقبضهما ، فسارا الى مصر ، وكاشفا « الأفضل » بالعصيان .

وطلباً من العزيز الكون في خدمته على أن يذب عما في ايديهما ،
فأقطع الملك الأفضل بلادهما ، وأقطعهما الملك العزيز نابلس -
وكانت مقطعة مع ابن المشطوب - فامتنع من تسليمها اليهما ،
وسار الى الملك الأفضل فوقع الشر بينهما بسبب ذلك .

ونزل الملك العزيز الى دمشق ، في جمادى الآخرة ، وأقطع بلدها ،
فسير الملك الأفضل الى عمه ، وأعلمه بذلك ، فسار « الملك العادل »
من بلاده شرقي الفرات جريدة ، واجتمع بالملك الظاهر غازي
بحلب ، وأصعده الى قلعة حلب ، وأنزله في الدار ، التي فيها ابنة
الملك العادل « غازية خاتون » ، زوجة السلطان الملك الظاهر .
وطلب من الملك الظاهر - وافقته على المسير الى نصره الملك
الأفضل ، واصلاح ما في قلوب الملكين من المضاغنة ، فوافقه على
ذلك . ثم قال له الملك العادل : « انا ضيفك ، ولا بد للضيف من قرى
واطلب ان تكون ضيافتي منك دلدرم » . فأجابه الى ذلك وأطلقه .
وكان « العلم بن ماهان » في خدمة السلطان « الملك الظاهر » في
محل الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمه الملك العادل ، فامتنع :
وقال : « هذا عمي ، ومحله محل الوالد » . ونزل الملك « بدلدردم »
من القلعة فمضى في يومه الى « تل باشر » .

وصعد الملك العادل والملك الظاهر الى نصره الملك الأفضل ، بعد
ان سلم الملك الأفضل الى الملك الظاهر جبلة ، واللاذقية ، وبلاطدس
وأعمال ذلك كله ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل ، والملك
الظاهر بالملك الأفضل ، وتأخر الملك العزيز عن دمشق .

وجرت بين الملوك الثلاثة مراسلات افضت الى الاتفاق والصلح ،
على ان تكون بلاد الملك الأفضل بحالها ، وما كان بيد « ميمون » و
« سنقر » ، على حاله ، ويكونان في خدمة « الملك العزيز » . ووقعت
الايمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسائة .
وعاد « الملك العزيز » الى مصر ، و « الملك الظاهر » الى حلب ،
والملك العادل الى الشرق .

وفي سنة إحدى وتسعين اتصل القاضي « بهاء الدين أبو-الحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم » بخدمة « الملك الظاهر » .
وقدم اليه الى حلب ، وولاه قضاء حلب ووقفها ، وعزل عن قضائها
« زين الدين أبا البيان بنا » نائب « محيي الدين ابن الزكي » ،
وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشورة .

ثم إن « الملك الأفضل » استدشعر من أخيه « الملك العزيز » أن
ينزل الى دمشق ، ويحاصرها ، في سنة إحدى وتسعين ، كما فعل
في السنة الخالية ، فسار الى « قلعة جعبر » واجتمع بعمره « الملك
العادل » . بها ، وفاوضه في الوصول اليه الى دمشق ، لينصره على
الملك العزيز أن وصل الى دمشق ، أما بصلح أو بغيره ، فوافق
على ذلك .

وتوجه الملك العادل الى دمشق ، ثم عدل الملك الأفضل الى حلب ،
الى أخيه الملك الظاهر ، ووصل اليه الى حلب ، وفاوضه في انجاده
على الملك العزيز ، فلم يجد عنده نية صادقة في الحركة معه الى
دمشق ، واشترط عليه شرائط من جعلتها أن صاحب « حماه »
الملك المنصور محمد بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم صاحب
« بارين » و « بدر الدين دلدرد بن ياروق » ، صاحب « تل باشر » ،
كانوا كلهم في طاعته ، ومضافين اليه ، وبلاذهم من جملة بلاد الملك
الظاهر ، وأنهم كانوا من جملة أصحابه ، فأنحرفوا عنه ،
وانضافوا الى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع إليه في دلدرد ، وأطلقه لأجله ، وضمن له
عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف الى عمه .

وطلب « الملك الظاهر » أن الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه
وبينه من الشرط ، وأن لا يعرض لاتباعه المذكورين .

وسار الملك الأفضل الى دمشق ، على أن يقرر مع عمه ما التمس
الملك الظاهر . فلم يتفق للملك الظاهر شيء مما التمس . فعاد بالكلية

عنهما ، وأرسل الى الملك العزيز ، يحضه ، ويحرضه على قصدهما
لأن الملك الأفضل مال الى الملك العادل ، والقى أموره كلها اليه .

ووصلت رسل الملك العزيز الى الملك الظاهر ، بموافقته معه ،
ومعاضدته . وحلف له الملك الظاهر ، في شهر رجب من السنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان : والاسدية والاكراد
مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الأفضل ، قد كاتباهم ، فمالوا
إليهما لتقدمة الملك العزيز الناصرية عليهم .

وخرج الملك الظاهر ، فنزل بقنشرين ، وعيد بها عيد الفطر ،
وعيد الملك العزيز « بالفوار » ، وعزم الملك العزيز على الرحيل الى
دمشق ، والنزول عليها ، ورحل أبو الهيجاء السمين والمهرانية ،
والاسدية في رابع شوال . وساروا الى دمشق .

ورحل الملك الظاهر من « قنشرين » الى « قراحصار » ، قاصدا
حصار منبج - وهي في يد الملك المنصور صاحب حماه - فلما وصل
الملك الظاهر الى « بزاعا » ، وصله الخبر بأن العسكر خامر على
الملك العزيز ، وأنه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك الأفضل خلفه الى
مصر ، فعاد الملك الظاهر الى « قراحصار » حتى انسلخ شوال ،
وبدخ حلب .

ووصله الخبر بأن الملك العادل والأفضل ، سارا خلف الملك
العزيز الى مصر ، ونزلا على « بلبيس » ، ودخل الملك العزيز الى
مصر ، واستقر أمره بها ، وعلم الملك العادل بأنه لا يتمشى أمرهما
مع الملك العزيز ، فكتب الى القاضي الفاضل ، وطلب الاجتماع به ،
فألزمه الملك العزيز بالخروج إليه ، فاجتمع به ، وأصلح حاله مع
الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن الاسدية . وقال للملك
الأفضل : « أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على
دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك » .

وتحالفوا ، وعاد الملك الأفضل ، ومعه أبو الهيجاء السمين ،
وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فأنحرف الملك
الظاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

وكان الملك العادل قد احتوى على الملك العزيز ، وأوقع في نفسه
أن السلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، والخطبة والسكة ، وكان
يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحنق عليه ، فاتفق مع الملك
العزيز على أن ينزلا جميعا إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة في جميع
بلاد الشام .

فسير الملك الظاهر أخاه الملك الزاهر داود ، والقاضي بهاء الدين
قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر ، في سنة اثنتين
وتسعين وخمس مائة إلى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع
إلى ما فيه صلاح النية والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى
« البركة » في ربيع الأول من السنة ، وأعادوا الرسل بغير زبدة ،
فعرفوا الملك الأفضل في اجتيازهم عليه ، بما عزم الملك العزيز ،
والملك العادل عليه ، من إقامة الخطبة والسكة للملك العزيز ،
وتعجب من نقضهما الهدنة معه .

ولما وصلوا إلى حلب ، راسل الملك الظاهر ، أخاه الأفضل ، في
تجديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل
إلى الملك الظاهر من الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير
جندار أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ، وأخذها من ابن
السلار . وسير العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلمها إلى
قيصر ، ويجعل الاجناد فيها على حالهم ، ويحلفهم للسلطان الملك
الظاهر .

وكان العلم بن ماهان ، إذ ذاك عند الملك الظاهر في محل الوزارة
فلما وصل إليها ، وبخل قلعتها طمع باللاذقية ، وحدثته نفسه

بالعصيان ، واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا الى « الملك الظاهر » ، وقبضوا على ابن ماهان فسارع الملك الظاهر ، وخرج الى اللاذقية ، وصعد الى القلعة ، وأحضر ابن ماهان ، وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلاما من خواصه ، وقطع لسان البدر بن ماهان قرابته واننيه ، وسلخ العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرقه ، ودخل الى حلب وهو معه ، فأركبه حمارا مقلوبا ، وعلى رأسه خفا مشاة ، ويده معلقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرية ، ثم صعدوا به الى القلعة ، فالتقاه « ابن منيفة » بدوابها ، وقال له : « اريد حقي منك » . وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطمات كثيرة . وحبس في القلعة .

وتحدث بعض الناس أن الملك الظاهر أراد أن يرجع عن اقطاع قيصر اللاذقية ، فكتب الى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

ولما دخل السلطان الملك الظاهر من اللاذقية ، سير عسكرا من عسكر حلب ، نجدة لأخيه الملك الأفضل ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصرها ، وتسلمها الملك العزيز بمخامرة ، أوجبت دخول الملك العادل من « باب توما » ، والملك العزيز من باب « الفرج » .

وخرج الملك الأفضل من القلعة ، وعوض عن دمشق بصرخد ، فسار اليها ، ووصل « الملك الظاهر » إلى أخيه « الملك الظاهر » إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع « الملك الظاهر » في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، وسير

القاضي بهاء الدين ، وغرس الدين قلج ، الى الملك العزيز ، يطلب موافقته ، وكان قد رحل الى مصر ، وابقى الملك العادل بدمشق .

وخرج « الملك الظاهر » الى « مرج دابق » ، وأقام بها وأظهر أن صاحب « مرعش » عاث في بلد « رعبان » ، وسير يقدمه عسكريه الى « عين تاب » ، فخاف صاحبها حسام الدين بن ناصر الدين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الربض مظهرين أن صاحب مرعش سير الى « الملك الظاهر » واعتذر ، وانقاد الى طاعته ، وحلف له .

فرحل السلطان الى « الراوندان » ، وأقام بها ثلاثة أيام ، ورحل الى « عزاز » ليلا ، وهي في ايدي نواب الأمير « سيف بن علم الدين علي بن سليمان بن جندر » ، وكان مريضا بحلب ، فأراد السلطان ان يصعد الى القلعة من شدة المطر ، فمنعه من في القلعة أن يطلع إلا بانن « سيف الدين » ، فسار الى « دربساك » وبها « ركن الدين الياس » ابن عم « سيف الدين » ، فقبض عليه .

وعاد الى حلب مغضبا ، ودخل الى دار سيف الدين بنفسه ، وأخذه في محفة ، وسيره الى « عزاز » ليسلمها ، ووكل به « حسام الدين عثمان بن طمان » ، فوصل معه اليها وسلمها الى نواب السلطان « الملك الظاهر » ، وعادوا به الى حلب .

ولما جرى على سيف الدين ذلك ، وكانت « دربساك » معه ، وفيها ماله ونوابه ، وبها جماعة من أسرى الفرنج ، فسأ عملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العدد ، وقاموا في القلعة ، فاحتفى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجدا في السير حتى وصل « درب ساك » ، فوجد الوالي قد انتصر على الاسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان الى « حارم » ، ثم دخل الى حلب ، فأقام حتى

تقضت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي « وقلج » بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل الى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه « الملك الكامل محمد » الى حلب ، زائرا ابن عمه الملك الظاهر ، وكان قد طلبه من ابيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار الى ابيه .

وعصى « سربك » « برعبان » على الملك الظاهر ، وقد كانت في يده ، عوضه بها عن « حارم » وكان من مماليك ابيه الشجعان ، فأظهر الملك الظاهر أنه يخرج الى الغزاة ، وخرج الى « قدسرين » ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل الى « رعبان » ، فنزل عليها ، وأقام أياما لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس « سربك » سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل الى السلطان ، والتمس منه العفو فعفا عنه . ورد « رعبان » إليه وسار ، الى حلب ، فأقام بها الى اول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار الى « الغور » لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظاهر ، فوصلت رساله الى السلطان الملك الظاهر ، يخبره ان الفرنج قد عزموا على قصد جبلة واللاذقية فخرج الملك الظاهر الى « الأثارب » ، وسير الحجارين والزراقين ، لهدم حصني جبلة واللاذقية . وسار « المبارز أقجا » لهدم « جبلة » فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهلها منها .

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللاذقية ، فنقبوا القلعة ، وعلقوها ، ورفعوا نخائرها ، وهدموا المدينة ، ونهب أهلها ، وبقي العسكر منتظرا وصول العدو ، ليلقوا النار في الاخشاب المحشوة في الانقاب ، فلم يصل احد منهم .

وجاء البرنس في البحر تحت « المرقب » ، وطلب غرس الدين وابن طمان فوصلوا اليه ، وكلماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لا تهدم اللاذقية ، واخبرهما ان الفرنج فتحوا « صيدا » و « بيروت » ، وعادوا الى « صور » .

فسيرا وأعلما السلطان وهو « بريحا » (١) فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار الى « حارم » ، فوصلها في محرم سنة أربع وتسعين . وأقام بها مدة ، ثم رحل الى اللاذقية ، فعمرها وعمر ضياعها ، وتوجه الى حلب .

وتوفي غرس الدين قلج ، فعصى أولاده بالقلع التي كانت بيده ، وهي : « دركوش » ، و « الشغر » ، و « بكاس » ، و « شقيف الروج » ، وامتنعوا من تسليمها الى الملك الظاهر ، فخرج اليها ، ونازلها ، وأخذ عليها النقوب ، واستنزلهم منها ، وصافح عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنية ، وتقدم عنه منهم : سيف الدين علي بن قلج .

وبخلت سنة خمس وتسعين

ومات الملك العزيز بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الاسدية الى الأفضل ، والناصرية الى الملك العادل .

وانقاد الناصرية على نيات غير موافقة ، واسـتدعوا الملك الأفضل ، فسار من « صرخد » الى مصر وبخلها ، وتلقاه اخوته على مرحلتين منها ، واستوثقوا منه بالايمان ، على ان يكون كافلا للملك المنصور « محمد بن الملك العزيز » ومربيا له .

وخرج الجحاف ، وجهاركس ، الى « ميمون » الى القدس ، فقيده « الملك الأفضل » أخاه « الملك المؤيد » وجماعة من الأمراء كاتبوا « الملك العادل » ، وأرسل الملك الظاهر وزيره نظام الدين أبا المؤيد محمد بن الحسين ، الى أخيه الملك الأفضل ، مهنئا له بولاية مصر ، فأقام عنده مدة ، والرسـل تتردد اليه من « الملك الظاهر » في الاتفاق على الملك .

وكان الملك العادل ، اذ ذاك محاصرا « ماريدين » ، وقد أشرف على اخذها ، فسار الملك الأفضل الى دمشق ، وخرج الملك الظاهر الى « حارم » ، لغدر وقع من الفرنج بناحية « العمق » أغاروا على التركمان ، في تلك الناحية . وسير بعض العسكر الى « خناصره » ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجه الى دمشق .

وصالح الملك الظاهر الفرنج ورحل الى « مرج قراحصار » في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وسار الملك العادل حتى بلغ الى « تدمر » ، وسار في البرية الى دمشق ، ونزل الملك الأفضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة ، ونزل بعض عسكره في « الميدان » ، وهجم بعض العسكر

المدينة بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الأفضل ، وكان مجد الدين - أخو الفقيه عيسى - هو الذي بخل منها حتى بلغ السوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، وأخرجهم من البلد .

· وخامر بعض العسكر على « الملك الأفضل » وبخلوا في الليل إلى دمشق ، فاقتل الأمر عند ذلك ، وتأخر الملك الأفضل إلى « جسر الخشب » .

وسار الملك الظاهر إلى حماه ، فالتقى سيف الدين طغرل الظاهري قطعة من عسكر حماة سائرة إلى منبج فظفر بها « طغرل » وأسر رجالها ، وأحضرهم إلى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدتهم ودوا بهم .

ولما وصل الملك الظاهر إلى « حماة » منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهرا ، ونزل عليها ، وقتلها ، فهانئ الملك المنصور صاحبها ، وأخرج إليه مقدمة سنية ، وسير عسكره في خدمته ، فأقطعه الملك الظاهر « بارين » وكانت في يد ابن المقدم ، فخرج صاحب « حماة » إليها محاصرا لها .

وسير الملك الظاهر إلى « الموصل » رسولا يأمر صاحبها بانجاد « مارين » وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملك الظاهر إلى دمشق ، واجتمع بالملك الأفضل في منزلته ، وخيموا بأرض « داريا » ، ثم إنهم زحفوا على المدينة ، وقتلوها .

وبلغ الملك الظاهر أن « جهاركس » و « سامة » و « سراسنقر » وغيرهم ، قد عزموا على الدخول إلى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسير الملك الظاهر عسكرا مقدمه « سيف الدين بن علم الدين » ، ليمنعهم من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، وبخل المذكورون إلى الملك العادل ، فاشتد بهم ازره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غير العسكر الحلبي ، فأما المصري فأكثره منافق .

ووصل المواصلة الى « مارين » ؛ ورحلوا الملك الكامل عنها ،
ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربت البشائر خارج دمشق في
العسكر .

وسير الملك « الظاهر » عسكرا ، مقدمه « سيف الدين » المذكور
الى الشرق ليجتمعوا مع المواصلة ، ويحصروا بلاد الملك العادل
بالشرق ، وأقطع سيف الدين « سروج » وكان الأمر قد استقر مع
المواصلة ، أن يرد إليهم سروج والركة . فلما علموا بأن السلطان
أقطع سيف الدين « سروج » انصرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر
الرها ، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملك المنصور صاحب حماة « بارين » في ذي القعدة من ابن
المقدم ، وعوضه عنها بمنبج ، بعد ذلك ، على ما سنذكره فيما بعد .
ووصلت رسل الشرق الى الملك الظاهر - وهو على دمشق -
واتفقوا على ان يكون لصاحب الموصل حران ، والرها ، والركة ،
وسروج ، وأن يكونوا يدا واحدة على من خالفهم ، وتحالفوا على
ذلك ، في ذي الحجة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

وبخلت سنة ست وتسعين

والحصار على دمشق على حاله ، وأكثر الأجناد يحملون الأزواد في الليل ، ويبيعونه على أهل البلد ، فأخرج الملك العادل خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التجار جملة كبيرة ، وأمر بعمل الروايا والقرب ، للصعود الى مصر ، واستدعى ابنه الملك الكامل من البلاد الشرقية ، فجمع وحشد .

وسير الملك الظاهر الى سيف الدين بن علم الدين ، وإلى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على « سلمية » ليمنعوا الملك الكامل من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا الى « حماة » ، وساق سيف الدين بن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظاهر بذلك .

ووصل الملك الكامل الى دمشق ، فرحل الملك الظاهر ، والملك الأفضل ، الى « مرج الصفر » ، ثم الى « رأس الماء » .

ورحل الملك الظاهر ، واخفى نفسه جريدة الى ناحية « صرخد » ومعه الملك المجاهد صاحب حمص ، وسار الى طرف « السماوة » ، وخرجوا الى « تدمر » . وسار الملك الظاهر الى حلب ، ووصل بعده بغال الثقل ، دون الجمال على البرية ، حتى وصلوا الى « القريتين » ، ولحقهم الملك الكامل « بالقريتين » ، وهو مسرع الى الشرق ، ووقع عسكر حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقل السلطان الى « القريتين » ، سير الى مقدم عسكر حلب « علم الدين قيصر الناصري » ، واستدعاه ، وقال له : « ما بيننا وبينكم الا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردوا علينا ما أخذتم لنا » . ففعل ذلك ، وسار

الملك الكامل الى الشرق ، ووصلت البغال الى حلب ، في تاسع عشر شهر ربيع الاول .

وأما الملك الافضل ، فانه توجه من « رأس الماء » الى مصر ، وتوجه ثقل الملك الظاهر وخزائنه معه الى مصر ، وخرج الملك العادل من دمشق ، وسار خلفه الى مصر ، فدخلها ، وهرب الملك الافضل الى « صرخد » .

واستولى الملك العادل على الديار المصرية ، في صورة الكافل ، والمربي ، للملك المنصور محمد بن العزيز ، وسير خزانة « الملك الظاهر » ، وبقيّة ثقله جميعه إليه ؛ وخفر أصحابه حتى وصلوا الى حلب ، في نصف جمادى الاولى ، والسلطان « بتل السلطان » ، فدخل الى حلب .

ووصلته رسل الملك العادل تطلب منه الموافقة ، فلم يجبهم الى ذلك ، وخرج الى « بكاس » و « حارم » فمرض . وبخل حلب ، واشتد مرضه ، وطلب اليه الى القلعة الزهاد الذين كانوا بحلب ، مثل ابي الحسن الفاسي ، وعمي ابي غانم ، وعبد الرحمن ابن الاستاذ ، وسألهم الدعاء ، وتبرك بهم ، وازال مظالم كثيرة . ثم ابل من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ست وتسعين .

وانفصل عنه صاحب حمص وصاحب حماه ، وصارا مع عمه الملك العادل ، وعوض صاحب حماة عز الدين بن المقدم بمنبج عن « بارين » ، بإشارة الملك العادل . ومات ابن المقدم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير .

واستقل الملك العادل بملك مصر ، وقطع الخطبة والسكة للملك المنصور بن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهم من مال الى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابن العزيز ، فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الافضل .

فوصل الملك الافضل الى أخيه السلطان الملك الظاهر الى حلب ،
في عاشر جمادي الاولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووصل
معه الجحاف ، واخبراه أن جهاركس « بالغور » ، مع العسكر ،
واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسير الملك الظاهر الى الموصل بطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه
الافضل ، وقصدا منيج ، ففتحها الملك الظاهر ، وقبض على ابن
المقدم وحبسه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها .

وكان ابن فاخر سعد الدين مسعود بقلعة نجم ، نائباً عن ابن
المقدم ، وأخته معه ، فسالمها الى « الملك الظاهر » ، وعوضه
« بمائز » - قرية من بلد عزاز - وسلمها الملك الظاهر الى
الافضل .

وسار الى أفامية ، ومعه ابن المقدم ، فعاقبه تحتها ليسلموا
اليه ، فلم يسلموا ، فسيره ، وحبسه ، بحلب ، وأقام بكفر طاب ،
واستولى على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما
فيها لبيت المال ، وسار الى حمص ، ونزل عليها ، في
شعبان ، وقاتلها الى ان صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له
ثلاثين ألف دينار ، ووافقه .

وسار الى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ،
وسار الى دمشق فنزلها ، واستدعى « جهاركس » و « قراجا »
من الغور فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما
بنفسه ، ولاطفهما حتى رحلا معه ، بعد أن أعطى الملك الافضل
قراجا « صرخد » ، وأخرج امه وعياله منها ، ونزلوا على دمشق
وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد صار في
الباقيين مع الملك العادل ، وقال : « المصلحة أننا نلقى الملك العادل ،
فاذا كسرناه تم لنا ما نريد » .

وكان الملك العادل قد نزل من مصر الى « الكرك » ، ثم توجه الى نابلس ، فلما رأى جهاركس جد الملك الظاهر على حصار دمشق ، هرب من العسكر الى الملك العادل الى نابلس ، وهرب قراجا الى صرخد ، وعصى بها وتركها خيامهما على حالها وبركهما ، فأذهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقتلوا قتالا شديدا ، وأحرقوا « العقبة » ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن الملك الظاهر ، بعد ان وصل الى « رأس عين » (٢) .

وسار الملك « الفائز بن العادل » من البلاد الشرقية ، طالبا تشييث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسير الملك الظاهر « المبرز أقجا » - وكان من أكبر أمراء حلب - ومعه بعض العسكر ، فنزل على « بالس » ونهبها ، وسار الى « منبج » فنزلها ، فوصل الملك « الفائز » إليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر الى « بزاعا » ، ودخلها الفائز ، وبنى قلعتها وحصنها ، وسار منها طالبا عسكر حلب الى « بزاعا » فاندفعوا بين يديه الى حلب ، وأقام على بزاعا أياما ، وجفل بلد حلب خوفا منه ، وهرب فلاحوه .

ورحل الى أبيه إلى نابلس ، فسير الملك العادل نجدة تدخل الى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أهدت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كمينا ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة الا القليل . ونكث صاحب حماة ، وخرج الى ناحية « الروج » ، وأغار عليه ، ونهب رستاق « شيزر » .

وسار عسكر حلب الى منبج ، فلم يجد فيها مطمعا ، واستدعاهم الملك الظاهر ، فمضوا اليه الى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خبز الجحاف .

ووقع الخلف بين الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريد لها لنفسه ، لانه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الأفضل يريد لها لنفسه لأنها بلده ، وأنه أخرج « صرخد » من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر ، ومعه ميمون القصري ، وسراسنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الأفضل فنزل حمص ، عند صاحبها الملك المجاهد ، وزوج ابنه « الملك المنصور إبراهيم » بابنة الملك الأفضل .

وسار الملك الظاهر الى حماة ، فأغار عليها ، وشعث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مال اخذه منه وسار الى منبج ، وعزم على ان يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لأنهم قاموا مع الملك « الفائز » فشفع اليه الأمراء في ان يسلموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ثم دخل الى حلب ، وأقطع ميمون القصري عزاز ، وشيخ ، وبلد الحوار ، وأقطع أيبك فطيس اقطاعا أرضاه ، وعاد عنه سراسنقر ، وتسلم السلطان أقامية من ابن المقدم وعوضه عنها « بالراوندان » .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحصين البغدادي » في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته الى حلب ، ووثر له ، وصار وزيره بعده نظام الدين أبو المؤيد محمد بن الحسين .

ووصل الملك العادل الى دمشق ، فتوجه اليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الأفضل ، وترفق اليه ، فأعطى الملك الأفضل « شـبختان » و « جملين » و « الموزر » و « قلعة السن » و « سميساط » وسار اليها الملك الأفضل ، ونزل الملك العادل الى حماة ، وراسل الملك الظاهر ، حتى استقر الصلح بينه وبينه ، على

أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وصعد الرسول شمس الدين بن التنبلي الى المنبر ، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، ونشر نهبا كثيرا على الناس . وبلغ الملك الظاهر ، عن ابن المشطوب ، أنه كان قد عزم على المخامرة ، فسير الى « منبج » العسكر ، واخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب الى الشرق .

وجمع الملك الظاهر العرب في دابق ، لاخذ العدا منهم ، وخاف ابن المقدم منه ، فهرب الى « الراوندان » ، ليعصي بها ، فسار الملك الظاهر خلفه ، ولم يمهل ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة ، ومضى الى « بدر الدين دلدرد » ، بتل باشر ، منهزما من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصرا لها ، فسلمها من كان بها اليه ، وحاز جميع ما كان فيها من النخائر والاموال ، ورتب امورها .

وسار منها الى منبج ، وسير نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان نازلا على « مارين » ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلع رسلان ، ونزل السلطان في « بدايا » ، واتفق الامر بينه وبين [صاحب] « مارين » وابن الملك على الصلح ، فعاد الى حلب بعد ان توجه الى « البيرة » .

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم الى جهة « انطاكية » ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية اذ ذاك ، سيف الدين بن عام الدين ، وعبروا في ارض اللاذقية ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم إن رأوا لهم طمعا في اللاذقية يأخذوها .

فخرج سيف الدين بعسكره ، والتقوا ، ونصره الله عليهم ،

واسر ملوكهم ومقدميهم - وكان ملكهم أعور - وقتل منهم جمعا كثيرا ، ووصل الأسرى ، والرؤوس ، والخيول ، والأسلحة ، الى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

وعصى الملك الأفضل على عمه الملك العادل ، في البلاد التي كان اعطاه إياها ، فسير ، واستعاد منه شبختان ، وجملين ، والمدوزر ، وسروج ، والسن ، وسار الملك الظاهر الى « قلعة نجم » ، فأخذها من الملك الأفضل خوفا أن يستولي عليها عمه ، وكان « الملك الظاهر » قد سلمها الى الأفضل ، فوصلت أم الملك الأفضل الى حلب ، تسأل الملك الظاهر ، سؤال عمه فيه ، وفي رد البلاد عليه ، فسير معها الى دمشق « سيف الدين بن علم الدين » في ذلك فلم يجب الى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى « سميساط » . وشرط عليه أن لا تكون له حركة بعد ذلك .

وبخلت سنة ستمائة

ووصلت الاخبار بحركة الفرنج الى « جبلة » و « اللاذقية » ، فسير السلطان اليها العساكر ، وأمرهم بخراب « جبلة » و « اللاذقية » فلم يكن للفرنج حركة ، وخربت قلعة « اللاذقية » و « العتيقة » - وكانت من جهة الشمال - وذلك بعد ان اخذت اللاذقية من ابن جندر - سيف الدين بن علم الدين .

وولد للسلطان « الملك الظاهر » ولده ، الملك « الصالح أحمد » في صفر ، وسر به سرورا عظيما ، وزين البلد والقلعة ، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزى . ولبس السلطان ، ولعب العسكر معه في ميدان « باب الصغير » .

وفي محرم سنة احدى وستمائة ، هجم ملك الارمن « ابن لاون » - وهو من ولد « بردس الفقاس » ، الذي كان في زمن سيف الدولة [صاحب] انطاكية - فسير الملك الظاهر عسكرا من حلب ، لنجدة البردس صاحبها ، فلما وصلوا الى « العاصي » ، ضعف أمر ابن « لاون » عندهم ، وقاموا عليه ، وأخرجوه منها ، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه ، فعاد عسكر حلب اليها ، ففسخ « ابن لاون » الهدنة ، وأغار على بلد العمق ، واستاق مواشيها وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل ، بالقرب من « دربساك » ، ليضيق به عليها .

وارسل الى السلطان ، وسأله أن يخلي بينه وبين « انطاكية » . وأن يعيد جميع ما اخذه من « العمق » فأجابه الى ذلك ، وهابنه على هذا الأمر . ونزل على « انطاكية » ، وخرب رستاقها ، ووقع فيها غلاء عظيم ، فكان الملك الظاهر يمد أهل « انطاكية » بالغلال ، حتى قويت .

وبدلت سنة اثنتين وستمئة

فجرد « ابن لاون » في جمادى الاولى ، في الليل ، عسكرا في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة الى ربض « دربساك » ، فلم يذكره وقود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم اهل الربض ومن به من الأجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطلع الفجر ، فاندشروا في ارض « العمق » ، ونهبوا من كان فيه من التركمان ، وداموا الى ضحوة ذلك النهار ، ورجعوا .

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، ودخل الارمن الى « جبل اللكام » ، فجاءهم في الليل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فكانوا يسألون الشاء ويلبسون جلودها ، لشدة البرد ، فسير الملك الظاهر عسكرا من عسكر حلب يقدمه « ميمون القصري » ، ومعه « أيبك فطيس » ، فنزلوا على « حارم » ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان « بدربساك » ، وسيف الدين بن علم الدين نازل بعسكره على « تيزين » - وكانت جارية في اقطاعه - وفي اكثر الايام تجري وقعات بين العسكر المقيم « بدربساك » ، وبين عسكر ابن لاون « ببغراس » .

وخرج السلطان الى « مرج دابق » ، في شعبان من هذه السنة ، للدخول الى بلد « لاون » ، وجمع العساكر ، وسير اليه عمه « الملك العادل » ، وغيره من ملوك الاسلام النجد ، فأقام « بدابق » الى ان انسلخ شهر الصيام .

فسار « ابن لاون » من « التينات » ، جاء على غير طريق اليزك في الليل ، فأصبح في « العمق » غائرا على غرة من العسكر ، وكبس العسكر الذي كان مع ميمون ، حتى حصلوا معهم في الخيام ، وقابلوهم على غير ابهة فقاتلهم المسلمون ، فقتل منهم جماعة ، ولم يلبث إلا قليلا ، عاد وساق سيف الدين من « تيزين » ، فوجده قد رجع .

وبلغ الخبر إلى السلطان ، وهو « بدابق » ، فسار بالجيوش التي معه فنزل « بالعمق » ، واجتمع من العساكر والتركمان ما لا يحصى كثرة ، فسير « ابن لاون » يبذل الطاعة ، وأن يهدم الحصن الذي بناه بقرب « دربساك » .

فأعرض عنه ، ورد فلاح « العمق » ، وعمر ضياعه ، وكمل استغلال ذلك البلد ، والرسائل تتكرر في إصلاح الحال ، إلى أن استقرت القاعدة : على أن يهدم « لاون » الحصن الذي بناه ، ويرد جميع ما أخذ في الغارة ، ويرد جميع أسارى المسلمين الذين في يده ، وأن لا يعرض « لأنطاكية » . وقرر الصلح إلى ثماني سنين ، وخرب الحصن ، ورد ما استقر الأمر عليه .

وبخل السلطان حلب ، في سنة ثلاث وستمئة ، وأمر جماعة من مماليكه وأصحابه . وعاث الفرنج على بلد « حماة » ، في سنة خمس وستمئة ، فسير الملك الظاهر من حلب ، نجدة من عسكره .

ونزل الملك العادل على « قدس » ، وغارت خيله على طرابلس ، وخربوا حصونها ، وشتى « بحماة » إلى أن انقضى فصل الربيع .

وعاد إلى دمشق ، وعاد ابنه « الأشرف » ، إلى بلاده ، من خدمة أبيه ، فعبر في حلب ، فالتقاء الملك « الظاهر » ، واحتفل به ، وانزله في داره بقلعة حلب ، وقدم له تحفا جليلة من السلاح ، والخيول ، والذهب ، والجوهر ، والمماليك ، والجواري ، والثياب ، بما قيمته خمسون ألف دينار ، وودعه بعد سبعة أيام إلى قراحصار ، وعاد إلى حلب .

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد « ابن لاون » ، وطلب نجدة من السلطان الملك الظاهر ، فأرسل إليه عسكرا مقدمه سيف الدين ابن علم الدين ، وفي صحبته أبيك فطيس ، فاجتمعوا بمرعش ، ونزلوا على برتوس (٣) في سنة خمس وستمئة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصونا عدة من بلد ابن لاون .

فراسل « لاون » الملك العادل ، والتجأ اليه ، فأرسل الملك العادل الى كيخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيخسرو ، وصالح « ابن لاون » ، على ان يرد حصن « بفراس » إلى « الداوية » ، وأن لا يعرض لانطاكية ، وأن يرد ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدين .

وكان قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظاهر مدة ، وخاف الملك الظاهر من أخيه ركن الدين ، وأن يتغير قلبه عليه بسببه ، وأنه ربما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى « ابن لاون » ، ثم خاف منه ، الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لا يعرض لبلاد السلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

وخرج العادل من دمشق ، في سنة ست وستمائة ، وطلب من الملك الظاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي إلى خلاط ، لدفع « الكرج » عنها ، فسير إليه نجدة ، وعبر « الفرات » .

فلما وصل إلى « رأس عين » ، رحل « الكرج » عن خلاط ، ووصل إليه صاحب « آمد » ، فسار في العسكر إلى « سنجار » ، واقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على « سنجار » محاصراً لها ، وشفع اليه مظفر الدين بن زين الدين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : « لا يجوز لي في الشرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، في مصلحة الجهاد » ، وضايق سنجار ، وقَاتَلَهَا في شهر جمادى الآخرة .

وقام نور الدين بن عز الدين - صاحب الموصل - في نصرة ابن عمه صاحبها ، واتفق مع « مظفر الدين » ، وتحالفا ، وافسدا جماعة من عسكر « الملك العادل » ، ورأسلا « الملك الظاهر » ، على ان يجعلاه السلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكة باسمه .

وجعل « الملك الظاهر » يداري الجهتين ، والرسـل تتواتر اليه من البلدان ، وهو في الظاهر في طاعة عمه ، وعسكره معه ، وفي الباطن في النظر في حفظ سنـجار ، ومداخلة المواصلة ، وهو يظهر لعمه أنه متمسك بيمينه له ، الى ان ارسل أخاه « الملك المؤيد » ، ووزيره « نظام الدين الكاتب » الى عمه ، معلما له أن رسول الموصل ، ومظفر الدين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة اليه ، في اطلاق سنـجار ، وتقرير الامر على حالة يراها .

وتوسط الحال عند قدومه ، على ان شفع فيهم الملك الظاهر ، واطلق لهم « سنـجار » ، واستنزلهم عن « الخابور » و« نصيبين » .

وعاد « الملك المؤيد » ، من حضرة عمه بالبر الوافر ، فلما وصل « رأس عين » ، دخل إليها في ليلة باردة كثيرة الثلج . فنزل في دار فيها منزل مجصص ، فستر بابه ، وسد ما فيه من المنافس ، واوقد فيه نار في منقل ، وعنده ثلاثة من أصحابه ، فاختنق ، وواحد من أصحابه ، وحمل الى « حلب » ميتا في شعبان ، من سنة ست رستمائة ، وجرى على الملك الظاهر منه ما لا يوصف من الحزن والأسف .

ووصل الملك العادل الى « حران » ، وخافه صاحب الموصل والجزيرة ، فراسل الملك الظاهر ، وطلب منه أن يخلي بينه وبين ملوك الشرق ، وأن يحتكم في ما يطلبه منه ، وراسله صاحب الموصل وصاحب اربل ، وصاحب الجزيرة ، يعتضدون به وهولا يؤيسهم ، فخرج السلطان الى « حيلان » بعسكره ، ثم رحل الى « السموقة » وراسل عمه في مهانتهم ، وتطبيب قلوبهم ، وهو مخيم على « السموقة » على نهر قويق - وطلب منه أن تكون كلمة المسلمين كلهم متفقة .

وكذلك تدخل في الصلح ملك الروم ، وأن يقصدوا الفرنج

بجملتهم ، فان الفرنج في نية التحرك ، وخامر جماعة من عسكر الملك العادل ، ووصل ابن كهدان الى السلطان الملك الظاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، وبخول ملوك الاسلام فيه .

وتمت المصاهرة بين « الملك العادل » و « الملك الظاهر » ، على ابنته الخاتون الجليلة « ضيفة خاتون » - بنت الملك العادل - وشرع السلطان في عمل « قناة حلب » وفرقها على الأمراء والخواص . وحرر عيونها وكلس طريقها جميعه ، حتى كثر الماء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل في المحال . ووقف عليها وقفاً لاصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « نظام الدين محمد بن الحسين » بحلب ، بعة الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة .

وكان - رحمه الله - وزيراً صالحاً ، مشفقاً ناصحاً ، واسطة خير عند السلطان ، لا يشير عليه إلا بما فيه مصلحة رعيته ، والاحسان اليهم . وقام بعده بكتابة الانشاء والاسرار « شرف الدين أبو منصور ابن الحصين » ، و « شمس الدين بن ابي يعلى » كان مستوفي الدواوين . فلما مات أبو منصور بن الحصين استقل بالوزارة ، وأضيف اليه ديوان الانشاء مع الاستيفاء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدكاره ، وأوسع خندقها وعمل « البغلة » من الحجارة الهرقلية ، وعمق الخندق ، الى أن نبع الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، « ضيفة خاتون » بنت الملك العادل الى حلب ، مع « شمس الدين بن التنبى » . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم

بالعساكر الحلبية بعد ذلك « بقل السلطان » ، واحتفل في اللقاء .
وبالغ في العطاء ، ووصلت الى حلب في النصف من المحرم ، من سنة
تسع وستمائة .

وملك ابن التنبى قرية من قرى حلب ، من ضياع
« الارتيق » (٤) يقال لها تلح ، وأعطاه عطاء وافرا ، وحظيت عنده
حظوة ، لم يسمع بمثلها .

ووقعت النار في مقام ابراهيم - عليه السلام - وهو الذي فيه
المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والالات والسلاح ما لا
يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس
يحيى بن زكريا - عليه السلام - واحترقت السقوف والأبواب ،
فجده السلطان الملك الظاهر ، في اقرب مدة أحسن مما كان .

وتوفي شرف الدين عبد الله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقل
شمس الدين عبد الباقي بن ابي يعلى بالوزارة ، في سنة تسع
وستمائة .

وشرع الملك الظاهر في هدم « باب اليهود » وحفر خندقه
وتوسعته ، وبناء بناء حسنا ، وغيره عن صورته التي كان عليها ،
وبنى عليه برجين عظيمين ، وسماه « باب النصر » . وأتم بناءه ،
في سنة عشر وستمائة .

وولد للسلطان الملك الظاهر ولده الملك العزيز ، من ابنة عمه
الخاتون « ضيفة خاتون » ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من
سنة عشر وستمائة ، فضربت البشائر ، وزينت مدينة حلب ، وعقدت
القباب .

وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، ختن السلطان أخاه الملك
الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزورق ، من قلعة حلب إلى
المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الآلات والتماثيل التي

- ٧٣٢٢ -

ركبوها ، حالة النزول انواعا ، وطهر اولاد الاكابر من أهل المدينة ،
وشرفهم ، وخلع عليهم .

وبخلت سنة احدى عشرة وستمئة

فجدد السلطان الملك الظاهر « باشورة » حلب ، من « باب الجنان » الى « برج الثعابين » ، وبنى لها سورا قويا ظاهرا عن السور العتيق ، فيه ابرجة كالقلاع ، وعزم على ان يفتح بالقرب من « برج الثعابين » بابا للمدينة ، ويسميه « باب الافرايس » ، وكان يباشر الاشراف على العمارة بنفسه .

وأمر في هذه السنة بتجديد روض الظاهرية ، خارج « باب قدسرين » ، فيما بينه وبين النهر ، فذسب إليه ، لذلك ، وخربت « الياروقية » ، وانتقل معظم أهلها إليه .

ووثب الاسماعيلية على ابن الابرذس ، « بكنيسة انطرسوس » ، فقتلوه ، فجمع الابرذس جموع الفرنج ، ونزل على حصونهم ، وقتل وسبى ، وحصر « حصن الخوابي » فكتبوا الى السلطان ، يستغيثون به ، ويستنجذونه ، فاستخدم السلطان مائتي راجل . وسير جماعة من عسكر حلب ، يحفظونه ، ليدخلوا الى « حصن الخوابي » ، ويمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه .

وجرد عسكرا من حلب ، مع سيف الدين بن علم الدين ليشغل الفرنج من جهة « اللاذقية » ليتمكن الرجالة من الدخول الى الحصن ، فلما سمع الفرنج بذلك ، كمنوا كميناً للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوه ، وقبضوا ثلاثين من الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

فعند ذلك خرج الملك المعظم بن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، ودخل غائرا في بلد « طرابلس » فلم يترك في بلدها قرية الا نهبا ، وخربها ، واستاق الغنائم والأسرى ، فدخلوا عن « الخوابي » ، وأطلقوا الأسرى الذين أسروهم من أصحاب السلطان الملك

- ٧٣٢٤ -

الظاهر ، وراسلوه ، معتررين ، متلطفين ، وافترقوا عن غير زبيدة
حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والباب والابنرجة ، في سنة اثنتي عشرة
وستمئة . ولم يتم فتح الباب . وسده طغرل الأتابك ، لما مات الملك
الظاهر ، الى أن فتحه السلطان الملك الناصر - أعز الله نصره -
على ما ذكره ، في سنة اثنتين وأربعين وستمئة .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ووقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر ، وبين السلطان « كيكافوس بن كيكافوس » ، واتفقا على أن يمضي السلطان الى خدمته ، ويتفق معه خوفا من عمه ، فأجابه « كيكافوس » الى ذلك ، وخرج بنفسه الى اطراف البلاد .

وندم السلطان على ما كان منه ورأى أن حفظ بيته أولى ، وأن اتفاه مع عمه أجمل ، فسير القاضي بهاء الدين - قاضي حلب - الى عمه الى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنه قد جعل ابنه الملك العزيز محمدا ، ابن ابنة الملك العادل ، ولي عهده . وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك .

فسار الى مصر فرتب السلطان خيل البريد ، تطالعه بما يتجدد من أخبار عمه ، لينظر في أمره ، فان وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه الى « كيكافوس » ، وهو مع هذا كله في همّة تجهيز الجيوش ، والاستعداد للخروج الى « كيكافوس » ، والاجتماع معه على قصد بلد ابن « لاون » أولا ، وكان « ابن لاون » قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرع السلطان بمجاورته ، ولعلمه بانتماؤه الى عمه .

فوصلت الأخبار من « القاضي » من مصر ، ان الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع الى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقف في أمر من الأمور .

وجعل كيكافوس يحدث السلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به وضاق صدره ، وبقي مذكرا في أن عمه قد وافقه ، ولا يرى الرجوع عنه الى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمه ، ويغض من قدره بالخروج اليه ، ويفكر في حاله مع ملك الروم ، وفي كونه وعده

بالخروج اليه والاجتماع به اذا خرج ، وأنه إن رجع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتم في ذلك الأمر . وطلب الاعتذار الى ملك الروم بوجه يجل ، فاشته فكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حاد في جمادى الآخرة في سنة ثلاث عشرة وستمائة . واعتبرته أمراض شتى وماشيرا (٥) واشتد به الحال ، وجمع مقدمي البلد وأمرأه ، واستدلفهم لابنه الملك العزيز محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح أحمد ، ثم من بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمد بن الملك العزيز . وجعل الأمير سيف الدين بن علم الدين مقدم العسكر ؛ وشهاب الدين طغرل الخادم والي القلعة ، ومتولي الخزانة ، وتربية أولاده ، والنظر في مصالح الدار والنساء .

وانزل « بدر الدين ايدمر » والي قلعة حلب منها ، واقطعه زيادة على ما كان في يده من الأقطاع « قلعة نجم » ، بنخائرها وعددها ، و « زرينا » ، مع تسع ضياع آخر من أمهات الضياع . وحلف إخوة السلطان على ذلك .

واستشعر السلطان من أخيه الملك الظاهر « خصر » - وكان مقيما « بالپاروقية » - فأقطعه « كفرسود » ، وتقدم اليه بالتوجه اليها ، فسار اليها ، فسبقه الملك « الزاهر » ، فاستولى عليها ، وعلى « البيرة » و « حروص » و « المرزبان » و « نهر الجوز » و « الكرزين » و « العمق » .

ومات السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - بقلعة حلب ، في الخامس والعشرين ، من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وكتم خبر موته ذلك اليوم ، حتى دفن في الحجرة ، الى جانب الدار الكبير ، التي اذناها بقلعة حلب .

ثم أركب في اليوم الثاني من موته ولداه: الملك العزيز ، والملك الصالح ، وانزلا بالثياب السود الى أسفل جسر القلعة ، وصعدا أكابر البلد اليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فنت في أعضائهم ، وكان له - رحمه الله - في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قرية (٦) نكبة وبلاء : والناس مأتمهم عليه واحد في كل دار أنة وزفير .

ووصل « القاضي بهاء الدين » من الرسالة ، في اليوم الثالث ، والوزير ابن أبي يعلى ، قد استولى على التدبير ، وحكم على الصغير والكبير ، فصعد إلى القلعة ، واجتمع « شهاب الدين طغرل » ، وصرفه عن إضافة الأمور إلى الوزير .

وقرر أن الأمراء يجتمعون ، ويتشاورون فيما يدبرونه ، وأن لا يخرج الأمر عن رأي « شهاب الدين » أيضا ، فاجتمعوا « بدار العدل » ، واتفقت آراؤهم على أن يكون « الملك المنصور بن العزيز » ، أتابك العسكر ، وأمر الاقطاع إليه ، وأمر المناصب الدينية يكون راجعا إلى « شهاب الدين طغرل » : وحلفوه على ذلك ، وركب ، والأمراء كلهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك العزيز في منصب أبيه ، وأخوه إلى جانبه ، والملك المنصور ، إلى جانبهما ثم اضطربت الحال ، ولم يرض إخوة « الملك الظاهر » ، بولاية المنصور .

ووصل في أثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس - وكان مخيما بالقرب من البلاد ينتظر وصول السلطان « الملك الظاهر » إليه - فسير رسولا معزيا ، ومشيرا بالموافقة معه ، وأن يكون « الملك الأفضل » أتابك العسكر ، فإنه عم الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه .

ومال الأمراء المصريون مثل : « مبارز الدين يوسف بن خطلخ » ، و « مبارز الدين سزقر الحلبي » ، و « ابن أبي زكري الكندي » ، وغيرهم ، إلى هذا الرأي ، وقالوا : « إن هذا ملك

كبير ، ولا ينتظم حفظ الملك الا به ، واذا صار أمر حلب راجعا اليه كان قادرا على أخذ ثأره من عمه ، وأخذ الملك به .

ورأى القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : « إن هذا اذا فعل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبين ، لأن الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية ، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيدينا ، فإن كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا وإن كانت عليه فلا نأمن ان الملك الأفضل ، يتغلب على ابن اخيه وينتزع الملك منه ، ويستقل به ، كما فعل الملك العادل بابن العزيز ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذب عن حلب كما يذب عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن هي راجعة الى شهاب الدين طغرل ، وهو متولي القلعة ، والرأي أن يقع الاتفاق عليه ، فإن المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممن خالفه ، وقد وقع اعتماد الملك الظاهر عليه . »

فاتفق رأيهم كلهم عليه ، وعملت نسخة يمين ، حلف بها جماعة الأمراء والمقدمين من أهل البلد ، على الموالاة ، والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصالح ، وعلى الموالاة لاتباعه « شهاب الدين طغرل » وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن أبي يعلى ، وصرف ، واستقر الأمر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السنة .

وسار ابن أبي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السنة واستقل طغرل بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والاقطاع ، ولا يخرج في ذلك كله ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج .

واقطع علم الدين قيصر « دربساك » ، وابن أمير التركمان ،
« اللاذقية » ، وسير علم الدين الى الملك الزاهر ، أولا ، يعاتبه على
استيلائه على البلاد ، فاعتقله ، وقال : « أنا أحق بذلك ، فأنني
كنت ولي العهد لأخي ، وقد حلف لي الناس » . وطمع بملك حلب ،
ثم انقاد الى الطاعة والخطبة ، وشرط أن تبقى البلاد ، التي
استولى عليها بيده ، فأجيب الى ذلك .

ولما استقر أمر الأتابكية لشهاب الدين طغرل ، كره ذلك جماعة
من المماليك الظاهرية ، فعمد « عز الدين ايبك الجمدار » الظاهري ،
واستضاف اليه جماعة من المماليك الظاهرية ، والأجناد . وكاتب
« الاسد أقطغان » - وكان والي حارم - واتفق معه على أن يأتي
إليه ، الى « حارم » بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة فإذا
حصلوا بها انضم اليهم جماعة غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

وكان العسكر المقيم « بحارم » قد أصدع الى القلعة ، ورتب
بها ، وفيهم « المبارز أيوب بن المبارز أقجا » ، فأحسوا باختلال
أمر « الاسد » الوالي ، وانكروا عليه أشياء فاستيقظوا لأنفسهم ،
واتفقوا على حفظ القلعة ، والاحتياط عليها .

وسار ايبك الجمدار الى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام
الصعود اليها ، فمنعه الأجناد والأمراء ، الذين في القلعة من ذلك ،
ولم يمكنوا الوالي من التحرك فيها بحركة ، واحتسبوا عليه فسار
ايبك الى « دربساك » ، وطمع أن يتسم له فيها حيلة أيضا ، فلم
يستتب له ذلك ، وعصى « الطنبغا » بقلعة بهسنى ، وانضاف الى
ملك الروم « كيكاوس » . وانتظم الأمر بعد ذلك ، وسكنت الفتنة ،
في أواخر شوال من السنة .

ونزل « الملك العادل » من مصر الى الشام ، وارسل الى « اتابك »
بما يطيب نفسه ، وسير خلعة للملك العزيز ، وسنجقا ، وحلف له
على ما أوجب السكون والثقة .

واتفق خروج الفرنج من البحر ، وتجمعوا في أرض عكا ،
وأنحسروا على « الغور » ، واندفع « الملك العادل » بين أيديهم
إلى « عجلون » ، ثم إلى « حوران » ، ثم نازل الفرنج « الطور » ،
وزحفوا عليه ، فكانت النصر للمسلمين ، وقتل منهم جمع كثير ،
وانهزموا عنها ، وهدمها الملك العادل .

وسار الفرنج إلى « دمياط » ، ونزلوا عليها ، وبينها وبينهم
« النيل » والملك « الكامل » في مقابلتهم ، واستدعى الملك « العادل »
ابنه « الملك الأشرف » ، فسار في عسكره إلى « حمص » ، ودخل
بلاد الفرنج ، ليشغلهم عن محاصرة « دمياط » فدخل إلى
« صافيتا » ، فحربوا ربضها ، ونهبوا رستاقها ، وهدموا ما حولها
من الحصون ، ودخلوا إلى ربض « حصن الأكراد » ، فنهبوه ،
وحاصروا القلعة ، حتى أشرفت على الأخذ ، والملك العادل مقيم في
« عالقين » .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمئة

وتحرك ملك الروم « كيكاوس » ، ومعه « الملك الافضل » ، طالبا أن يملك حلب ، ويطمع « الافضل » أن يأخذها له ، ليرغب الامراء في تملكه عليهم ، وكاتب جماعة من الامراء ، وكتب لهم التوقيع ، ومن جملة من كاتبه « علم الدين قيصر » . وكتب له توقيعاً « بأبستان » . واغتنما شغل قلب « الملك العادل » بالفرنج ، ووافقهما الملك الصالح - صاحب آمد - وكان « كيكاوس » ، يريد الملك لنفسه ، ويجعل « الافضل » ذريعة للتوصل اليه ، وكاتبه أمراء حلب الذين كانوا يميلون الى « الافضل » . فجمع العساكر ، واحتشد ، واستصحب المناجيق ، وسار في شهر ربيع الاول ، فنزل رعبان وحصرها ، وفتحها .

فسير « الاتابك شهاب الدين » « زين الدين ابن الاستاذ » رسولا الى « الملك العادل » ، يستصرخه على « الرومي » ، و « الافضل » . فكتب الى ولده « الملك الاشرف » ، يأمره بالرحيل الى انجاد حلب بالعساكر ، وسير اليه خزانة ، وجعل « الملك المجاهد » - صاحب حمص - في مقابلة الفرنج .

وسار « الملك الاشرف » ، حتى نزل حلب « بالميدان الأخضر » ، وخرج الامراء الى خدمته واستحلفهم ، وخلع عليهم ، واتاه « مانع » أمير العرب بجموعه المتوافرة ، وعاث العرب في بلد حلب ، و « الملك الاشرف » يداريهم لحاجته اليهم .

وسار علم الدين قيصر الى ملك الروم من « دربساك » وجاهر بالعصيان ، ونزل « نجم الدين الطنبغا » اليه من « بهسنى » .

وتسلم الرومي « المرزبان » ، وسار الى « تل باشر » وهي في يد ولد « بدر الدين دلدرد » ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الافضل شيئا من البلاد التي افتتحها فتدقق « الملك الافضل » فساد

نيته ، وسار الى منبج ، ففتحها بتسلم اهلها ، وكان قد صار في
جملته رجل يقال له « الصارم المنبجي » ، وله اتباع بمنبج فتولى له
أمر « منبج » وشرع في ترميم سورها ، واصلاحه .

وسار « الملك الاشرف » نحوه من حلب الى « وادي بزاعا » على
عزم لقائه ، وجماعة من الامراء المضامرين في صحبته ، فنزل في
وادي بزاعا ، وسير « الرومي » ألف فارس ، هم نخبة عسكره
ومقدمهم « سوباشي سيواس » ، فوصلوا الى « تل قباسين » فوقع
عليهم العرب واحتدوا عليهم ، وعلى سوادهم .

وركب « الملك الاشرف » ، فوصل اليهم ، وقد استباحوهم قتلا
واسرا ، وسيروا الاسرى الى حلب ، وخذلوا بهم والبشائر تضرب
بين أيديهم ، وادعوا السجن .

ولما سمع « كيكاوس » ذلك ، سار عن منبج هاربا ، ورحل
« الملك الاشرف » من منزلته ، واتبعه يتخطف أطراف عسكره ،
حتى وصل الى « تل باشر » ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى
افتتحها ، وسلمها الى نواب الملك العزيز ، وقال : « هذه كانت ،
اولا ، للملك الظاهر - رحمه الله - وكان يؤثر ارتجاعها اليه ، وأنا
أردتها الى ولده » . وذلك في جمادى الاولى ، من سنة خمس عشرة
وستمائة . ثم انه ملكها للاتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان
عشرة وستمائة ، بجميع قراها . ثم سار « الملك الاشرف » الى
« رعبان » و « تل خالد » فافتتحهما وافتتح « برج الرصاص » ،
واعطى الجميع « الملك العزيز » . وأقطعت « رعبان » لسيف الدين
ابن قلج . وعاد منكفئا الى حلب ، ونزل على « باندقوسا » . وكان
الخبر قد ورد بموت « الملك العادل » - رحمه الله - وكان مريض
على « عالقين » ، فرحل الى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى
الآخرة من سنة خمس عشرة . فكتب الاتابك شهاب الدين بذلك الى
الامراء ، و « الملك الاشرف » قد قارب « مدينة حلب » ، فأعلموه
بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء وخرج اكابر البلد والامراء الى

خدمته ، وأنشد الشعراء مراثي الملك العادل ، وتكلم الوعاظ بين يديه .

ولما انفصل العزاء ، سير « الاتابك شهاب الدين » الى « الملك الأشرف » ، وتحدث معه في أن يكون هو السلطان موضع أبيه ، وأن يخطب له في البلاد ، وتضرب السكة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبية في خدمته . فقال : « لا والله لا أغير قاعدة قررها أبي ، بل يكون السلطان أخي « الملك الكامل » ، ويكون قائما مقام أبي » ، فاتفق الحال بين « اتابك » وبينه ، برأي القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، على أن يخطب بحلب وأعمالها « الملك الكامل » وبعده للملك الأشرف ، ثم للملك العزيز وضرب اسم « الملك الكامل » والملك العزيز ، على السكة . وجعل اسم الأجناد والأقــــــــــــطاع في

عسكر حلب الى « الملك الأشرف » ، وخليت له دار « الملك الظافر » « بالياروقية » ، فنزل فيها ، ورتب له برسم المعونة ، من أعمال حلب « سرمين » و« بزاعا » و« الجبول » ، ووصلت اليه رسل البلاد ، من جميع الجهات ، ومالوا اليه ، وصاروا اتباعا له ، وأمر ونهى ببلاد حلب ، في الأجناد والأقطاع لاغير ، وتردد أكابر الحلبيين إلى خدمته ، وخلع عليهم ، وانقضى فصل الشتاء .

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

فأقطع الأقطاع لأجناد حلب ، ورتب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئاً من ذلك إلا بمراجعة « الأتابك شهاب الدين » ، وبدأ من الأمراء المصريين تحرك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم لميلهم إلى « الملك الأفضل » . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه « الملك الكامل » ، يطلب منه النجدة إلى « دمياط » . وكان « ابن المشطوب » قد أراد الوثوب عليه وتمليك « الفائز » أخيه ، فأخرجه من الديار المصرية ، بعد أن رحل من منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبروا الفرنج إليها ، ونهب الخيم ومنازلة « دمياط » وقطعهم المائة عنها ، فاتفق رأي « الملك الأشرف » على تسيير الأمراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيرهم نجدة إلى أخيه ، وهم المبارزان : « ابن خـطـلـخ » و « سنقر » الحلبيان ، وابن كهـدان ، وغيرهم ، وخاف ابن خطلخ منه ، فاستدلفه على أن لا يؤذيه ، فدلف له ، وسيرهم إلى أخيه « الملك الكامل » ، فأقاموا عنده بالكلية .

وتوفي نور الدين - صاحب الموصل - في هذه السنة . وترك ابناً صغيراً قام « بدر الدين لؤلؤ » ، مملوك جده بتربيته . وخطب الكامل والأشرف .

وقام زنكي بن عز الدين ، فأخذ « العمادية » - وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل - بمواطاة من أجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : « أنا أولى بكفالة ابن أخي » . وساعده « مظفر الدين » صاحب « إربل » على ذلك ، فسير لؤلؤ رسولا إلى « الملك الأشرف » إلى حلب ، يطلب إنجاده ، فسير إليه عز الدين أيبك الأشرفي .

وكان عماد الدين بن سيف الدين علي المشطوب ، لما نفي من
البيار المصرية ، قد وصل الى « حماة » ، وأقام عند صاحبها ،
وكاتب « الملك الأفضل » ، وجمع جموعا كثيرة من الاكراد ، وارباب
الفساد ، وساعده الملك المنصور - صاحب حماه - بالمال والرجال
على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر الى
الأفضل ، وأن يقوم معه ويساعده صاحب حماه ، وسلطان الروم .
ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمن زمن
الربيع ، وخيول الأجناد متفرقة في الربيع ، فوصل الى « قنشرين »
ونفذ منها الى « تل أعرن » (٧) وبلغ « الساجور » ، واستاق في
طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره .

وبلغ خبره الى الملك الأشرف ، فأركب من كان بحضرته من
العساكر ، خلفه ، وكان فيهم ابن عماد الدين صاحب
« قرقيسيا » ، فلحقوه على « الساجور » ، وفي صحبته « نجم
الدين بن أبي عصرون » ، فقبضوا عليه واتوا به الى « الملك
الأشرف » ، فعفا عنه و« عن ابن أبي عصرون » ، واقطع ابن
المشطوب « رأس عين » وأقام عنده مخيما « بالياروقية » ، إلى أن
دخل شعبان ، من السنة المذكورة . وسار « الملك الأشرف » الى
بلاده الشرقية ، لاصلاح أمر الموصل ، وكان صاحب اربل وزنكي ،
قد كسرا « لؤلؤ » و« أيبك الأشرفي » ، على الموصل . فنزل الملك
على حران ، وفي صحبته عسكر حلب .

ومات « كيكاوس » ، ملك الروم ، وملك بعده أخوه كيقيبان ،
فراسل الملك الأشرف ، واتفق معه . وخربت القدس في أوائل هذه
السنة . وخرج الى الفرنج المنازلين « دمياط » نجدة من البحر ،
ووقع الوباء في أهل « دمياط » ، وضعفوا عن حفظها ، فهجمها
الفرنج على غفلة من أهلها ، في عاشر شهر رمضان ، والملك
الكامل ، مرابط حولها بالعساكر ، وابتنى مئينة سماها
« المنصورة » ، وأقام فيها في مقابلة الفرنج .

وبدلت سنة سبع عشرة وستمئة

والملك الأشرف في « حران » ، و « ابن المشطوب » في اقطاعه « رأس عين » ، وقد داخل صاحب « ماردين » ، وقرر الأمر معه على العصيان على « الملك الأشرف » ، وجمع جماعة من الاكراد ، فمضى الخبر الى الملك الأشرف ، وخاف ابن المشطوب ، فسار الى سنجار ، فاعترضه والي « نصيبين » ، من جهة الملك الأشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار الى سنجار ، فأجاره قطب الدين صاحبها . وأرسل « الملك الأشرف » اليه ، في طلبه ، فلم يجبه الى ذلك ، فسار الملك الأشرف نحوه ، فتدرك « سنجار » ، ومضى الى « تلعفر » ، فعصى بها ، فوصل اليه « ابن صبره » وعسكر الموصل . ووصل « الملك الأشرف » الى « سنجار » ، وفتحها ، وعوض صاحبها « بالركة » عنها ، وفتح لؤلؤ « تلعفر » ، وسلمها الى « الملك الأشرف » ، واستجار « ابن المشطوب » بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الأشرف ، فيه ، وسلمه الى الملك الأشرف ، فقيده ، وسجنه بسنجار . وسار الملك الأشرف الى الموصل ، ومعه عسكر حلب ، فأقام مخيما على ظاهرها ، حتى اصلى أمرها مع صاحب « اربل » ، وهانته .

ووصل الملك « الفائز » ، من الديار المصرية ، مستصرخا ، وطالبا للنجد ، ووصل الى حلب ، وأنزل « بالميدان الأخضر » ، وسار الى الموصل ، الى أخيه « الملك الأشرف » ، فأقام عنده ، بظاهر الموصل ، شهرا ومات . وانفصل الملك الأشرف عن الموصل ، بعد اصلاح أمورها ، وشتى « بسنجار » ، وقبض على « حسام الدين بن خشتريين » - وكان أميرا من أمراء حلب - لغدر بلغه عنه ، وقيده ، وسيره ، وابن المشطوب الى قلعة « حران » ، فحبسهما فيها الى أن ماتا . وقبض على ابن عماد الدين - صاحب « قرقيسيا » - ، وأخذها ، « وعانة » والبلاد التي كانت معه من يده ، وقدم حران ، فوصل اليه أخوه « الملك المعظم » في محرم سنة

ثمان عشرة من دمشق ، فوافقه على الصعود الى الديار المصرية ،
لازاحة الفرنج عنها ، فجهز العساكر واستدعى عسكر حلب وعبر
الفرات ، والتقى بعسكر حلب .

وسار الى دمياط ، مع أخيه « الملك المعظم » ، وخرج الفرنج عن « دمياط » ، ونزلوا في مقبلة المسلمين ، فأرسلوا الماء عليهم ، فمنعهم من العود الى « دمياط » ، ولم يبق لهم طريق اليها ، وزحف المسلمون عليهم ، واستتدروا حولهم ، فطلبوا الامان وتسليم « دمياط » فتسلمها المسلمون في العشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة .

وكان الملك المنصور - صاحب حماه - قد توفي في ذي القعدة ، سنة سبع عشرة وستمائة . وكان ابنه الكبير « الملك المطهر » ، في نجدة خاله بدمياط ، فاستولى ابنه الملك الناصر ، على حماة ، وسير الى الاتابك شهاب الدين ، يطلب الاعتضاد به ، والسفارة بينه وبين خاله « الملك الأشرف » ، على أن ينتمي اليه ، ويخطب له ، على أن يمنع عنه من يقصده ، وروسل في ذلك ، فأجاب ، وحلف له على ذلك . ونزل « الملك الأشرف » من الديار المصرية ، ووصل الى بلاده ، وسير كتابا الى الاتابك شهاب الدين ، يتضمن أنه : لما وقع الاتفاق في الابتداء ، وعرض علي « الجبول » و « بزاعا » و « سرمين » ، أجبته الى ذلك ، ليعلم المخالف والعدو ، أن البلاد قد صارت واحدة ، والكلمة متفقة ، والآن فقد تحقق الناس كلهم ذلك ، وأثر الآن التقدم الى نواب المولى « الملك العزيز » في قبضها ، واجرائها على العادة ، وصرفها في مصالح بلاده فأجبت الى ذلك ورفع « الملك الأشرف » أيدي نوابه عنها .

وفي سنة تسع عشرة وستمئة

توجه « الملك الصالح » ابن « الملك الظاهر » الى « الشفر » و « بكاس » وأضيف اليه « الروج » و « معرة مصرين » . ورتب جماعة من الحجاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الاولى .

وفي نبي الحجة - من سنة تسع عشرة وستمئة - خرج الملك الناصر صاحب حماه الى الصيد ، فبلغ ذلك « الملك المعظم عيسى » ، صاحب دمشق ، فخرج مجدا من دمشق ، ليسبق ، صاحبها اليها فيملكها ، فانتهى الخبر الى « الناصر » ، فسبق اليها . ووصل الملك المعظم الى حماة ، فوجد الملك الناصر قد وصلها ، وفاته ما أراد . فسار الى « معرة النعمان » ، واحتوى على مغللاتها ، وسير أتابك شهاب الدين إليه ، تقدمه مع مظفر الدين بن جريدك ، الى المعرة ، فقبلها ، واعتذر بأنه إنما جاء لكتاب وصله من « الملك الكامل » ، يأمره أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنه خرج خلفه ليدركه ، فلما قرب من « حماة » ، بدا من صاحبها من الامتهان ، وعدم النزل والاقامة ما لا يليق . وتجنى عليه نذوبا لا أصل لها ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

ودخلت سنة عشرين وستمئة

فرحل « الملك المعظم » الى « سلمية » ، بعد أن رتب « بالمعرة » واليا ، ورتب « لسلمية » واليا من قبله ، وعزم على حصار « حماة » ، واستعد صاحبها للحصار ، ووكل الملك المعظم العرب ، لقطع الميرة عن حماة ، ومنع من يقصدها من الأجناد للانجاد ، وحول طريق القافلة على سلمية .

وارجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان ، قد وافق الملك المعظم ، وأنه قد صاهر صاحب « صهيون » ، وكان سيف الدين ابن قلج ، هو الذي أشار بتربيته في اللاذقية وضمه ، فسار اليه ، فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحة ، فترك سيف الدين ابن قلج بها أخاه عماد الدين ، واستصحب حسام الدين ، معه الى حلب ، فأقام الى ان زال الاستشعار من جهة « الملك المعظم » ، وردت إليه .

ووصل حسام الدين الحاجب علي - نائب الملك الأشرف في بلاده الى حلب - واجتمع بأتابك شهاب الدين ، وأعلمه أن الملك الأشرف ، كتب اليه أن يرحل الى « الملك المعظم » ، ويرحله عن بلاد « الناصر » ، ويعلم « أتابك » أن هذا الذي وقع ، لم يكن بعلم « الملك الكامل » ، ولا « الملك الأشرف » ، وأنهما لا يوافقانه على ذلك ، وسار الحاجب اليه في هذا المعنى .

ووصل « الناصح أبو المعالي الفارسي » - أحد أمراء حلب - برسالة « الملك الكامل » من مصر ، وكان قد صعد اليها الى خدمته « الملك الأشرف » ، وكان هو الحاجب بين يديه إنذاك ، والامور كلها راجعة اليه ، فقال له الناصح : « الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل ، وترك الخلاف » ، فأجاب الى ذلك ، وقرر الصلح بين صاحب حماه وبينه ، ورحل الى دمشق ، وعاد الناصح الى مصر .

ونقل السلطان الملك الظاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، الى القبة ، بالمدرسة التي ابتناها له أتابك ، ودفنه بها في أول شعبان من سنة عشرين وستمائة .

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل الى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاء « الملك العزيز » ، ونزل في خيمته ، قبلي « المقام » وشرقيه ، بالقرب من « قرنبيا » ، وكان قد صاحبه خلعه للملك العزيز من « الملك الكامل » وسنجد ، وخرج « الملك العزيز » وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك وبخل الناس الى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز ، ومد « الملك الأشرف » السمامط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة أحضر « الخلع الكاملية » ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائما في خدمته . ثم أحضر المراكوب فأركبه . وحمل الغاشية بين يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب الى القلعة .

وأقام « الملك الأشرف » ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رايه مع الأمراء على اخاب قلعة « اللاذقية » فصار العسكر اليها ، وخربوها في هذه السنة .

وتوجه الملك الأشرف الى حران ، وعصى الملك المظفر « شهاب الدين غازي » أخوه ، عليه باخلاط « وكان أخوه « الملك المعظم » ، هو الذي حملة على ذلك ، وحسنه له ، لاجل ما سبق من « الملك الأشرف » ، في نصرة صاحب حماه . فاستدعى « الملك الأشرف » عسكرا من حلب ، فصار اليه عسكر قوي فيهم : سيف الدين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بلدق ، في سنة احدى وعشرين وستمائة ، وثار الى « اخلاط » ، واتفق « مظفر الدين » - صاحب اربل - والملك المعظم صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا الى جهة « الموصل » ، وهذا الى جهة « حمص » ، ليشغلا « الملك الأشرف » عن اخلاط ، فسير « الملك الأشرف » ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقم بسنجان ، خوفا من أن يغتالها

صاحب « أربل » . وخرج « الملك المعظم » ، وأغار على بلد حمص ،
وبارين ، ووصل الى « بحيرة قدس » وعاد .

ووصل الملك الأشرف الى « اخلاط » ، فخرج أخوه وقاتله ،
فهزمه الى « اخلاط » ، وفتحها أهلها للملك الأشرف . واحتفى
الملك « المظفر » بالقلعة ، حتى عفا عنه أخوه الملك الأشرف ، وخرج
اليه ، وابقى عليه « ميافارقين » . وعاد عسـكر حلب والملك
الأشرف ، في رمضان ، وشتى الملك الأشرف بسنجار .

وانهدم في هذه السنة من سور قلعة حلب الأبراج التي تلي « باب
الجبيل » ، من حد المركز وهي عشرة أبراج ، وتساقطت مع ابدانها ،
في سلخ ذي القعدة . ووافق ذلك شدة البرد في الاربعينات ، فاهتم
« أتابك شهاب الدين » بعمارتها ، وتحصيل آلاتها ، من غير أن
يستعين فيها بمعاونة أحد ، ولازمها بذفسه ، حتى أتمها في سنة
اثنتين وعشرين وستمئة .

ومات الملك الأفضل ، « بسميساط » ، في هذه السنة في صفر ،
وحمل الى حلب ، فدفن في التربة ، التي دفن فيها أمه قبلي
« المقام » .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ووصل « محيي الدين ابو المظفر ابن الجوزي » ، الى حلب بخلعة من « الامام الظاهر » ، الى « الملك العزيز » ، وكان قد تولى الخلافة ، في سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت أبيه « الامام الناصر » ، فألبسها السلطان « الملك العزيز » ، وركب بها ، وكانت خلعة سنية ، واسعة الكم ، سوداء ، بعمامة سوداء ، وهي مذهبة ، والذؤب بالزركش . وكان قد أحضر الى « الملك الأشرف » خلعة ، ألبسه أياها ، وسار بخلعة أخرى الى « الملك المعظم » ، وخلعة أخرى ، الى « الملك الكامل » .

وكتب « الملك المعظم » خوارزمشاه ، وأطمعه في بلاده أخيه « الملك الأشرف » ، ونزل الملك المعظم من دمشق ، ونزل حمص ، وكان سير جماعة من الأعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل « مانع » ، في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الأشرف ، فانتهبوا قرى « المعرة » و « حماة » ، وقسموا البيادر ، ولم يؤدوا عدادا (٨) ، في هذه السنة ، لاحد .

ولما وصل « الملك المعظم » الى حمص ، اندفع « مانع » وعرب حلب ، والجزيرة ، الى قدسرين ، ثم نزلوا قراحصار ، ثم تركوا اظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة الى نحو حمص ، فتواقع « مانع » وعرب دمشق ، وقعات ، وجرد عسكر من حلب الى حمص ، فوصلوا اليها ، قبل ان ينازلها الملك المعظم ، فحين وصلوها اتفق وصول عسكر دمشق فاقتتلوا ، ثم دخلوا الى مدينة حمص .

وكان « الملك الأشرف » ، على « الرقة » فجاءه الخبر بحركة « كيقباز » وخروجه الى بلاد صاحب « آمد » ، وأخذ « حصن منصور » ، و « الكفتا » (٩) ، فسير « الملك الأشرف » نجدة

الى آمد ، فالتقاهم جيش « الرومي » ، وهزمهم ، فعاد الملك
الاشرف الى « حران » وخرج من بقي من عسكر حلب الى حاضر
« قنسرين » لانجاد صاحب حمص .

ووقع الفناء في عسكر « الملك المعظم » وماتت دوابهم ، وكثر
المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من السنة
وسار « الملك الأشرف » ، عند ذلك بنفسه الى دمشق ، واجتمع
باخيه « الملك المعظم » قطعاً لمائة شرّه ، وزينت دمشق لقدم الملك
الأشرف ، وعقدت بها القباب ، وأظهر الملك المعظم السرور بقدومه ،
وحـ_____كمه في مـ_____اله ، وبـ_____اطنه
ليس كظاهره ، ورسله تتردد إلى « خوارزمشاه » في الباطن ،
وجاءته خلعة من « خوارزمشاه » فلبسها .

وكانا لما انقضى شهر رمضان ، قد خرجا عن دمشق ، إلى
« المرح » ، وورد عليهما رسولا حلب : القاضي زين الدين ابن الاستاذ
نائب القاضي بهاء ، ومظفر الدين بن جورديك ، يطلبان تجديد
الايمان « للملك العزيز » ، و« أتابك » .

فوجد « الملك الأشرف » ، وقد أصبح مع « الملك المعظم » ، بمنزلة
التبع له ، ويطلب مداراته بكل طريق ، وهو لا يتجاسر أن ينفرد بهما
في حديث ، دون الملك المعظم ، « الملك المعظم » يشترط شروطاً
كثيرة ، والمراجعات بينهما وبين أتابك إلى حلب مستمرة مدة
شهرين .

إلى أن وردت الأخبار بنزول « خوارزمشاه » على « اخلاط » ،
ومحاصرتها ، وفيها « الحاجب علي » - نائب الملك الأشرف -
فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام من بها من أهلها وجندها ،
وأخرجوهم منها ، كرّها .

فوافق الملك الأشرف أخاه ، على ماطلبه منه ، واستدعى رسولي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن « خلاط » .

وشتى الملك المعظم ، والملك الأشرف « بالغور » ، وضحى « الملك الأشرف » كالأسير في يدي أخيه « الملك المعظم » ، لايتجاسر على أن يخالفه في أمر من الأمور ، وهو يتلون معه ، وكلما أجابه « الملك الأشرف » إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى أن دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الأشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لا يأمّن من جهته من أمر يكرهه ، لانه أصبح في قبضته .

واتفق وصولي من الحج ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني « الملك الأشرف » ، وحملني رسالة إلى أتابك شهاب الدين ، مضمونها ما قد وقع فيه مع أخيه .

« وأنه يتلون معه ، تلون الحرباء ، ولايثبت على أمر من الأمور ، وإن آخر ما قد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له أتابك على مساعدته ومعاوضته ، وأن لا يوافق الملك الكامل عليه ، وأنه متى قصده الملك الكامل ، كان عوناً له على الملك الكامل » .

فلما أبلغت « أتابك » ما قال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال : « أنا حلفني الملك الأشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لأهابن أحدا من الملوك على قضية إلا بأمره ، فإذا أراد هذا مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك » .

وحين رأى « الملك الأشرف » وقوعه في أنشـوطة أخيه ، وأن لا مخلص له إلا بما يريده ، ساعده على كل ماطلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبي حماة وحمص ، فاطمأن الملك المعظم إلى ذلك ، ومكن الملك الأشرف من الرحيل ، فسار إلى « الرقة » ، في جمادى الآخرة من السنة ،

فرجع « الملك الأشرف » عن جميع ما قرره مع أخيه ، تأول في أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرها عليهما ، وأنه علم لا ينجيه من يدي أخيه إلا موافقته فيما طلب ، وندم « الملك المعظم » على تمكينه من الانفصال عنه ، وسير العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الأنبرور - ملك الفرنج - إلى عكا ، في جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في « الملك المعظم » حينئذ وأرسل إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ، فلاطف حينئذ ، أخاه « الملك الأشرف » ، وأرسل إليه يطلب موافقته ، فعذفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله . ومرض « الملك المعظم » بدمشق ومات سلخ ذي القعدة .

وفي هذه السنة ، سلمت عين تاب ، والراوندان ، والزوب ، إلى « الملك الصالح » ابن الملك الظاهر ، وأخذ منه « الشجر » و« بكاس » ، وما كان في يده معها .

وبدل الحاجب ، في هذه السنة ، وجمع من قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح « خوي » ، و« سلماس » ، وأخذ زوجة أزبك - وكانت في خوي - وهي التي سلمت خوي إليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسير الملك الناصر ، إلى عمه الملك الأشرف ، يعتضد به ، ويستمسك بسنيله ، مع ابن موسك . فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ليأتي إلى دمشق ، فصار إليه إلى دمشق .

ونزل « الملك الكامل » ، فخيم بطل العجول في مقابلة الفرنج ، وسير الملك الأشرف إليه ، « سيف الدين بن قلج » يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : « إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك » . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

وأما الملك العزيز ، فإنه في هذه السنة ، جلس في « دار العدل » في منصب أبيه ، ورفعت إليه الشكاوى ، فأجاب عنها ، وأمر ونهى ، وكان يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجمع ليلا ، ويتكلمون في المسألة بين يديه .

وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ومقدمي البلد ، وأرباب المناصب ، وعمل عيدا عظيما ، احتفل فيه ، ولم يعمل بحلب عيد منذ مات « الملك الظاهر » ، قبل هذه السنة .

ووصل « الأنبرور » إلى عكا ، وخيم الملك الكامل « بالعوجا » . وتوجه الملك الأشرف ، إليه من دمشق ، فجدد الأيمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر سنة ست وعشرين وستمئة ، فنزلت في « الغور » .

وصالح « الملك الكامل » الفرنج على أن أعطاهم مدينة « القدس » - سوى الصخرة والمسجد الأقصى - وليس لهم في ظاهرها حكم وأعطاهم « بيت لحم » ، وضياعا في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالمالك الناصر ابن الملك المعظم ، فقال له : « إنني قد جدت جدتي في أمرك بالمالك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، وكان آخر ما انتهى إليه أن قال : يعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخذ أنت دمشق .

فعلم الملك الناصر ، أنهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيدك المعظمي معه ، فأشار عليه بالرحيل إلى دمشق ، ففوض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى إلى دمشق ، وشرع في تحصينها ، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقادوا أشد

الملك الناصر - وكان نازلا بمجمع المروج - فحبسه عنده الى أن سلمها إلى أخيه ، وأعطاه « بارين » . وسار الملك الكامل إلى الرقة .

ونزل خوارزمشاه على « أخلاط » ، ووافق ابن زين الدين ، في الباطن ، وصاحب آمد في الظاهر ، وخطب له ، وضاق الأمر بأهل « أخلاط » ، فطلبوا الأمان فلم يجيبهم إلى ذلك ، وافتتحها في ثامن وعشرين من جمادى الأولى ، من سنة سبع وعشرين وستمئة ، ووضع السيف في أهلها ، وسبى النساء والصبيان .

وفي ثامن جمادى الأولى ، ولد للسلطان « الملك العزيز » ، مولود من جارية ، وسماه باسم أبيه ، ولقبه بلقبه « الملك الظاهر غازي » ، وزين المدينة ، وعقد القباب ، ولبس العسكر في أتم زينة وهيئة ، وعمل الزورق من القلعة إلى المدينة ؛ ونزل الناس فيه ، وانقطعت بكرة برجل منهم ، فوقع في سفح القلعة ، فمات ، فبطل الملك العزيز الزورق .

وولد له أيضا في هذه السنة ، ولد آخر لقبه « بالملك العادل » . وولد له أيضا في هذه السنة ، « السلطان الملك الناصر » وهو الذي أوصي له بالملك ، بعد أن مات الولدان المتقدمان .

واتفق الملك الكامل ، والملك الأشرف ، وملك الروم كيقيباذ ، على خوارزمشاه وطلب الملك الأشرف نجدة من حلب ، فسير الملك العزيز وأتابك ، عسكرا يقدمه « عز الدين بن مجلي » ، فدخل الملك الأشرف ، واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية « أرزنكان » ؛ واصطفت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبت ريح عاصفة في وجهه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفا ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا ، وصار « الملك الأشرف » إلى « أخلاط » ، فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

وكان للفرننج حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية « المرقب » ، ونهبوا حصن بانياس ، وخربوه ، وسيروا أسرى إلى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرننج وقعة أخرى ، قتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربيع فيها للمسلمين ، وسيرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

واحتبس الغيث في حلب ، وارتفعت الأسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على « بانقوسا » ، فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، وانحطت الأسعار قليلا .

واستقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية ، والاسبطار ، في العشرين من شعبان من السنة .

واستقل السلطان الملك العزيز بملكه ، في هذه السنة ، وتسلم خزائنه من « أتابك شهاب الدين » ، ورتب الولاية في القلاع ، واستحلف الأجناد لنفسه ؛ وخرج بنفسه ، ودار القلاع والحصون ، وركب أتابك شهاب الدين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب الناس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظاهر ، إلا هذه المرة ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السلطان « الملك العزيز » بابنة الملك الكامل ، وبقي « أتابك » مدة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السنة ، خطيب القلعة وابن خطيبها « زين الدين عبد المحسن بن محمد بن حرب » ، ومال إليه بجملته .

وسير الملك العزيز القاضي بهاء الدين ، في هذه السنة في شـوال ، إلى مصر ، لاحتضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها « الملك الكامل » ، إلى دمشق ، وسيرها من دمشق صحبتته ، وأصحابها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العساكر ، وخرج وزيره ، وأعيان دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابر أهل حلب أيضا ، والتقتها والدته السلطان عمتها من « جباب التركمان » ، والتقاها بقية العساكر ، « بتل السلطان » ، والتقاها أخو السلطان « الملك الصالح » ، في عسكره ، وتجمله ، وعادت العساكر في تجميلها ، واصطففت أطالبا طلبا بعد طلب ، في «الوضيحي» . وخرج السلطان إلى «الوضيحي» .

ودخل مع زوجته ، ليلا إلى القلعة المنصورة ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محدسبها « مجد الدين بن العجمي » ، لأن السعر كان مرتفعا ، وقد بلغ الرطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحط السعر كان في تقايم الغلة ، إلى أن بيع الرطل بخمسة ونصف ، فركب نائب المحتسب وسعره ، وهموا بقتل نائبه ، وخربوا الدكة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها ، فنزل والي البلد ، والأمير « علم الدين قيصر » ، وسكنوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر « الكمال بن العجمي » ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهموا به مرة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدم الأحداث ، وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وداوم « الملك العزيز » الخروج إلى الصيد ، ورمي البندق بذواحي « العمق » وغيرها ، وحسن له جماعة من أصحابه ، أن يسير إلى قلعة « تل باشر » ، ويستولي عليها ، وينزعها من ذواب أتاكه

« شهاب الدين طغرل » ، وأن يبقي عليه رستاقها ، وأن لا يكون شيء من القلاع إلا بيده ، فذمى الخبر إلى « أتابك » ، فسير إلى الوالي ، وأمره أن لا يعارضه في القلعة ، وأن يسلمها إليه ، وكان له بها خزانة ، فاستدعاه ، وخرج السلطان إلى « عزان » ، وكانت في يد والدته أخت « الملك الصالح » ، وأولادها بني « الطنبغا » ، عوضهم بها « أتابك » عن « بهسنى » ، بعد قتل الرومي كيكافوس الطنبغا ، فصعد إلى قلعتها ، وولى بها واليا من قبله ، وأبقى عليهم ما كان في أيديهم من بلدها .

ثم سار السلطان من « عزان » إلى « تل باشا » ، وصعد إلى القلعة ، وولى فيها واليا من جهته ، وانتزعها من أيدي ذواب أتابكه . وبلغه أخذ الخزانة ، من « تل باشا » ، فسير من اعترض أصحاب « أتابك » في الطريق ، فأخذ الخزانة منهم ، وكان يظن أن بها مالا طائلا ، فلم يجد الأمر كما ذكر ، فأعادها على أتابك ، فامتنع من أخذها ، وقال : « أنا ما ابخرت المال إلا لك » ، ثم دخل السلطان إلى حلب ، وكان ذلك كله ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمئة .

ثم إن السلطان « الملك العزيز » ، خرج في خرجاته ، لرمي البندق إلى « حارم » ، وتوجه منها إلى « دركوش » ثم إلى « أفامية » ، في سنة ثمانين وستمئة ، فلم يحتفل به لبلده صاحب « شيزر » شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين .

وأنفذ إليه إقامة يسيرة - وهي شيء من الشعير على حمير ، سخرها من بلد شيزر - فشق عليه ذلك . فلما دخل حلب استدعى « سيف الدين علي بن قلج الظاهري » ، وسيره إلى الملك الكامل ، ليستأننه في حصار « شيزر » ، وأخذها ، وكانت مضافة إلى حلب ، وإنما خاف أن يلقي صاحبها نفسه على « الملك الكامل » ، فيشفع إليه في أمره ، فلا يتم له ما يريد ، فصعد « سيف الدين » إلى دمشق ، وقرر مع الملك الكامل ، الأمر على ما اختاره « الملك العزيز » ؛ وسير

إلى السلطان الملك العزيز ، وأعلمه بذلك ، فأخرج العسـكر ،
والزريخاناه « ، ونزل العسكر على « شيزر » ، واحتاط الديوان ،
على مافي رستاق « شيزر » من المغلات .

ووصل « سيف الدين بن قلع » من دمشق ، وخرج السلطان
بنفسه ، فنصب عليها المناجيق ، من جهة الجبل ، وترك المنجنيق
المغربي ، قبالة بابها ، وسير إلى صاحبها ، وقال له : « والله لئن
قتل واحد من أصحابي ، لاشدقنك بدله » . فتقدم إلى الجرخية
بالقلعة ، أن لايرمي أحد بسهم ، وتبدل ، وأسقط في يده .

وأرسل « الملك الكامل » إلى السلطان نجابين ، ومعهما خمسة
الاف دينار مصرية ، ليستخدم بها رجالة ، يستعين بهم على حصار
« شيزر » .

وقدم اليه الى شيزر « الملك المظفر محمود » --صاحب حماه--
وأرسل اليه صاحب شيزر ، يبذل له تسليهما ، على أن يبقي عليه
أمواله ، التي بها ، ويحلف له على أملاكه ، بحلب ، فأجابه إلى ذلك
ونزل من شيزر إلى خدمة السلطان ، وسلمها اليه ، ووفى له
السلطان بما اشترطه ، وصعد السلطان الى القلعة ، وأقام أياما
بشيزر ، ثم دخل إلى مدينة حلب .

ومرض أتابك « شهاب الدين طغرل بن عبد الله » في أواخر هذه
السنة ، ودام مرضه ، إلى أن مات ، ليلة الاثنين الحادية عشرة ،
من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وحضر السلطان الملك العزيز،
ومحمد ابن الملك الظاهر ، جنازته ، صبيحة الليلة المذكورة .
ومشى خلف جنازته ، من داره إلى أن صلي عليه خارج « باب
الأربعين » ودفن بتربته ، التي أنشأها «بتل قيقان » ، ووقفها
مدرسة على أصحاب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبكى
السلطان عليه بكاء عظيما ، وحضر عزاءه ، يومين بعد موته ،
بالمدرسة التي أنشأها « أتابك » وجعل فيها تربة للسلطان الملك
الظاهر - رحمهم الله - وفي هذه السنة :

فرجع « الملك الكامل » ، وخرج إلى طرف بلد « بهسنى » ، ونزل على بحيرة أنزنيت ، ووصل إليه صاحب خرتبرت ، ودخل في طاعته ، وأشار عليه بالدخول من جهته ، فسار إلى ناحية « خرتبرت » .

ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طائفة من عسكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفر - صاحب حماة - وشمس الدين صواب ، فكسر العسكر الكامل ، واعتصم من نجا منهم « بخرتبرت » . فحاصروهم ملك الروم إلى أن نزلوا بالأمان ، وأطلقهم ، واستولى « كيقبان » على « خرتبرت » ، وعفا عن صاحبها ، وعوضه عنها بأقطاع في بلاده .

ومرض « الملك الزاهر » في العسكر ، فحمل مريضاً إلى « البيرة » ، وقوي مرضه ، وطمع بعض بعض أولاده بملكها ، وشرع في تحصينها وتقويتها ، وبلغ « الملك الزاهر » ذلك ، فسير إلى السلطان « الملك العزيز » ، واستدعاه إليه ، وأصعده إلى القلعة ، وأوصى إليه بالقلع التي في يده ، والخزائن وعين لأولاده شيئاً من ماله ، « بالبيرة » ، والسلطان بها عنده ، في أوائل صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وأقام السلطان بها يرتب أحوالها ، وأقام فيها والياً من قبله ، فاتفق وفاة القاضي بهاء الدين بحلب ، في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وطلب « الكمال ابن العجمي » قضاء حلب ، وكاتب السلطان في ذلك فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من « البيرة » إلى « حارم » ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى « حارم » ، فمنعه الدخول إليه ، وبذل له في قضاء حلب ستين ألف درهم ، وأن يحمل في كل سنة ، للسلطان ، من فواضل أوقاف الصدقة ، ومن كتابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السلطان إلى شيء من ذلك ، وكتب

إلى القاضي زين الدين ، كتابا يأمره بأن يحكم بين الناس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل إلى المدينة ، فلما دخل السلطان اجتهد « ابن العجمي » في قبول ما بذله ، وبذل شيئا كثيرا غير ذلك ، لخواص السلطان ، وحسنوا للسلطان قبول ما بذله ، وإجابته إلى ما سأله ، فجرى على مذهب أبيه وجده في الاحسان ، ولم يبيع منصب النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأثمان ، ونظر في مصلحة الرعية ، وأرضى الله ونبيه ، وقلد القضاء بمدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وستمئة ، القاضي زين الدين أبا محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن علوان - المعروف بابن الأستاذ - وكان نائب القاضي بهاء الدين في الحكم .

وأما الملك الكامل ، فانه عاد في تلك الجيوش العظيمة ، ولم يحظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، وحال بين الفريقين ، وعاد كل إلى بلاده ، ولما خرج فصل الشتاء ، خرج « علاء الدين كيقباز » إلى الجزيرة ، والرها ، والرقه ، وسبى عسكره أهل البلاد كما يسبى الكفار ، وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمئة ، وسار « الملك الكامل » نحوها ، فاندفع ملك الروم ، فعاد « الملك الكامل » ، واستولى على البلاد ، وخرّب قلعة الرها وبلادها ، وسير إليه السلطان العسكر إلى الشرق ، والزبدخاناه ، وذلك في الجماديين ، سنة ثلاث وثلاثين وستمئة .

ودام « الملك العزيز » ، في ملكه بحلب ، وسمت همته إلى معالي الأمور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم إلى أن دخلت سنة أربع وثلاثين وستمئة ، فغضب على وزيره « زين الدين بن حرب » ، وألزمه داره بقلعة حلب ، وولى الديوان مكانه ، الوزير « جمال الدين الأكرم أبا الحسن علي بن يوسف القفطي الشيباني » .

وخرج في أواخر شهر صفر إلى « النقرة » ، ثم توجه منها إلى «

حارم ، ، وحضر في الملقه (١٠) ، لرمي البندق ، واحتاج الى أن اغتسل بماء بارد ، فحم ، وبخل إلى حلب ، فالتقاه الناس ، وهو موعوك ، ودامت به الحمى ، الى أن قوي مرضه ، واستحلف الناس لولده الملك « الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز » . وسيرني إلى أخيه « الملك الصالح » إلى عين تاب ، يستحلفه له ، ولابنه « الملك الناصر » ، وعدت ، وقد مات ، في شهر ربيع الأول ، من سنة أربع وثلاثين وستمئة .

وتولى تدبير دولته الأميران : شمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعز الدين عمر بن محلى ووزير الدولة القاضي « جمال الدين الأكرم » و« جمال الدولة اقبال الخاتوني » ، يحضر بينهم في المشورة .

واذا اتفق رأيهم على شيء ، دخل جمال الدولة إقبال الخاتوني ، إلى جدة السلطان « الملك الناصر » ، والدة « الملك العزيز » ، وعرفها ما اتفق رأي الجماعة عليه ، فتأذن لهم في فعله ، والعلامات على التواقيع ، والمكاتبات إلى السستر العالي الخاتوني ، والدة الملك العزيز . فاتفق رأيهم ، على أن سيروا القاضي زين الدين - قاضي حلب - والأمير بدر الدين بدر بن أبي الهيجاء ، إلى مصر ، رسولين إلى « الملك الكامل » ، ليحلفاه « للملك الناصر » ، ويدوثقا من جهته ، واستصحبهما معهما كزاغند السلطان الملك العزيز ، ووربيته ، وخونته ، ومركوبه .

فلما وصلا إليه ، أظهر الألم والحزن لموته ، وقصر في إكرامهما وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على الوجه الذي اقترح عليه ، وخاطب الرسولين بما يشيران به ، عنه ، من تقدمه « الملك الصالح ابن الملك الظاهر » ، على العسكر ، وأن تكون تربية « الملك الناصر » إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتفق بعد ذلك بمدة ، أن سير الملك الكامل خلعة للملك الناصر ، بغير مركوب ، وسير عدة خلع لامراء الدولة ، وسير مع رسول مفرد

خلعة « للملك الصالح » ، على أن يجيء إليه إلى « عين تاب » ، فاستشعر أرباب الدولة التدبير من ذلك ، وحصل عند جدة السلطان وحشة من ذلك . واتفق رأيهم ، على أن لبس السلطان خلعته ، ولم يخلع على أحد من الأمراء شيء ، مما سيره لهم ، وردوا الرسول الوارد إلى الملك الصالح بخلعته ، ولم يمكنوه من الوصول إليه ، واستودشوا من جهة « الملك الكامل » .

وكان « الملك الأشرف » ، قد تتابعت من أخيه ، « الملك الكامل » أفعال أوجبت ضيق صدره ، وكان يغض على نفسه ، ويحتملها ، فمناها أنه أخذ بلاده الشرقية ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعددة .

واتفق أن « كيقباز » ملك الروم ، أخذ « خلاط » ، فضايق ما في يد « الملك الأشرف » جدا ، وكان ينزل إليه في كل سنة إلى دمشق ، في عبوره إلى الشرق ، فيقيم بدمشق مدة ، فيحتاج « الملك الأشرف » ، في ضيافته إلى جملة .

وقبض على أملاكه التي كانت له بحران ، والرقعة ، وسروج ، والرهما ، ورأس عين ، وعلى جميع تمليكاته التي ملكها بتلك الناحية ، وفتح آمد ، وهو في صحبته ، فلم يطلق له من بلاده شيئا ، وخذله في انتزاع « خلاط » من يد « الرومي » ، فاتفق هو ، والملك المجاهد - صاحب حمص - والملك المظفر - صاحب حماة - وعزموا على الخروج عليه ، وعين لكل واحد منهم شيء من بلاده ، وأرسل إلى الملكة « الخاتون » والأمراء بحلب ، وطلبوا موافقتهم على ذلك ، وخوفوهم من جهته ، وذكروا ما تمتد أطماعه إليه فوافقوهم . وتحالفوا عليه ، وسيروا رسلا من جهتهم إلى ملك الروم « كيقباز » ؛ يطلبون منه مثل ذلك . فوصلوا إليه ومات « كيقباز » ، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه « كيخسرو » ، فحلف لهم على ذلك .

واتفقوا كلهم على أن أرسلوا رسلا من جهتهم ، إلى « الملك

الكامل ، ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : « إننا قد اتفقنا كلنا ، ونطلب منك أنك لاتعود تخرج من مصر ، ولاتنزل إلى الشام » ، فقال لهم : « مبارك أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ، احلفوا أنتم أيضا لي : أن لاتقصدا بلادني ، ولاتتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون » . ونزل رسوله ، ومرض « الملك الأشرف » ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات - على ماذكره - .

ومما تجدد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمائة : أن « شهاب » النين «صاحب شيزر» ، و«كمال الدين عمر بن العجمي» ، اتفقا ، على أن سيرا من جهتهما رجلا ، يقال له « العز ابن الاطغاني » إلى دمشق إلى « الملك الأشرف » ، وحدثاه في أن يقصد حلب ، وأنهما يساعداه بأموالهما ، وأوهمه صاحب « شيزر » أن معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أن أقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيين ، يتابعونه ، ويشايعونه ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على « الملك الأشرف » ، أن يوليه قضاء حلب .

فمضى رسولهما إلى « الملك الأشرف » ، واجتمع ببعض خواصه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابهما بأنه : « لاتتصور أن يبدو مني غدر ، ولا قبيح في حق أحد ذرية الملك الظاهر » ، وأخبرني « فلك النين بن المسيري » أنه هو الذي كان المتكلم بين « الملك الأشرف » ، وبين رسولهما .

ونمي هذا الخبر إلى الملكة ، والأمراء ، فسيروا من يوقف الرسول واتفق وصوله إلى حلب « فقبض في « باب العراق » ، وأصعد إلى القلعة ، وسئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فسه ، فحبس الرسول ، وحاقت لحيته ، وسير إلى « دربساك » ، وحبس بها ، وأصعد « ابن العجمي » ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقلعة ، وأخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يتعرض لأموال ابن

العجمي ، تطييبا لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى أن مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستمئة وأطلقا .

ومما حدث أيضا ، في سنة أربع وثلاثين ، أن أميرا من التركمان ، يقال له « قنغر » جمع إليه جمعا من التركمان ، بعد موت « الملك العزيز » ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية « قورس » ، وغيرها ، ونهب ضياعا متعددة ، وكان يغاز (١١) ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر « ملك الروم » ، فسيروا رسولا إلى ملك الروم ، في معناه ، فأذكر ذلك ، وأمر برد مأخذه ، من بلد حلب ، فرد بعضه ، واذكف عن العيث والفساد .

وبذل « ملك الروم » من نفسه الموافقة ، والنصرة « للملك الناصر » وكف من يقصد بلاده بأذى ، فسير له تقدمه سنية ، من حلب على يد « شرف الدين بن أمير جاندار » ، فأكرم الرسول إكراما كثيرا ، وسيرا إليه رسول في الباطن ، وهو أوحى الدين - قاضي خلاط - فاستحلفه على الموالاة « للملك الناصر » ، والذب عن بلاده ودفع من يقصدها .

واتفق أيضا ، في هذه السنة ، تحرك الداوية ، من « بغراس » ، وأغاروا في بلد « العمق » ، واستاقوا أغناما للتركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . فخرج « الملك المعظم بن الملك الناصر » يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على « بغراس » وحصروها مدة ، حتى ثغروا مواضع من سورها ، ونفذ ما فيها من الخبائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسير البرنس - صاحب أنطاكية - وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضبا لهم ، فرأوا المصلحة في إجابته الى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداوية ، على « بغراس » ورحلوا عنها ، ولو أقاموا عليها يومين آخرين ، لما استطاع من فيها الصبر على المدافعة

وسار العسكر عن « بغراس » ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ،
خرابا شنيعا ، ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من « دربساك » ،
فجمع « الداوية » جموعهم ، واستنجدوا بصاحب « جبيل » وغيره ،
من الفرنج ، وجمعوا راجلا كثيرا ، وساروا من جهة حجر « شغلان »
إلى « دربساك » ، ظنا منهم أن يكبسوا الربض ، على غرة من
أهله ، وأن ينالوا منه غرضا ، فاستعد لهم من بالربض من
الأجناد ، ونزل جماعة من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ،
قتالا شديدا ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل
الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب
الفرنج ، وكلت خيولهم ، فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة
شنيعة ، وقتل منهم خلق عظيم ، واستولى المسلمون على فارسهم
وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدمين واختبأ منهم جماعة من
الخيالة ، وغيرهم ، خاف الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج
منهم إلا القليل ، وبخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب ، وكان يوما
مشهودا وحبسوا في القلعة ، ثم أنزلوا إلى الخندق . وقتت هذه
الوقعة في أعضاد « الداوية » ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ،
وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

ومات في هذه السنة « علاء الدين كيقباز » - ملك الروم -
بقيصرية ، في أوائل شوال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة ،
وسيرت رسولا إلى ابنه « غياث الدين كيخسرو » ، القائد في الملك
بعده ، بالتعزية ، وتجديد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع
أبيه ، فحلفته على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على « قيرخان » - مقدم الخوارزمية - فهرب من
بقي منهم ، من بلاد الروم ، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه ،
وعبروا الفرات ، واستمالهم الملك الصالح بن الملك الكامل ،
واقطعهم مواضع في الجزيرة .

وتوفي « الملك الأشرف » بدمشق ، لأربع خلون من المحرم ، من

سنة خمس وثلاثين وستمئة . وأوصى بها لأخيه « الملك الصالح اسماعيل » ، وجدد الأيمان مع الجماعة ، الذين كانوا وافقوا أخاه « الملك الأشرف » .

فخرج « الملك الكامل » من مصر ، وقصد دمشق ، وسير من حلب نجدة الى دمشق وكذلك سير « الملك المجاهد » ولده « المنصور » اليها ، ونزل « الملك الكامل » على دمشق ، وحصرها مدة ، فرجع « الملك المظفر » - صاحب حماة - عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل ، وأطلعه على جميع الأحوال ، ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف ، وطلب من صاحب حمص « سلمية » ، لتجري الموافقة على ماكان عليه .

فسيرت من حلب ، ومعها الأمير « علاء الدين طيغا الظاهري » ، ليوفق بين صاحب حمص وصاحب حماة ، فأبى كل واحد منهما ، أن يجيب صاحبه إلى مايريد . وكان مطلوب صاحب حماة أن يعطيه صاحب حمص « سلمية » والقلعة التي جردها « الملك المجاهد » المعروفة « بشميميس » (١٢) . فقال « الملك المجاهد » : « هذه ثمينة لي ، وقد حلف لي على كل مابيدي » ، وأبى أن يجيبه إلى ذلك .

فعبنا إلى « حماة » ، وذكرنا لصاحبها مقالة « الملك المجاهد » ، وأن في مايحاوله نقضا للعهد ، فقال : هو قد نقض عهدي ، واستفسد جماعة من عسكري ، وعدله ذنوبا لا أصل لها ، وقال : « لا بد من قصده ، وإذا نزل الملك الكامل على حمص ، نزلت معه عليها وفعلت ما يصل إليه جهدي . ولكن حلب ، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها ، ولا أرجع عن اليمين التي حلفت بها للاستتر العالي ، والملك الناصر » .

فقلت : « فالأولى يعلم ماجرى بيننا وبين صاحب حمص ، من الأيمان ، وما نقض منها عهدا ، وإذا وصل عسكري من حلب لنجدته ، فكيف يفعل المولى » ؟ فتلجلج ، وقال : « أنا أقاتله ، ومن

قاتلني قاتلته » . فكتبنا بذلك إلى حلب ، فجاء الأمر بالتوجه إلى حلب ، فسرنا في الحال من غير توبيع ، حتى وصلنا العبادي ليلة الاثنين ، مستهل جمادى الأولى ، من سنة خمس وثلاثين وستمئة ، فلحقنا «المهماندار» (١٣) بالخلع والتسفير ، فلم نقبل منه شيئا ، ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء ، فتحقق أنه قد داخل « الملك الكامل » ، وأنه يطالعه بالمتجددات جميعها •

وأما دمشق ، فإن « الملك الكامل » ، لازم حصارها ، حتى صالحه « الملك الصالح » ، على أن أبقى له بعلبك ، وبصرى ، وأخذ منه دمشق ، في تاسع عشر جمادى الأولى ، من السنة ، ولم يتعرض لنجدة حلب ، وحمص بسوء ، وخرجوا من دمشق إلى مستقرهم . ووصل « الناصح » ، وعسكر حلب ، إلى حلب ، واستدعى « الملك المعظم » ، وأقارب السلطان والأمراء ، وحلفوا للسلطان « الملك الناصر » ، و« الخاتون الملكة » ، على طبقاتهم ، ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ، ورؤساؤها . ثم حلف الأجناد والعمامة ، واستعد الناس للحصار بالذخائر ، والأقوات ، والحصص ومايجري مجراه ، ونقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد ، واستخدم جماعة من الخوارزمية ، وغيرهم .

ووصل « قنغر التركماني » ، فاستخدم بحلب ، وقدم على التركمان . وقفز جماعة من العسكر الكامل إلى حلب ، فاستخدموا ، وتتابع الرسل إلى « ملك الروم » ، لطلب نجدة ، تصل إلى حلب ، من جهته ، فسير نجدة من أجود عساكره ، وعرض عليهم أن يسير غيرها ، فاكتفوا بمن سيره .

وسير ملك الروم رسولا إلى « الملك الكامل » ، يخاطبه في الامتناع عن قصد حلب ، فأمر بالتبريز من دمشق ، لقصد حلب ، وأخرج الخيم والأعلام ، فمرض ، ومات بدمشق ، في قلعتها ، في حادي وعشرين ، شهر رجب ، من سنة خمس وثلاثين وستمئة ، ووصل خبر موته ، فعمل له العزاء بحلب ، وحضره السلطان « الملك

الناصر « ، يومين ، وأمر العسكر في الحال ، بالخروج إلى معرة النعمان ، فخرج ، نازل معرة النعمان ، مع « الملك المعظم » ، ووصل رسول « الملك المظفر » - صاحب حماة - يتلطف الحال ، فلم يلتفت إليه ، ولم يستحضر . وسيرت المجانيق ، ونصبت على قلعة المعرة .

ووصل في أثناء ذلك ، رسول من السلطان « غياث الدين كاخسرو » يطلب الوصلة إلى « الخاتون » ، بأن تزوجه بنت السلطان « الملك العزيز » ، أخت السلطان « الملك الناصر » ، وأن يزوج السلطان الملك الناصر ، أخت السلطان « غياث الدين » ، واستقر الأمر على ذلك ، واجتمع الناس في دار السلطان ، بالقلعة ، وعقد عقد السلطان « غياث الدين » على الست « غازية خاتون » . وتوليت عقد الزكاح ، على مذهب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - لصغر الزوجية ، على خمسة عشر ألف دينار ، وقبل الزكاح ، عن السلطان « غياث الدين » الرسول الواصل من جهته ، « عز الدين » - قاضي دوقات (١٤) - حينئذ - ونثر الذهب ، عند الفراغ من العقد .

ووصل ، عند ذلك ، الخبر بفتح « معرة النعمان » ، في تلك الساعة ، على جناح طائر - وضربت البشائر للأميرين ، وذلك في تاسع شعبان (١٥) من سنة خمس وثلاثين وستمئة .

وسار العسكر فنازل « حماة » ، وابتنى صاحبها سورا من اللبن على حاضرها ، من جهة القبلة ، ونهب عسكر حلب بلد « حماة » ورستاقها .

ووصل رسول من الملك « الصالح بن الملك الكامل » ، يشفع في صاحب حماة ، فلم يجب إلى سؤاله فيه ، واعتذر إليه بما بدا منه ، وطلب الرسول ، عن صاحبه ، الموافقة والمعاضدة ، وأن يسفروا في الصلح ، بينه وبين « ملك الروم » ، فأجيب جوابا ، لم يحصل منه على طائل .

ووردت الرسل من مصر ، من الملك العادل ، والملك الكامل ، يطلبون منه الموافقة ، بينه وبين صاحب حلب ، وأن يجروا منه ، على عادة أبيه ، في الصلح ، وإقامة الدعوة له بحلب ، فلم يجب الى شيء من ذلك ، ورجعت الرسل بغير طائل .

وفي هذه السنة ، قبض على « قنغر التركماني » ، وحبس بقلعة حلب ، ونهبت خيمه ودوابه .

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي ، وكان في عزم « كيخسرو » التوجه إلى ناحية « قونية » ، فتعوق بسببي ، وسير بولقا إلى « أقجا » دربند ، قبل وصولي « ابلستان » يستحثني على الوصول ، ويعرفني تعويقه بسببي ، ثم سير بولقا آخر ، فوصل إلى تحت « سمندو » يستحثني على الوصول .

فأسرعت السير ، حتي وصلت إلى « قيصرية » ، والسلطان في « الكيقبانية » ، فاستدعاني إليه ، ولم أنزل « بقيصرية » ، واجتمعت به ، عند وصولي ، يوم الثلاثاء ، سادس عشر شوال ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ووقعت الاجابة إلى عقد العقد ٥ ووكل السلطان « كمال الدين كاميار » ، على عقد العقد معي ، على أخته « ملكة خاتون بنت كيقباز » . ودخلنا في تلك الساعة إلى « قيصرية » ، وأحضر قاضي البلدة ، والشهود ، وعقدت العقد مع « كاميار » ، على خمسين ألف دينار سلطانية ، مثل صداق « كيخسرو » ، الذين كتب عليه لاخت السلطان « الملك الناصر » .

وأظهر في ذلك اليوم من التجميل ، وآلات الذهب ، والفضة ، مالا يمكن وصفه . ونشرت الدنانير الواصلة ، صحبتي ، وكانت ألف دينار ، ونثر في دار السلطان من الذهب ، والدراهم ، والثياب ، والسكر ، شيء كثير . وضربت البشائر في دار السلطان ، وأظهر من السرور والفرح ، مالا يوصف .

وسيرت ، في الحال ، بعض أصحابي إلى حلب ، مبشرا بذلك

كله ، فضربت البشائر بحلب ، وأفيضت الخلع على المبشر ، وعدت إلى حلب ، فدخلتها يوم الخميس ، تاسع ذي العقدة ، والتقاني السلطان « الملك الناصر » - أعز الله نصره - يوم وصولي .

هذا كله ، والعسكر الحلبى محاصر « حماة » . وكان قبل هذا العقد ، سير السلطان « كيخسرو » الأمير « قمر الدين » الخادم - ويعرف بملك الأرمن - رسولا إلى حلب ، وعلى يده توقيع من السلطان « الملك الناصر » ، بالرها ، وسروج . واتفق الأمر معه ، على أن خطب له الملك « المظفر شهاب الدين غازي » - ابن الملك العادل - وأقطعه حران ، وأقطع « الملك المنصور » - صاحب ماربين - سنجار ، ونصيبين ، و« الملك المجاهد » - صاحب حمص - عانة ، وغربا من بلد الخابور ، وكانت هذه البلاد في يد « الملك الصالح بن الملك الكامل » . واتفق الأمر ، على أن يأخذ السلطان « كيخسرو » أمد ، وسميساط ، وأعمالها .

وكان « الخوارزمية » ، قد خرجوا على « الملك الكامل » ، واستولوا على البلاد ، وهرب « الملك الصالح » منهم . فأنعم على الرسول الواصل إلى حلب ، وأعطى عطاء وافرا ، وقبل التوقيع منه .

ولم تر الملكة « الخاتون » مضايقة ابن أخيها في البلاد ، ولم تتعرض لشيء منها . وبلغه ذلك فسير إليها ، وعرض عليها تلك البلاد ، وغيرها ، وقال : « البلاد كلها بحكمك ، وإن شئت إرسل نائب يتسلم هذه البلاد ، وغيرها ، فأرسله لاسلم إليه مائتا مريد بتسليمه » . فشكرته ، وطيب قلبه .

واتفق بعد ذلك مع « الخوارزمية » . وأقطعهم : حران ، والرها ، وغيرهما ، بعد أن كانوا اتفقوا مع « الملك المنصور » - صاحب ماربين - وقصدوا بلاد « الملك الصالح أيوب » ، وأغاروا عليها ، ونزلوا على حران ، واجفل أهلها .

وخاف « الملك الصالح » ، فاختفى ، ثم ظهر « بسنجان » ؛ وحصره « بدر الدين لؤلؤ » - صاحب الموصل - وكان قد ترك ولده الملك « المغيث » « بقلعة حران » ، فخاف من الخوارزمية ، وسار مخدفا نحو « قلعة جعبر » ، فطلبوه ، ونهبوه ومن معه ، وأفلت في شزيمة من أصحابه ، ووصل إلى « منبج » مستجيرا بعمته . فسير إليه من حلب ، ورد عن الوصول إليها بوجه لطيف ، وقيل له : « نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ، ولا يمكننا منعك منه » ، فعاد إلى حران ، ووصله كتاب أبيه يأمره بموافقة « الخوارزمية » والوصول إليه بهم لدفع « لؤلؤ » ، ففعل ذلك ؛ وسار « بالخوارزمية » ، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا وأخرجوا عن سنجان ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي الملك الصالح بهم

ووصل عسكر « الروم » إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعض قلاعها ، وتوجه عسكر « الخوارزمية » ، إلى جهتهم ، فرحلوا عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

ووصل رسول « السلطان كيخسرو » عز الدين - قاضي دوقات - إلى حلب في هذه السنة ، وتحدث في إقامة الدعوة « للسلطان كيخسرو » ، وضرب السكة باسمه . وكان الأمراء والعسكر محاصرين « حماة » ، فتوقفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقة على ماطلب ، فأجابت وخطب له في يوم الجمعة « ... » (١٦) من سنة خمس وثلاثين وستمئة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الأمير « جمال الدولة إقبال » ، وصعد الرسول إلى المنبر ، ونثر البنانيير عند إقامة الدعوة ، ونثر « جمال الدولة » بنانيير ودراهم ، وخلع على الدعاء ، وأظهر من السرور ، والاحتفال في ذلك اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ماأظهر « بقيصرية » من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

وطال الحصار على « حماة » ، ولم تكن « الملكة الخاتون » تؤثر
أخذها من ابن اختها ، وإنما أرادت التضيق عليه ، لينزل عن طلب
« معرة النعمان » . وضجر العسكر ، فاستدعي إلى حلب
الحروسة ، فوصل إليها في «...» (١٧) من سنة ست وثلاثين
وستمئة .

وكان الملك « الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل » ، بعد
موت « الملك الكامل » ، قد استولى على « دمشق » ، وعلى
الخزائن ، التي كانت في صحبة « الملك الكامل » ؛ وأظهر الطاعة
للملك العادل ، وأرسل إلى حلب ، رسولا يطلب منهم معاضدته ،
وانتماءه ، فلم يصفوا إلى قوله ، وامتنعوا أن يدخلوا بينه وبين
الملك العادل .

وخاف من « الملك العادل » ، فراسل الملك « الصالح أيوب ابن
الملك الكامل » ، واتفقا على أن يسلم إلى « الملك الصالح » دمشق ،
ويعوضه عنها « بالركة » « سنجار » و « عانة » ، فسار « الملك
الصالح » من الشرق ، و « الخوارزمية » في صحبته ، في جمادى
الاولى . وتقدم الملك الصالح إلى دمشق ، وتسلمها من « الملك
الجواد » ، في جمادى الآخرة من سنة ست وثلاثين ، وأرسل إلى
عمته الى حلب ، يعرفها بذلك ، ويبذل من نفسه الموافقة على
ماتريده ، ويطلب المساعدة له ، والمعاضدة على أخذ مصر ، فأجابته
بأنها : « لا تدخل بينه وبين أخيه ، وأنكما ولداً أخى » ، ولم تجبه إلى
ما اقترح .

وسار « الملك الجواد » إلى « الرقة » ، فأخرجه « الخوارزمية »
منها ، وسار إلى « سنجار » ، فأقام بها مدة ، وخرج إلى « عانة » ،
فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ، بعملية كانت له فيها ، فاستولى
عليها ، في شهر ربيع الأول ، من سنة سبع وثلاثين .

وأما الملك الصالح ، فإنه صعد إلى « نابلس » ، وأقام بها ،

وكاتب الامراء المصريين ، وعثر الملك على قضيتهم ، فقبض الذين كاتبوه ، ولم يتفق للملك الصالح ما اراد .

وساق عمه « الملك الصالح اسماعيل » ، من بعلبك ، « والملك المجاهد » - صاحب حمص - منها ، وبخلا « دمشق » ، وملكها « الملك الصالح » ، وحصر القلعة يوما اويومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الاول ، من سنة سبع وثلاثين وستمئة . وقبض على « الملك المغيـث » بن الملك الصالح ، وسجنه « بقلعة دمشق » .

وسمع الملك الصالح بن الكامل بذلك ، فتوجه نحو دمشق ، حتى وصل إلى « العقبة » ، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه ، فعاد إلى « نابلس » ، فسير « الملك الناصر » - صاحب الكرك - وقبض عليه ، وحمله مقيدا الى « الكرك » وسجنه بها .

وتجددت الوحشة بين « الملك الناصر » ، وبين « الملك الصالح » عمه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمه الملك الصالح ، فاستودش « الملك الناصر » من الملك العادل لذلك ، حتى آل الامر به إلى أن أخرج الملك الصالح بن الكامل من سجن « الكرك » ، وخرج معه ، وكاتب الامراء بمصر ، فقبضوا على « الملك العادل » « ببلييس » ، في ليلة الجمعة ، الثامن من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمئة ، ووصل الملك الصالح أيوب ، فدخل « القاهرة » ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وكنـت إذ ذاك بالقاهرة ، رسولا الى « الملك العادل » ، أهـنـه بكسر عسكره الا فرنج على « غزة » ، وأطلب أن يسير عماته بنات « الملك العادل » ، معي إلى اختهن « الملكة » إلى حلب ، فاستحضرني « الملك الصالح أيوب » ، يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وقال لي : « تقبل الأرض بين يدي السـتر العالي ، وتعـرفها أنني مملوكها ، وانها عندي في محل « الملك الكامل » ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها ، وامتثال أمرها فيما تأمر به » ، وحملني مثل هذا القول إلى « السلطان الملك الناصر » .

ونزلت من مصر ، فاجتمعت بالملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ، في رابع محرم سنة ثمان وثلاثين ، وحملني رسالة الى « الملكة الخاتون » ، يطلب منها معاضدته ، ومساعدته ، على « الملك الصالح » - صاحب مصر - إن قصده ، فلم تجبه إلى ذلك في ذلك الوقت .

وكان « الخوارزمية » ، في سنة سبع وثلاثين ، قد وضعوا أيديهم على « أوشين » - من بلد البيرة - وطمعوا في أطراف بلد « البيرة » ، واستولوا على قلعة « حران » ، حين كان « الملك الصالح » محبوسا « بالكرك » ، وامتدت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثر تثقيلهم على الملك « الحافظ أرسلان بن الملك العادل » ، بناحية « قلعة جعبر » ، وهويدياريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعهم تشتد .

واتفق أنه فلج ، وخاف من ولده ، فأرسل إلى أخته « الملكة » بحلب يطلب منها أن تقايضه « بقلعة جعبر » و« بالس » إلى شيء تعمل له ، بمقدار « قلعة جعبر » « بالس » . فاتفق الأمر على أن تعويضه « بعزاز » ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسير من حلب من تسلم « قلعة جعبر » ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ووصل « الملك الحافظ » إلى حلب ، في هذا الشهر ، وصعد في المحفة إلى القلعة ، واجتمع بأخته « الملكة » ، وأنزل في الدار المعروفة « بصاحب عين تاب » - تحت القلعة - وسلمت إلى نوابه « قلعة عزان » .

فخرج الخوارزمية ، عند ذلك ، وأغاروا على بلد « قلعة جعبر » ، ووصلوا إلى « بالس » ، فأغاروا عليها ، ونهبوها ، ولم يسلم منها إلا من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج .

وفي هذا الشهر ، توفي القاضي « جمال الدين أبو عبد الله ، محمد ابن عبد الرحمن بن علوان » - قاضي حلب - وولي قضاءها بعده

نائبه ابن أخيه « كمال الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضي زين الدين أبي محمد » .

وخرج عسكر حلب إلى جهة « الخوارزمية » ، ومقدمهم « الملك المعظم تورانشاه » بن الملك الناصر ، فنزلوا « بالذقرة » ، ورحلوا منها إلى « منبج » ، وأقاموا بها مدة .

وتجمع « الخوارزمية » في حران ، والحلبيون غير محتفلين بأمرهم ، وعسكر حلب بعضه في نجدة « ملك الروم » في مقابلة « التتار » ، وبعضهم في « قلعة جعبر » ، وبعضهم مفرقون في القلاع ، مثل « شيزر » ، « وحارم » ، وغيرهما .

وسار الخوارزمية ، بجملتهم ، في جمع عظيم ، ومعهم « الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ » ، و« الملك الصالح » بن الملك المجاهد - صاحب حمص - وكان جمعهم يزيد على اثني عشر ألفا ، وانضم اليهم الأمير « علي » حديثه « في جموعه من العرب ، وكان استودحش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

وعبروا بجملتهم من « جسر الرقة » ، وساروا ، حتى وصلوا نهر « بوجبار » ، وسمع بهم من بمنبج ، من عسكر حلب ، فرحلوا من منبج ، ونزلوا في وادي « بزاعا » ، وأصبح كل واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لايزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبأ كل فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية - ومقدمهم « بركة خان » - ومعه « صاروخان » ، « بردى خان » و« كشلاوخان » وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر « ماردين » نجدة معهم وعبروا « نهر الذهب » . والتقى الفريقان ، على البيرة - قرية بالوادي - في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصدمهم عسكر حلب على قتلته ، صدمة ، ترحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

وجاء « علي بن حديثة » ، وخرج من بين البساتين ، وجاء من وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و« الركابدارية » ، وأحاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا وهم مطبقون عليهم ، وجعلوا طريقهم على « رصيف الملكة » ، الذي يأخذ من « بزاعا » إلى حلب ، حتى خرجوا فيما بين « ربانا » ، و« تلفيتا » . والخوارزمية في آثارهم يقتلون ، ويأسرون ، ونزلوا من جهة « الاعرابية » ، و« فرفارين » وهم في آثارهم ، فقبضوا على « الملك المعظم » ، بعد أن ثبت في المعركة ، وجرح جراحات مثنخة ، وعلى أخيه « نصره الدين » ، وقبضوا على عامة الأمراء ، ولم يسلم من العسكر إلا القليل . وقتل في المعركة « الملك الصالح » بن الملك الأفضل ، وابن الملك الزاهر ، وجماعة كثيرة . واستولوا على ثقل العسكر ، ونهب الأحلاف من العرب أكثر ثقل العسكر ، وكانوا أشد ضررا على العسكر ، في انتهاب أموالهم من أعدائهم . ونزل « الخوارزمية » حول « حيلان »

وامتدوا على النهر ، إلى « فافين » ، وقطعوا على جماعة من العسكر أموالا أخذوها منهم ، وابتاعوا بها أنفسهم ، وشربوا تلك الليلة ، وقتلوا جماعة من الأسرى صبرا ، فخاف الباقون ، وقطعوا أموالا على أنفسهم ، وزنوها فممنهم من خلص ، ومنهم من أخذوا منه المال ، وغدروا به ، ولم يطلقوه .

واختبب بلد حلب ، وتقدم إلى مقدمي البلدة بحفظ الأسوار ، والأبواب ، وجفل أهل « الحاضر » ، ومن كان خارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم ، وبقي في البلد الأميران : « شمس الدين لؤلؤ » ، و« عز الدين ابن مجلى » ، في جماعة ، لا تبلغ مائتي فارس يركبون ، ويخرجون إلى ظاهر المدينة ، يتعرفون أخبارهم .

وبثوا سراياهم ، في أعمال حلب يشذون الغارة فيها ، فبلغت خيلهم إلى بلد «عزان» ، و«تل باشر» و«برج الرصاص» ، و«جبل سمعان» ، و«بلد الحوار» وطرف العمق ، وجاؤوا أهل هذه النواحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومن أجفل منهم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والامتعة ، والحرم ، والصبيان ، مالا يحد ولا يوصف ، وارتكبوا من الفاحشة مع المسلمين ، ما لم يفعله أحد من الكفار ، إلا ما سمع عن القرامطة .

ثم رحلوا إلى « منبج » ، وقد استعصم أهلها بالسور ، ودربوا المواضع التي لا سور لها ، فهاجموها بالسيف ، في يوم الخميس الحادي والعشرين ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، وخربوا دورها ، ونهبوها ، فعثروا فيها على أموال عظيمة ، وسبوا أولادهم ونساءهم ؛ وجأهروا الله تعالى بالمعاصي في حرمهم ، والتجأ لمة من النساء إلى « المسجد الجامع » ، فدخلوا عليهن ، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع ، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة ، وعلى صدرها ولدها الرضيع ، فيأخذه منها ، ويضرب به الأرض ، ويأخذها ، ويمضي .

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى « الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد » ، وقد عزم على الدخول إلى بلد « الفرنج » للغارة ، وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس ، فساق بمن معه من العسكر . ووصل إلى حلب في يوم السبت الثالث والعشرين ، من شهر ربيع الآخر . وخرج السلطان وأهل البلد ، والتقوه إلى « السعدي » ، ونزل « الهزاز » ، ثم أخليت له في ذلك اليوم دار « علم الدين قيصر الظاهري » . بمصلى العيد العتيق - خارج « بابا الراية » - فأقام بها ، واستقر الأمر معه على أن يستقدم العساكر ، وتجمع ، ووقع التوثق منه ، وله ، بالإيمان والعهود .

وسيرت رسولا إلى الملك « الصالح اسماعيل بن الملك العادل »
لتحليفه ، فسرت ، ووصلت إلى دمشق ، وحلفته في جمادى الآخرة
من السنة ، وطلبت منه نجدة من عسكره ، زيادة على من كان منهم
بحلب ، فسير نجدة أخرى ، وأطلق الأسرى « الداوية » ، الذين
كانوا بحلب استكفاء لشركهم .

وحين سمع « الخوارزمية » تجمع العساكر بحلب ، عادوا من
أقطاعاتهم ، وتجمعوا « بحران » ، وعزموا على العبور إلى جهة
حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثّر جمعهم ، وظنوا أنهم يبادرون إلى
صلحهم

وكان « علي بن حديثة » ، قد انفصل عن « الخوارزمية » وظاهر
ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأمر على سائر العرب ، وزوجته «
الملكة الخاتون» بعض جواريتها ، وأقطعته أقطاعا ترضيه .

فسار « الخوارزمية » ، من « حران » ، في يوم الاثنين سادس
عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في
الرحيل ، ووصلوا إلى « الرقة » ، وعبروا « الفرات » ، وبلغ خبرهم
إلى حلب ، فبرز « الملك المنصور » خيمته ، وضربها شرقي حلب ،
على أرض « النيرب » و« جبرين » وخرجت العساكر ، بخيمها حوله .
ووصل « الخوارزمية »

ووصل « الخوارزمية » إلى « الفايا » ثم إلى « بير حافر » ثم إلى «
الجبول » ، وامتدوا في أرض « النقرة » . وأقام « الملك المنصور » ،
والعسكر معه ، في الخيم ، ويزك الخوارزمية في « تل عرن » ، ويزك
الملك المنصور على « بوشلا » ، والعربان يناوشون « الخوارزمية » .

وعاث الخوارزمية في البلد ، وأحرقوا الأبواب التي في القرى ،
وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرة ، أقل من المرة
الاولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلا ما عجز أهله عن
حمله ، وتأخر لقاء العسكر الخوارزمية ، لأنهم لم يتكملوا العدة ،

ورحل الخوارزمية ، فنزلوا بقرب « الصافية » ، ومضوا إلى « سرمين » ، ونهبوها ، ودخلوا « دار الدعوة » ، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظننا منهم أنهم لا يجسرون على قربانها ، خوفاً من « الاسماعيلية » ، فدخلوها قهراً ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، ورحلوا إلى « معرة النعمان » ، ونزل العسكر مع « الملك المنصور » على « تل السلطان » ثم رحلوا إلى « الحيار » .

ورحل « الخوارزمية » إلى « كفرطاب » ، وجفل البلد بين أيديهم ، وأحرقوا « كفرطاب » ، وساروا إلى « شيزر » ، وتحيز أهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجموا الرض ، واحتمت المدينة التي تحت القلعة يوماً ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ما أمكنهم نهبه .

وأرسل عليهم أهل القلعة الجروج ، والحجارة ، فقتلوا منهم جماعة وافرة ، وبلغهم استعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم ، للقائهم : فطلبوا ناحية « حماة » ، وجاوزوها إلى جهة القبلية .

فسارت العساكر الحلبية ، لقصدهم ، فقصدها ناحية « سلمية » ، ثم توجهوا إلى ناحية « الرصافة » ، وبلغ خبرهم عسكر حلب ، فركبوا ، وطلبوا مقاطعتهم ، ووقع جمع من العرب بهم ، بقرب « الرصافة » ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقوة السير ، وقلة الزاد والعلف ، فآلقوا أثقالهم كلها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلقاً ممن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر وكفرطاب وساروا ، طالبي « الرقة » مجدين في السير ، واشتغل العرب ، ومن كان معهم من الجند ، بنهب ما ألقوه ، ووصل « الخوارزمية » إلى الفرات ، مقابل « الرقة » - غربي البليل وشماله - بكرة الاثنين خامس شعبان .

وأما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنهم وصلوا إلى « صفين » ،

وساقوا سوقا قويا ، ليسبقوا الخوارزمية إلى الماء ، ويحولوا بينهم وبين العبور إلى « الرقة » فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في « بستان البليل » ، وأخذوا منها الأبواب ، وجعلوها ستائر عليهم ، وحفروا خندقا عليهم ، فقاتلهم إلى بعد العشاء ، وأخذوا من الأغنام ، التي لهم ، شيئا كثيرا ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابهم ، ولا زاد لأنفسهم ، فعادوا في الليل إلى منزلتهم « بصفين » ، ونام جماعة من الرجالة في « البليل » ، فوقع عليهم « الخوارزمية » فقتلهم ؛ وعبر الخوارزمية إلى « الرقة » ، وقد هلكت دوابهم إلا القليل ، وأكثرهم رجالة ؛ وسروا إلى « حران » ، وأحضروا لهم دواب ركبوها ، وتوجهوا إلى « حران » .

وأراد « الملك المنصور » العبور من جسر « قلعة جعبر » ، فلم يمكنه لقلة العلوفة ، فسار بالعساكر إلى « البيرة » ، وعبر من عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتى نزل ما بين « سروج » و « الرها » .

ووصل الخوارزمية ليكبسوا اليك ، فعلموا بهم ، وتاهوا في الليل ، وركب العسكر ، فعادوا والعسكر في آثارهم ، إلى « سروج » ، ولم ينالوا زبدة ، ووصلوا إلى « حران » ، وجمعوا جمعا كثيرا ، حتى أخذوا عوام « حران » ، وألزمهم بالخروج معهم ، ليكثروا بهم السواد ، ووصلوا إلى قرب « الرها » إلى جبل يقال له « جلهمان » واجتمعوا عليه ، ورتبوا عسكرهم ، وكثروا سوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من القصب ، على الجمال ليلاقوا الرعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، من عسكر « الروم » ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعد حط الخيم للرحيل ، فلم يتوقفوا وساروا ، إلى أن وصلوا إلى « الخوارزمية » ، يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، والتقوا ، وكسر « الخوارزمية » ، واستبيح عسكرهم ،

وهربوا ، والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال الليل بينهم وبينهم ، فعاد العسكر ، ووصل الخوارزمية إلى « حران » ، وأخذوا نساءهم ، وهربوا ، ورتبوا في قلعة « حران » واليا من جهة « بركة خان » ، وساروا ، ووصل « الملك المنصور » والعساكر إليها ، فوكل بالقلعة من يحصرها ، وساروا خلف الخوارزمية إلى « الخابور » ، والخوارزمية منهزمون ، وألقوا أثقالهم ، وبعض أولادهم ، ونزلوا في طريقهم على « الفرات » ، فجاءهم السيل في الليل ، فأغرق منهم جمعا كثيرا ، وبخلوا إلى بلد « عانة » واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة .

وزينت مدينة حلب أياما لهذه البشرى . وضربت البشائر ، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم ، إلى حلب . واعتصمت القلعة « بحران » أياما ، ثم سلمت إلى الحلبيين ، وأخرج من كان بها من الأمراء ، من أمراء حلب وأقارب السلطان ، وبادر « بدر الدين لؤلؤ » إلى « نصيبين » ، وإلى « دارا » فاستولى عليهما ، واستخلص من « دارا » عم السلطان الملك « المعظم تورانشاه » ، واستدعاه إلى الموصل ، وقدم له مراكب ، وثيابا ، وتحفا ، كثيرة ، وسيره إلى العسكر ، واستولى العسكر الحلبي ، على « حران » ، « وسروج » ، « الرهبا » ، و« رأس عين » ، و« جملتين » و« الموزر » و« الرقة » ، وأعمال ذلك ، واستولى « الملك المنصور » على بلد « الخابور » و« قرقيسيا » .

واستولى نواب « صاحب الروم » على « السويداء » ، بعد استيلاء عسكر حلب عليها ، لكونها من أعمال « آمد » . ووصل نجدة ملك الروم ، بعد الكسرة ، فسيرت اليهم الخلع ، والنفقات ، وساروا إلى « آمد » ، والتقوا بعساكر الروم ، وحاصروها إلى أن اتفقوا مع صاحبها ولد « الملك الصالح » على أن أبقوا بيده « حصن كيفا » وأعماله ، وسلم اليهم « آمد » . وأقام « الخوارزمية » ببلاط الخليفة ، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وخرجوا إلى ناحية «الموصل» ، واتفقوا مع صاحبها ، إلى أن أظهر إليهم المسألة ، وسلم اليهم « نصيبين » ، واتفقوا مع الملك « المظفر شهاب الدين غازي » بن الملك العادل - صاحب ميافارقين - وسير إلى حلب ، وأعلمهم بذلك ، وطلب موافقته ، واليمين له ، على أنه إن قصد « سلطان الروم » دافعوا عنه ، وكان قد استشعر من جهته ، فلم يوافق الحلبيون على ذلك ، ووصل إليه « الخوارزمية » واتفقوا على قصد « أمد » ، فبرزت العساكر من حلب ، ومقدمها الملك « المعظم تورانشاه » ، وخرجت إلى « حران » في صفر ، من سنة تسع وثلاثين ، وساروا بأجمعهم إلى أمد ، ودفعوا الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها إلى « ميافارقين » ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخوارزمية بحاضرها ، خارج البلد .

ووصلت العساكر وأقامت قريبا من « ميافارقين » ، وجرت لهم معهم وقعتات ، إلى أن تهاذوا ، على أن يقطع ملك « الروم » الخوارزمية ، ما كان أقطاعا لهم في بلاده ، وأنهم يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن الملكة « الخاتون » بحلب ، تعطي أخاها الملك المظفر ، ماتختاره ، من غير اشتراط عليها ، وعلى أن يكونوا و« شهاب الدين غازي » سلما ، لم هو داخل في هدينتهم - وكان صاحب ماردين قد حلف للملك الناصر - ، ورجع العسكر الحلبى ، فلم ينتظم من الأمر الذي قرروه شيء ، ووصل رسل الملك « المظفر » ، ورسل « الخوارزمية » . وعادوا عن غير اتفاق . وأطلق أسرى « الخوارزمية » من حلب .

وخرج الملك المظفر والخوارزمية ، ووصلوا إلى بلد « الموصل » . وعاد صاحب « ماردين » إلى موافقتهم ، ونزلوا على « الموصل » ، ونهبوا رستاقها ، واستاقوا مواسيها ، ثم توجهوا إلى ناحية « الخابور » .

واتفق الأمر على أن ورد « الملك المنصور » - صاحب حمص -

إلى حلب . وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وأكابر المدينة ،
والتقوه إلى « الوضيحي » . ووصل إلى ظاهر حلب ، في « »
(١٨) ، ونزل بدار « علم الدين قيصر » ، وجمع العساكر ، وتوجه
إلى بلاد « الجزيرة » .

ووصل « الملك المظفر » و « الخوارزمية » - بعد أن عبر « الملك
المنصور » الفرات - إلى « رأس عين » ، واعتصم أهلها ، مع
العسكر الذي كان بها ، وكان معهم جماعة ، من الرماة ،
والجرحية ، من الفرنج ، فأمدوا أهلها ، وبخلوها ، وأخذوا من
كان بها من العسكر . ورحل « الملك المنصور » والعسكر من
الفرات إلى « حران » ، فعاد الملك المظفر والخوارزمية إلى
ميارفارقين ، وأطلقوا من كان بها ، في صحبتهم ، من العسكر
الذين أخذوهم من « رأس عين » ، ثم توجه « الملك المنصور »
والعسكر إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بها من عسكر الروم ،
وأقاموا ينتظرون وصول عساكر « الروم » ، مع الدهليز ، لمنازلة
ميارفارقين .

وتوفي « الملك الحافظ أرسلان شاه » ، ابن الملك العادل ، بقلعة
عزاز ، ونقل تابوته إلى مدينة حلب . وخرج السلطان « الملك
الناصر » ، وأعيان البلدة ، وصلوا عليه ، ودفن في « الفردوس » ،
في المكان الذي أذشاته أخته « الملكة الخاتون » . وتسلم نواب
الملك الناصر قلعة « عزاز » ، من نوابه من غير ممانعة ، وذلك كله ،
في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

واتفق أن خرج « التتار » إلى « أرزن الروم » ، واشتغل « الروم »
بهم ، وأغاروا إلى بلد « خرتبرت » ، وخاف « الملك المنصور »
والعسكر ، من إقامتهم في تلك البلاد ، وأنهم لا يأمنون من كبسة
تأتي من جهة « التتار » ، فعادوا إلى « رأس عين » ، فخرج « الملك
المظفر » ، « الخوارزمية » ، إلى « نئيسر » ، فخرج « الملك المنصور »
إلى « الجرجب » ، وساروا إلى جهتهم . فوصلهم الخبر أنهم قد

نزلوا « الخابور » ، فساروا إلى جهتهم ، ونزلوا « المجدل » ، وكان قد انضاف إلى « الخوارزمية » جمع عظيم ، من « التركمان » ، يقدمهم أمير يقال له « ابن دودي » ، حتى بلغ من أمره أنه قال للملك المظفر : أنا أكرهم بالجوابنة الذين معي . وكان عدتهم سبعين ألف « جوبان » غير الخيالة من التركمان .

ورحل « الملك المظفر » ، حتى نزل قريبا من « المجد » ، فعلم به « الملك المنصور » ، فأشار الأمير « شمس لؤلؤ الأميني » بمبادرتهم ، والرحيل اليهم في تلك الساعة ، فرحلوا ، ووافوهم ، وقد نزلوا ، في يوم الخميس ، الثالث والعشرين ، من صفر ، من سنة أربعين وستمئة ، فركبوا ، والتقى الصفان ، فما هو إلا أن التقوا ، وولى « الملك المظفر » منهزما ، « والخوارزمية » ، وحالت الخيم بينهم وبينهم ، فسلموا ، وقتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والخركاها ، وبها الأقمشة والذساء ، فنهبوا جميع ما في العسكر ، وأخذوا الذساء وجميع ما كان معهم من الأموال ، والحلي ، والذهب ، ولم يفلت من الذساء أحد .

ونزل « الملك المنصور » ، في خيمة « الملك المظفر » ، واستولى على خزانته ، وعلى جميع ما كان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والآلات ، والأغنام ، مالا يحصى ، وبلغت الأغنام المنهوبة إلى « الموصل » و« حلب » و« حماة » و« حمص » ، بحيث بيع الرأس من الغنم في العسكر ، بأبخس الأثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزينت أياما سبعة ، وتوجه « الملك المنصور » ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان « الملك الناصر » إلى « قلعة جعبر » . وتوجه إلى « منبج » للقائهم ، واجتمع بهم ، فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمئة .

وطلع « للخاتون الملكة » قرحة في مرق البطن ، وازداد ورمها ، وحدث لها حمى بسببها ، وسار « الملك المنصور » ليلة الجمعة ثالث

الشهر . وتوجه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية « طرابلس » ، وقوي مرض « الملكة الخاتون » ، إلى أن توفيت الى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جمادى الاولى ، من سنة أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز - رحمهما الله - وكان مولدها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيه - الملك العادل » ، إما في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنه كان عنده ضيف ، فلما أخبر بولادتها ، سماها « ضيفة » لذلك . وأمر السلطان « الملك الناصر » في ملكه ، ونهى بإشارة وزيره « جمال الدين الأكرم » والأمير « جمال الدولة اقبال الخاتوني » .

وعلم السلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير « جمال الدولة » نصف الملوحة ، والحصنة الجارية ، في ملك بيت المال « بالناعورة » . وأقر على نفسه بالبلوغ ، وملك الوزير الحصنة ، التي بأيدي نواب بيت المال « ثقيل » ورحاها ، وجعل يجلس في « دار العدل » ، في كل يوم اثنين وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم ، وخلع على أمرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير « جمال الدولة » « عزان » وقلعتها وما كان في يد « الملك الحافظ » بن الملك العادل ، وجميع ما كان من الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جمادى الاولى من سنة أربعين وستمائة .

وعاشت « الخوارزمية » و « التركمان » على بلاد « الجزيرة » ، فخرج عسكر حلب ، ومقدمهم الأمير « جمال الدولة » في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في « رأس عين » . فتجمع الخوارزمية ، وانضوا إلى صاحب « ماردين » ، واحتموا بالجبل ، فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخذلوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات ، وتضرر عسكر حلب ، بالمقام ، لقلة العلوفة ، إلى أن ورد « نائب المملكة بالروم » وهو « الأمير شمس الدين الأصهباني » إلى « شهاب الدين غازي » - وإلى

صاحب ماربين - والخوارزمية ، وأصلح بينهم على أن يعطى صاحب « ماربين » « رأس عين » . وأرضى « ملك الروم » الخوارزمية « بخرتبرت » ، وشيء من البلاد ، والملك المظفر غازي « بخلاط » ،

وتوجهت العساكر ، - و« النائب الاصبهاني » ، في جملتها - وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وتلقاهم إلى « منبج » ، وبخل « النائب » إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوال .

وبدخول السلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوال ، وورد مع « النائب » أموال عظيمة ، لتستخدم بها العساكر للقاء « التتار » ، ويطلب نجدة من البلاد عليهم ، فسير من حلب نجدة ، ومقدمها « الناصح الفارسي » ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمائة ، فالتقاهم السلطان « غياث الدين » ، « بسيواس » أحسن لقاء ، وأعطاهم عطاء سنيا ، وفوض تدبير العسكر إلى « الناصح أبي المعالي الفارسي » ، وفرح أهل « بلاد الروم » وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار « السلطان من « سيواس » إلى « أقشهر » (١٩) ، ووصله الخبر بوصول « التتار » ، فسير بعض أمرائه ، وعسكر حلب ، ليكشفوهم . فوصلوا إليهم ، ونشب القتال بينهم ، ووقعت بينهم حملات ، فانهزم « التتار » ، بين أيديهم ، ثم تكاثروا ، وحملوا عليهم ، فانكسر عسكر « الروم » وثبت الحلبيون ، وجرى بينهم كرات ، وخرج عليهم كمينان ، من اليمين واليسار فأحدقوا بهم ، فلم يسلم منهم إلا من حمل ، وخرج من بينهم ، وذلك ، في يوم الخميس ، الثالث عشر من المحرم ، سنة إحدى وأربعين وستمائة .

وانهزم ملك « الروم » في الليل ، ليلة الجمعة ، وأجفل أهل بلاد الروم ، إلى حلب وأعمالها ، وعاث « التركمان » في أطراف الروم ، ونهبوا من خرج إلى الشام . (٢٠)

تراجـم من كتاب

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم

أحمدل الكردل

أحمدل بن إبراهلـم ، صاأب مراغة (١) ، قل كان اقطاعه فـل كل سنة أربعمائة ألف لـلنار ، وآنده خمسة آلاف فارس .

سـلره السلطان محمد بن ملكشاه إلى الشام مع سكمـان القطـلـل ، ومودود بن التورتكلـن صاأب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، فـل سنة خمس وخمسـمـائة ، فـل عسكر لقتال الفرنج ، وأآـازوا على بالـس ، ومضوا بالعساكر ، وأفتتأوا حصونا كثيرة ، وقصدوا حلب ، فغلقت أبواب المـلـنة فـل وآنهم .

ومرض سكمـان بن التورتكلـن ، وعاد فمات ببـالـس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد أحمدل إلى بغداد .

وفـل المأرم من سنة عشر وخمسـمـائة كان أحمدل فـل مآلس السلطان محمد ، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فـلها الظلم وهو فـلنتأب ، وسأله أن فوصل قصته إلى السلطان فتناولها منه فـلـلـه بـسكـلـن كانت معدة ، فوثب علىـه الأمير مودود فتركه تحتـه ، فجاء آخر فـلـلـب مودودا ، وجاء ثالث فـلـلـمه .

وهذا ممدود (٢) لـلـس بابـن التورتكلـن ، لأن ذلك قتل بدمشق فـل سنة ست وخمسـمـائة على ما نذكره فـل تـرآمتـه إن شاء الله تعالى ... (١٦٨ - و) .

اسماعيل بن بوري بن طغتكين

أبو الفتح ، الملقب شمس الملوك بن تاج الملوك ، صاحب دمشق ،
وليها بعد أبيه ، تاج الملوك بوري في سنة ست وعشرين وخمسمائة ،
واستعاد بانياس (٣) من أيدي الفرنج بعد أن استولوا عليها ،
ونازل حماة وشيزر في سنة سبع وعشرين ، وكان شجاعا ظالما .
وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين في
تاريخه : سنة سبع وعشرين وخمسمائة : نازل اسماعيل بن تاج
الملوك ، الملقب بشمس الملوك حماة وشيزر .

وقرأت بخطه أيضا فيه قال في حوادث سنة تسع وعشرين : وفيها
قتل شمس الملوك اسماعيل بن بوري ، قتلته أمه زمرد خاتون ،
وأجلست شهاب الدين محمودا .
وقرأت أيضا بخط مرهف بن أسامة بن مذقذ مثل ذلك .

أنبأنا أبو البركات الحسن بن محمد زين الامناء قال : أخبرنا
الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : اسماعيل بن بوري بن
طغتكين ، أبو الفتح المعروف بشمس الملوك ، ولي إمرة دمشق بعد
قتل أبيه بوري المعروف بتاج الملوك في العشر الأخير من رجب سنة
ست وعشرين وخمسمائة ، وكان شهما مقداما مهيبا ، استرد
بانياس من أيدي الكفار في يومين ، وكانت قد سلمها إليهم
الاسماعيلية ، وأسعر (٤) بلاد الكفار بالغارات ، ثم مديده إلى
أخذ الاموال ، وعزم على مصادرة المتصرفين والعمال .

ولم يزل أميرا على دمشق حتى كتب إلى قسيم الدولة زنكي بن
أق سنقر يستدعيه ليسلم إليه دمشق ، فخافته أمه زمرد فرتبت له
من قتله في قلعة دمشق في شهر ربيع الآخر (٧٠ - و) من سنة تسع
وعشرين وخمسمائة ، ونصبت أخاه محمود بن بوري مكانه (٥) .

اسماعيل بن محمود بن زنكي بن آق سنقر

أبو الفتح الملك الصالح ، نور الدين بن الملك العادل نور الدين بن قسيم الدولة الشهيد بن قسيم الدولة التركي ، ملك حلب بعد موت أبيه في سنة تسع وستين وخمس مائة ، وهو إذاك صبي لم يبلغ الحلم ، وكان بدمشق مع والده .

فختنه في هذه السنة ، وسر بختانه ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للايتام ، ختن منهم جماعة وزين البلد ، وأظهر سرورا كثيرا ، وتوفي بعد بختانه بأيام في يوم الاربعاء حادي عشر شوال ، فحلف أهل دمشق لولده الملك الصالح ، ووصل كتاب على جناح طائر الى حلب الى شاذبخت الخادم والي قلعة حلب بوفاة نور الدين ، فأمر في الحال بضرب الكوسات والدبابد والبوقات ، وكتم موته ، وأحضر المقدمين والاعيان والفقهاء والامراء ، وقال : هذا كتاب الطائر قد وصل يذكر فيه أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ، وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه ، فسروا بذلك ، وحمدوا الله سبحانه عليه ، ثم قال لهم : تحلفون لولده الملك الصالح كما أمر بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم كما كانت لأبيه ، فاستحلف الناس على ذلك على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في ذلك اليوم ، ولم يترك احدا منهم يزول من مكانه ، ثم قام شاذبخت الى مجلس آخر (١٨٨ ط) ولبس الحداد ، وخرج اليهم وقال : يحسن عزاءكم في الملك العادل ، فإن الله سبحانه نقله الى جنات النعيم ، فأظهروا الحزن والكتابة والاسف والبكاء ، واستقر الملك للملك الصالح .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين الى حلب يوم الثلاثاء رابع والعشرين من شوال لاثبات ما في خزائن حلب وختمها بخاتم الملك الصالح رحمه الله .

وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة حلب مع شاذبخت وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الامراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج الى الشام وطلب أن يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدريب ملكه وترتيبه ، ووقعت الفتنة بين السنة والشيعة بحلب ، ونهب الشيعة دار قطب الدين بن العجمي ، ودار بهاء الدين أبي علي بن أمين الدولة ، ونزل أجناد القلعة من القلعة ، وأمرهم ابن الداية أن يزحفوا الى دار ابي الفضل بن الخشاب فزحفوا اليها ونهبوها ، فاخطفى ابن الخشاب .

واقضى الحال أن الاتفاق وقع على وصول الملك الصالح من دمشق الى حلب فسار فوصل ظاهر حلب في اليوم الثاني من المحرم سنة سبعين وخمس مائة ومعه سابق الدين عثمان بن الداية . فخرج بدر الدين حسن للقائه ، فقبض على سابق الدين ، وصعد الملك الصالح الى القلعة ، وظهر القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وركب في جمع عظيم الى القلعة ، وصعد إليها والحلبيون من اتباعه تحت القلعة ، فقتل في القلعة (١٨٩ - و) وتفرق من كان تحت القلعة منهم وقبض على شمس الدين علي ، وبدر الدين حسن ابني الداية ، وأودعا السجن مع أخيهم سابق الدين .

ووصل الملك الناصر من مصر الى دمشق ، فدخلها سلخ شهر ربيع الآخر وسار الى حمص وفتحها في جمادى الاولى ، فنزل الملك الصالح الى المدينة وقال لاهلها : أنا ولدكم ، وذكرهم بحقوق والده واستعان بهم على دفع الملك الناصر ، فبكى الحلبيون ودعوا له . ووعدوه من أنفسهم بكل ما يؤثره وبلغ سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل ماجرى ، فسير أخاه عز الدين مسعودا الى لقاء الملك الناصر ، فرحل عن حلب في مستهل شهر رجب ، وعاد الى حماه ووصل عز الدين الى حلب وأخذ من كان بها من العسكر ، وخرج الى لقاء الملك الناصر ، وتصاف العسكران عند قرون (٦) حماه في تاسع عشر شهر رمضان ، فكسر عز الدين ، وسار الملك

ابن رافع بن تميم قال : في ثالث وعشرين من رجب أغلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعي الامراء ، وأخذ واحد ، واحد واستحلفوا لعز الدين مسعود صاحب الموصل .

قال : وفي خامس وعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس . (١٩٠ - و) وكان الملك الصالح رحمه الله قد ربي أحسن تربية ، وكان نبينا عفيفا ورعا ، كريما محبوبا الى قلوب الرعية لعدله وحسن طريقته ولين جانبه لهم .

قال لي والدي رحمه الله : إن اليوم الذي مات فيه انقلبت المدينة بالبكاء والضجيج ، ولم ير الا باك عليه ، مصاب به .

قال لي : ودفن بقلعة حلب ، ولم يزل قبره بها الى أن ملك الملك الناصر حلب وتسلم قلعتها فحول قبره الى الخانكاه التي أنشأتها والدته تحت القلعة (١٠) .

قال لي : ولما حول ، ظهر من الناس من البكاء والتأسف كيوم مات ، قال : ووجد من قبره عند نبشه شبيه برائحة المسك ، رحمه الله . وحكى لي ذلك أيضا غير والدي .

وكان رحمه الله على صغر سنه كثير الاتباع للسنه ، والنظر في العواقب ، وأخبرني والدي قال : حكى لي العفيف بن سكرة اليهودي الطبيب ، وكان يتولى معالجة الملك الصالح في مرضه الذي مات فيه ، وكان به قولنج ، قال : قلت له يوما : يامولانا والله شفاؤك في قدح من خمر ، وأنا أحمله اليك سرا ، ولا تعلم به والدتك ، ولا اللالا ، ولا شاذبخت ، فقال لي : يا حكيمة كنت أظنك عاقلا . نبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها » وتقول لي أنت هذا ، وما يؤمنني أن أشربه وأموت والقي الله تعالى ، وهو في جوفي ، والله لو جاءني جبريل وقال لي : شفاؤك فيه لما شربته ، وتوفي وله نحو من ثمانية عشر سنة .

سمعت شيخنا موفوق الدين يعيش بن علي بن يعيش قال :
أخبرني (١٩٠ - ظ) الامير حسام الدين محمود بن الختلو ،
شحنة حلب ، قال : لما عزل محيي الدين بن الشهر زوري عن قضاء
حلب وتوجه الى الموصل جاء الي الفقيه عالي الغزنوي ، وكان
يدرس بمدرسة الحدابين (١١) الى داري ، وكانت تحت القلعة ،
فقال لي : قد توجه محيي الدين ابن الشهر زوري الى الموصل
ويحتاجون قاضيا ، فتأخذ لي قضاء حلب ، قال : فصعدت الى الملك
الصالح وقلت له : هذا عالي الغزنوي فقيه جيد ، والمصلحة أن يوليه
المولى قضاء حلب ، فالتفت الي وقال : بالله وبحياتي هو سألني في
هذا ؟ فقلت له : أي والله هو جاء وسألني في ذلك ، فقال : والله ما
وقع في خاطري أن أولي قضاء حلب أحدا غيره ، ولكن حيث سأل هو
الولاية والله لا وليته إياه

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في هذه
السنة - يعني سنة سبع وسبعين وخمسمائة - مات الملك الصالح
اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب ، وبلغني أن
وفاته كانت في شهر رجب عن تسع عشرة سنة ، وكانت وفاته بقلعة
حلب .

وقرأت بخط عبد الرزاق بن أحمد الاطرابلسي الشاعر ، أن وفاة
الملك الصالح كانت في العشر الاخر من رجب من سنة سبع وسبعين
 وخمسمائة .

أق سنقر بن عبد الله البرسقي

وقيل اسمه سنقر ، وكان مملوك الأمير برسق مملوك السلطان ، فترقت به الحال إلى أن ولاه السلطان محمد بن محمد الموصل وولاه شحنة بغداد ، وتقدمة عسكرها في أيام المسترشد ثم عزل عن شحنة بغداد في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، فوصل إلى الموصل ، واستدعاه الحلبيون إلى حلب وقد حصرهم الفرنج وضاق بهم الأمر فوصل إليهم في سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، ورحل الفرنج عنها وملك حلب وأحسن إلى أهلها ، وعدل فيهم ، وأزال المكوس والمظالم ، ووقع إلى نسخة التوقيع الذي كتبه لأهل حلب بإزالة المكوس والضرائب وتعفية آثار الظلم والجور ، وكان رحمه الله على ما يحكى حسن الأحوال ، كثير الخير ، جميل النية ، كثير الصلاة والتهجد والعبادة والصوم ، وكان لا يستعين في وضوءه بأحد ، وقتل رحمه الله شهيدا وهو صائم .

وكان من حديثه في ملك حلب واستيلائه عليها : أن بك بن بهرام ابن ارتقما قتل بمنذج ملك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق حلب ، فباع تمرتاش بغدوين ملك الفرنج وكان أسيرا في يد بك ، فباعه نفسه ، وهادنه وأطلقه ومات شمس الدولة إيلغازي صاحب مارين فتوجه تمرتاش إليها واشتغل بملك مارين وبلاد أخيه ، فلما علم بغدوين بذلك غدر بالهدنة واتفق هو وديس بن صدقه ، وابراهيم بن الملك رضوان بن تنش على أن نزلوا حلب ، واتفقوا على أن تكون البلاد للمسلمين وأن حلب لابراهيم بن الملك رضوان لأنها كانت لأبيه ، وأن تكون الأموال للفرنج ، وطال حصار حلب واشرفت على الاستيلاء عليها ، وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض ، فحكى لي والذي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما نشطوا من عقال

وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه ، وما زالوا في هذه الشدة الى ان اعانهم الله بقسيم الدولة آق سنقر البرسقي ، فأخلص النية لله في نصرتهم ، ووصل الى حلب في ذي الحجة من سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وأغاث أهلها ورحل العدو عنها ، وكانت رغبات الملوك فيها إذ ذاك قليلة ، لمجاورة الفرنج لها وخراب بلدها وقلة ريعه ، واحتياج من يكون مستوليا عليها الى الخزائن والاموال والنفقة في الجند .

فاخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد ، وحديث أحدهما ربما يزيد على الآخر ، قالوا : سمعنا - جدك يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله - يقول : لما اشتدت الحصار على حلب، وقلت الاقوات بها وضاق الامر بهم ، اتفق رأيهم على أن يسيروا أبي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلي الى حسام الدين تمرتايش الى ماردين وكان هو المستولي على حلب وهي في أيدي نوابه ، وقد تركها ومضى الى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلي ليلا من البلد ، فلما أصبح الصباح صاح الفرنج الى اهل البلد : أين قاضيكم وأين شريفكم ؟ قال : فاذقطعت ظهرنا وتشوشت قلوبنا ، وابقنا بأنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان آمن عليهم بالوصول ، فطابت قلوب أهل حلب لذلك .

قال عمي ووالدي : فسمعنا والدنا يقول : سمعت أبي أبا غانم يقول : لما وصلنا إلى ماردين وبخنا على حسام الدين تمرتايش وذكرنا له ما حل بأهل حلب وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر وعدنا بالنصر وأنه يتوجه وهو يدافعنا من يوم الى يوم وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب عدت وأخذتها فقلنا في أنفسنا ما هذا إلا فرصه ، وقلنا له : لاتفعل ولا تسلم المسلمين الي عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له

القاضي أبو غانم : وأيش هم حتى لا تقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم .

قال القاضي أبو الفضل : فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى اكل القطاط (٢٧٤ - و) والكلاب والميتة فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشق عليه وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة ، وهم يكتممون ذلك ويتجلدون ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفا أن ننفصل عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصير صريرا عظيما إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لئلا يفتح عند الحاجة ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء ، والثلج كثيرا على الأرض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لا يأخذني نوم حتى كان وقت السحر فجاءني ياقوت غلامي بالدابة وقال (٢٧٤ - ظ) : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمي وركبي لا أعرف الطريق ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي

الذين سبقوني في مكان واحد وقد ساروا من أول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح وركبنا وحدثنا دوابنا وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ، فوجدنا البرسقي مريضا قد أشفي وهو يسقى أمراق الفراريج المدقوقة ، فأعلم بمجيئنا ، فاذن لنا ، فدخلنا عليه ووجدناه مريضا مدنفا ، فشكونا اليه وطلبنا منه أن يغث المسلمين ، وذكرنا له ما حل بهم من الحصار والضيق وقلة الاقوات ، وما آل إليه أمرهم ، فقال : كيف لي بالوصول الى ذلك ، وأنا على ما ترون ؟ فقلنا له : يجعل المولى في نيته وعزمه إن خلصه الله من هذا المرض أن ينصر المسلمين ، فقال : أي والله ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم اني أشهدك على أنني ان عوفيت من مرضي هذا لأنصرنهم ، قال : فما استتم ثلاثة أيام حتى فارقت الحمى واغتذى ، ونادى في عسكره للغزاة ، وبرز خيمته وخرجت عساكره وعملوا أشغالهم ، وتوجه بهم حتى اتى حلب فلما قاربها وأشرفت عساكره من المرتب رحل الفرنج ، ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة ، وساق الى ان قارب المدينة وخرج اهلها الى لقائه فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره ، فانهزم الفرنج من يديه ، وهو يسير وراءهم على مهل حتى (٢٧٥ - و) أبعدوا عن البلد ، فأرسل الشاليشية وأمرهم ببرد العسكر .

قال : فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له : يامولانا ، لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فإنهم منهزمون ، فقال له : يا قاضي كن عاقلا أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري ، لو قدر والعيان بالله علينا كسرة من العدو ؟ فقال : لا ، فقال : فما يؤمننا أن يكسرونا وندخل البلد ويقووا علينا ولانذفع أنفسنا ، والله تعالى قد دفع شرهم فنرجع إلى البلد ونقويه ، ونرتب أحواله وبعد ذلك نستعد لهم ويكون ما يقدره الله تعالى ونرجو إن شاء الله تعالى أننا نلقاهم ونكسرهم ، قال : وبخل البلد ورتب الأحوال وجلب الغلال وأمن الناس واستقروا .

قال : وكان ذلك في أذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبدلونها بالماء ويزرعونها فاستغل الناس في ذلك السنة مغلا صالحا . هذا معنى ما حدثني به والدي وعمي .

ونقلت من خط عبد المنعم بن الحسن بن اللعينة الحلبي : دخلت سنة تسع عشرة وخمس مائة ووصلت العساكر من الشرق ، ومقدمها أق سنقر البرسقي ، وكان الافرنج نزلوا على حلب في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وخمس مائة ، وحاصروها وضيقوا على أهلها ومضى القاضي ابن العديم والأشراف ، وقوم من مقدمي أهلها مستصرخين لأنه ما كان بقي من أخذها شيء ، فوصل البرسقي (٢٧٥ - ظ) معهم في محرم سنة تسع عشرة وخمس مائة ، ونزل بالاس وكانت رسله مذ وصل الرحبة متواترة إلى حمص ودمشق يستدعي مالكاها ، وسار الأمير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الأول ، فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقي بتل سلطان بعد انفصاله عن حلب ، وانهزم الافرنج عنها ، وكان سرى إليهم من بالاس ، ووصل إلى حلب وخرج أهل حلب ونهبوا من خيام الافرنج مقدار المائة خيمة ، من على جبل جوشن ، وما بقي من هلاكهم شيء ، لكن الله أمسك أيدي الترك عنهم بمشيئته .

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين في تاريخه في حوادث سنة ثمان عشرة وستمائة (١٢) : وفي ثاني عشري ذي حجتها دخل البرسقي الى حلب ، وفي غده رحل الافرنج عن حلب . قلت : وبعد أن أقام البرسقي بحلب ورتب أحوالها ترك ولده بها وعاد إلى الموصل فقتله الاسماعيلية بها على ما نذكره .

قال لي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري : كان أق سنقر البرسقي خيرا ، عادلا ، لين الاخلاق حسن العشرة مع أصحابه .

قال لي : أخبرني أبي محمد بن عبد الكريم : حكى بعض الغلمان

الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي البرسقي كل ليلة صلاة كثيرة وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد ، قال : فرأيت في بعض ليالي الشتاء بالموصل وقد قام من فراشه وعليه فرجية وبر صغيرة ، وببده (٢٧٦ - و) ابريق نحاس ، وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، قال : فلما رأيت قمته إليه لأخذ الابريق من يده فمذعني ، وقال : يامسكين ارجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لأخذ الابريق من يده ، فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردني إلى مكاني ، ثم توضأ ووقف يصلي ، قال : وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء يطول ذكرها .

سمعت شيخنا صاحب قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، يقول : كان البرسقي نبيا عادلا قال : ومما يؤثر عنه أنه قال يوما لقاضي الموصل أظنه المرتضى بن الشهرزوري : أريد أن تساوي بين الرفيع والوضيع في مجلس الحكم ، وأن لا يختص أولو الهيئات والمراتب بزيادة احترام في مجلس الحكم ، فقال له القاضي : وكيف لي بذلك ؟ فقال : ما لهذا طريق إلا أن ترتاد خصما يخاصمني في قضية ويدعوني الى مجلس الحكم ، وأحضر إليك وتلتزم معي ما تلتزمه مع خصمي ، وسوف أرسل إليك خصما لا تشك في أنه خصم لي ، ويدعي علي بدعوى فادعني حينئذ الى مجلس الحكم لأحضر إليك ، وجاء إلى زوجته الخاتون ابنة السلطان محمود - فيما أظن - وقال لها وكلي وكيلا يطالبني بصدائقك فوكلت وكيلا ، ومضى الوكيل إلى مجلس الحكم وقال : لي خصومة مع قسيم الدولة البرسقي وأطلب حضوره إلى مجلس الحكم ، فسير القاضي إليه ودعاه فأجاب وحضر مجلس (٢٧٦ - ظ) الحكم ، فلم يقدم له القاضي ، وسأوى بينه وبين خصمه في ترك القيام والاحترام ، وأدعى عليه الوكيل وأثبت الوكالة ، واعترف البرسقي بالصدائق ، فأمره القاضي بدفعه إليه فأخذه ، وقام إلى خزانته ودفع إليه الصداق ، ثم أنه أمر القاضي أن يتخذ مسمارا على باب داره يختم عليه بشمعة وعلى المسمار مذقوش أجاب داعي الله ، وأنه من كان له خصم حضر ، وختم

بشمعة على ذاك المسمار ويمضي بالشمعة المختومة الى خصمه كائنا من كان ، ولايجسر أحد على التخلف عن مجلس الحكم .

قرأت بخط الحافظ أبي الطاهر السلفي : وسنقر البرسقي ولي العراق سنين ، وبلغ مبلغا عظيما ، ثم ولي بيار مضر ودار ملكه الموصل ، ثم حلب ، وكثيرا من مدن الشام ، وجاهد الافرنج ، ثم قتله بعض الملاحدة ، لعنهم الله ، وكان سيفا عليهم ، قلما يرى في جيشه مثله ، رحمه الله ورضي عنه ، رأيته بالعراق في حال ولايته ، وبالشام قبل أن وليها .

قال لي عز الدين أبو الحسن بن الاثير : في سنة عشرين وخمسمائة ، وقتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية ، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ونال منه الباقيون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بتدبير الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبدا وكان يشهدا في الجامع مع العامة فحضر الجامع على عادته ، فثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله .

قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ، ووقع إلي منه أوراق نقلت منها في حوادث سنة عشرين وخمسمائة أن البرسقي سلم حلب وتديرها الى ولده الأمير عز الدين مسعود فدخل (٢٧٧ - و) حلب ، وأكمل السيرة وتحلى بفعل الخير ، وسار أبوه إلى الموصل والجزيرتين ، وما هو جار من مملكته حتى دخل شهر ذي القعدة من السنة ، فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع بالموصل ليصلي جماعة ، ويسمع الخطب كما جرت عادته في أكثر الجمع ، فدخل الجامع وقصد المنبر فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد فاخترطوا خناجر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى اتخذوه وجرحوا قوما من حفظته وقتل الحفظة منهم قوما وقبضوا قوما وحمل

البرسقي بأخر رمقه الى بيته ، وهرب كل من في الجامع ، وبطلت صلاة الجمعة ومات الرجل من يومه وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية ، ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفر ناصح ، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب .

قال حمدان فيما نقلته من خطه : وحدثني رجل منها : أنه كان له والدة عجوز لما سمعت بفتكة البرسقي ، وكانت تعرف أن ولدها من جملة من ندب لقتله فرحت واكتحلت ، وجلست مسرورة كأنه عندها يوم عيد ، وبعد أيام وصلها سالما ، فاحزنها ذلك ، وقامت جرت شعرها وسودت وجهها (٢٧٩ - ظ) .

ألب أرسلان بن رضوان بن تتش

ألب أرسلان ، ويسمى محمد أيضا ، بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تقاق ، أبو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الأخرس ، وألب أرسلان الذي قدمنا ذكره جد أبيه .

ملك حلب حين مات أبوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير أمره خادم أبيض كان من خدم أبيه اسمه لؤلؤ (٢٨٨ - ظ) ويعرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلماناه بالمركز من قلعة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان الثغ لا يحسن الكلام فدعي بالأخرس لذلك ، وكان مهورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تاج الدولة الأخرس بن رضوان جماعة من الأمراء والجناد ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب أو المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم : ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم كالكم ها هنا ، فتضرعوا إليه ، وأيقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبككم ، وخضعوا له حتى أخرجهم ، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الأمراء النين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خوفا على نفسه .

قال : ومضى أكثر الأمراء من حلب من خدمته إلى أن قتل ، عمل عليه لؤلؤ الخادم مملوك أبيه مع جماعة من الأمراء ، فقتلوه .

قال : ثم إن لؤلؤ خاف فأخذ الأموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد الشرق ، فلما وصل إلى دير حافر ، قال سذقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ، يأخذ الأموال ، ويمضي ! فصاح بالتركية - يعني - الأرنب الأرنب ، فضربوه بالسهم فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ - و) أقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان ، هكذا قال لي ، ولؤلؤ ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل أخيه ، وبقي سنة وثمانية أشهر يدير دولته .

وقرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وولي بعده - يعني رضوان - أبو شجاع محمد بن رضوان ، وكان لا يحسن أن يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة ، وقتل خالقا من أصحاب أبيه ، فاغتاله خادما كان خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمس مائة ، وكان ملكه بحلب سنة واحدة .

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني أن تاج الدولة الآخرس خرج يوما إلى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، وأخذ معه أربعين جارية ، ووطنهن كلهن في ذلك اليوم .

أنبأنا أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : ألب أرسلان بن رضوان بن تدهش بن ألب أرسلان التركي ولي إمرة حلب بعد موت أبيه رضوان في جمادى الآخرة سنة سبع وخمس مائة وهو صبي عمره ست عشر سنة ، وتولي تدبير أمره خادما لأبيه اسمه لؤلؤ ، ورفع عن أهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل أخويه ملك شاه وميريجا (١٣) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت

دعوتهم قد ظهرت في حلب أيام أبيه ، ثم كاتب (٢٨٩ - ظ) طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين إلى ذلك ، ودعا له على مذبح دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم ألـب أرسلان في هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين وأهل دمشق في أحسن زي ، وأنزله في قلعة دمشق ، وبالغ في إكرامه ، فأقام بها أياما ، ثم عاد إلى حلب في أول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلما وصل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد إلى دمشق .

وساءت سيرة ألـب أرسلان بحلب وانهماك في المعاصي واغتصاب الحرم وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعة حلب في الثامن من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب أخاه طفلا عمره ست سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب إلى أن قتل في آخر سنة عشر وخمسمائة (١٤) .

قرأت في مدرج ، وقع إلي بخط العضد مرهف بن أسامة بن مذقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها - يعني سنة ثمان وخمسمائة - قتل الآخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل أريب أن رضوان لما ملك حلب قتل أخوين كانا له ، فقوبل في عقبه ، فلما ولي ألـب أرسلان قتل أخويه ابني رضوان .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليمن الكندي عنه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك ألـب أرسلان ، وصار أتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام أمرهم ، وقبض على أخوته ، وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضوان أخوته ملك شاه وإبراهيم صبييـن أحسن الناس صورا ، وقتل خادم أبيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فألب عليه خادمه أتابكه لؤلؤ من قتله .

- ٧٤٠٢ -

ثم قال : سنة ثمان وخمسمائة ، فيها : قتل تاج الدولة الب أرسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير اتابكه لؤلؤ ، وأجلسوا موضعه أخاه الملك سلطان شاه بن رضوان (١٥) .

كذا قال العظيمي : « ملك شاه و ابراهيم » ، وهو وهم وإنما هو ميريجا ، وأما ابراهيم فإنه آخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبق من ذرية رضوان إلا عقبه إلى يومنا هذا . (٢٩٠ - و) .

ألب أرسلان بن محمود

ابن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جفري بك التركي كان هو وأخوه فرخشاه المعروف بالخفاجي في كفالة زنكي بن آق سنقر ، وكان فرخشاه بالموصل ، وكان أبوهما السلطان محمود قد كتب لزنكي توقيعا بالشام ، فاتفق أن فرخشاه بلغ وأدرك وتأسد ، وكانت زوجة زنكي السكمانية تربيته ففهدته ، وحدثته نفسه بالملك ، وكان نصر الدين جفر نائب زنكي بالموصل ، وكان ظالما ، فركب في بعض الايام ، وبخل الى دار الملك للتسليم عليه فقتل في الدهليز ، وأركبوا الملك ، وبخل القلعة فقتل بها ، وكان أخوه ألب أرسلان معتقلا بسنجار فسار زنكي الى الموصل وأخرج ألب أرسلان من معتقله بسنجار وعطف عليه وأوهمه أنه كان في حبس أخيه فرخشاه وعاد زنكي الى حلب واستصحب معه ألب أرسلان ، ثم جاء الى حصار قلعة جعبر وألب أرسلان معه ، وحصرها الى ان قتل بها على ما هو مشروح في ترجمته وافترقت عساكره ، فمضى نور الدين محمود بن زنكي الى حلب ، واستمال جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الملك ألب أرسلان ، وأطمعه في المملكة .

وكاتب زين الدين علي كوجك على أن يستدعي (١٠٥ - ظ) سيف الدين غازي بن زنكي ، وكان في خدمة السلطان مسعود بأمر والده زنكي ليأمن غائلة السلطان ومكائده ، فاتفق وصول الخبر اليه وهو بشهر زور (١٦) فدخل الموصل ، ثم دخل جمال الدين والعسكر ، وبقي الملك ألب أرسلان منفردا فاستوحش ، وطلب صوب الجزيرة ، فسيروا في طلبه من داهنه وأظهر له الطاعة والعبودية عن غازي ، وأنه اذا فارقه زالت عنه سمة الأتابكية ، فلا تشمت به أعداءه ، وأنه سيأخذ البلاد باسمك ، فأجابهم وبخل الموصل في أبهة جميلة واستقبال ونثار ، وبخل الدار فخذلوه ،

- ٧٤٠٤ -

واتفق غازي مع نواب أبيه : زين الدين وجمال الدين والديسي ،
وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

حسان بن كمشتكين التركي

صاحب منبج وأعمالها ، كان أميرا مذكورا شجاعا ، له صدقة ومعروف ، وابتنى بمنبج مدرسة وقفها على أصحاب الامام (١٣٠ - ظ) أبي حنيفة رضي الله عنه ، ووقف عليها أوقافا حسنة ، وكان قد بلغ بك بن بهرام بن أرتق عنه كلام أوجب تغييره عليه ، فسير ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق بقطعة من عسكره ، وأمره بالمرور بمنبج والتقدم الى حسان بالمسير معهم الى تل (١٧) باشر ، فاذا خرج قبضوه فتوجه تمرتاش اليه في صفر من سنة ثمان عشر وخمسمائة ، وفعل ما أمره به ، وقبض على حسان ، وبخلوا منبج ، وعصى عليه الحصن فلم يسلم إليه ، وسيره الى (١٨) خرتبرت ، وحبس به في جب ، ودام على حصر منبج ، ووصل بك بنفسه ، فضربه سهم من الحصن فقتله ، وأخرج حسان من الجب وعاد الى منبج ، ودام في ولايتها الى أن توفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقد ذكرنا قصة حسان مع بك مستقصاة في ترجمة بك من هذا الكتاب .

قرأت بخط مرهف بن أسامة بن مذقذ في مدرج علق فيه شيئا من التاريخ ، قال : فيها قبض بك على حسان البعلبكي ، ونزل على قلعة منبج ، وكان فيها عيسى أخو حسان ، وعذب حسان أنواع العذاب ليسلم اليه منبج ، فلم يفعل أخوه عيسى وأنفذ الى جوسلين واطمعه بتسليم منبج اليه ، فجمع جمعا كثيرا ، وجاء فنصر الله بلكا عليه ، فكسره ، وعاد الى حصار منبج فأصابه سهم في ترقوته فمات ، وكان قد جعل سجن حسان في قلعة (١٩) بالو ، فلما قتل بك نزل ابن عمه داود بن سكرمان على بالو فأخذها وأفرج عن حسان ، وقيل ان ذلك كان في ربيع الاول (٢٠)

جناح الدولة حسين

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تدهش الب أرسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تدهش ، وكان متوجها إلى أبيه عاد إلى حلب ، فسلمها إليه ، وتسلمها رضوان منه ، ومن وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

أنا أبو نصر القاضي قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال : كان بدمشق ، يعني رضوان بن تدهش عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله ، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم وكان المستولي على أمرها باقي الدولة (١٩٧ - ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

هكذا ذكر الحافظ الدمشقي (٢١) ، وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص أتابك رضوان بن تدهش ومدبره ، كان تاج الدولة تدهش حين قتل قسيم الدولة أق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص إلى جناح الدولة حسين ، وجعله أتابك (٢٢) عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تدهش كان حسين يدبر أمر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى إلى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله إلى حمص كبس عسكر رضوان على سربين ، وأسر أرباب دولته وديوانه ووزيره أبا الفضل ابن الموصل ، ومات صاحب الرحبة زوج أمنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة إليها ليأخذها ، فوجد دقاق قد سبقه إليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل ذقرة بني أسد ، وخرج إليه رضوان إلى الذقرة ، واصطلحا وأخذنه معه إلى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه ، وسار جناح الدولة حسين الى حمص وأقام بها إلى أن نزل يوما لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية فقتلوه ، وكان ذلك بتدبير أبي طاهر الصائغ رئيس الاسماعيلية ، تقربا إلى الملك رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الودشة ، وكان حسين رجلا شجاعا باسلا ذا رأي سديد وفيه بين وخير .

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن مذقذ قال : وتسلم قسيم الدولة أق سذقر مدينة حمص - يعني من خلاف بن ملاعب وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وهو أتابك عسكر ولده الملك رضوان ، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه ، ووصل إلى حمص فنزل من القلعة إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة ، فلما وصل مصلاه أتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ - ظ) الباطنية في زي الصوفية يستميدونه ، فوعدهم فهجموا عليه بسكاكينهم ، فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من أصحابه ، وقتلوا وقتل نفر كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم أبرياء ، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين وأربعمائة ، واختبأ البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شمس الملوك (٢٣) ، يلتمسون منه إنفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل أن يخرج إليها ويتسلمها من الافرنج من تمتد أطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها ، وتسلمها ، وأحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فأقر عليهم إقطاع أبيهم .

قرأت في تاريخ أبي المغيث مذقذ بن مرشد بن مذقذ ، وفيها ، يعني سنة ست وتسعين وأربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من

تدبير أبي طاهر الصائغ ، وخدمة للملك رضوان ، واستولى بعده قراجا على حمص .

قرأت في مدرج وقع إلي بالقاهرة بخط العضد مرهف بن أسامة ابن مرشد بن مزقذ يتضمن ذكر واقعات ذكرها علي وجه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين - يعني وأربعمائة - فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة .

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه أبي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيم ، ونقلته من خطه قال : سنة ست وتسعين وأربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر (٢٤) ، أحدهم يعرف من أهل سرمين .

وفيهما مات الحكيم العجمي الباطني بحلب (١٩٨ - و) .

حمدان بن عبد الرحيم بن حمدان بن علي

ابن خلف بن هلال بن نعمان بن داود ، أبو الفوارس بن أبي الموفق التميمي الأثاري ، ثم الحلبي ، من ولد حاجب بن زرارة التميمي . أصله من قرية من قرى حلب يقال لها معراثا الأثارب ، وكانت جارية في ملكه ومن أولاده انتقلت الى ملاكها الآن ، ثم انتقل هو وأبوه الى الأثارب فسكنها ، وكان أكثر مقامه بالجزر (٢٥) يتردد في الدولتين الإسلامية والفرنجية ، وولي في الجزر أعمالا للديوان في دولة أتابك زنكي بن آق سنقر .

وحكى لي الصدر بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب أنه لما كان الجزر في أيدي الفرنج ولوا حمدان بن عبد الرحيم فيه أعمالا وصادروه بعد ذلك .

وحكى لي حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم أن عم أبيه حمدان بن عبد الرحيم تولى ديوان معرة النعمان في بعض السنين ، ووهبه صاحب الأثارب الفرنجي قرية تعرف بمعربونية من ناحية معرة مصرين ودامت في يده بعد أخذ المسلمين البلاد من أيدي الفرنج ، وسنذكر سبب تملك القرية إياه في أثناء هذه الترجمة ، وما زالت معربونية في أيدي أهله الى زمننا .

قلت : وسكن حمدان حلب وسير رسولا الى الفرنج ، وسير الى مصر الى الأمر الفاطمي ، وسير أيضا الى دمشق رسولا الى طغتكين أتابك ، وبخل بغداد .

وكان هذا حمدان بن عبد الرحيم خليعا ، كثير الانهماك في الشرب في قرى الجزر ونواحيها (٢٧٦ - و) والبيرة والمنتزهات في جبل سمعان والجبل الأعلى ، وكان قد شذا (٢٦) طرفا من الأدب

واطلع على التواريخ وأيام العرب وحصل قطعة صالحة من معرفة النجوم والطب ، وصنف كتابا في أخبار بني تميم وأيامهم جمع فيه فوائد كثيرة وأشعارا حسنة وضمنه ذكر مآثرهم وأخبارهم ووقائعهم وأشعارهم ، وانتسب فيه الى بني تميم ، ووسمه بالمصباح ووضع كتابا في تاريخ حلب من سنة تسعين وأربعمائة ضمنه أخبار الفرنج وأيامهم وخروجهم الى الشام من السنة المذكورة وما بعدها وسماه « المفوف » (٢٧) ، وله شعر حسن لطيف الالفاظ عذب المجاجة ، وربما يقع فيه ألفاظ ملحونة ، وقع الى ديوان شعره بخطه وقد سقط منه شيء ، وكان مولده في حدود الستين والأربعمائة .

وقرأ الأدب على الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرانة ، وروى عن أبي نصر بن الخيشي وعن أبيه عبد الرحيم ، روى عنه أبو عبد الله محمد بن الحسن الملحي ، وابن أخيه عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم وسعيد ابن أخت نعمان رئيس معرة النعمان .

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي بدمشق ، قال : أخبرنا أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن أحمد الملحي لفظا قال : حمدان بن عبد الرحيم الطبيب الأثاري (٢٧٦ - ظ) وصل الى دمشق رسولا الى أتابك طغتكين ، وكان رجلا وسيما متشبثا بأهداب الأدب في طلب العلم ، كثير الدؤوب ، كريم النفس ، له بجميع من يمر به من الأدباء صحبة وأنس ، إجتاز به في بعض السنين الأمير مهند الدولة أبو نصر الخيشي ، فأنزله بداره في الأثارب وأقام عنده أشهرا فأنشدني ما عمله الخيشي وقد وافى هلال شهر رمضان .

له من قمر رائي معرضا
عنه واعراضي حذار وشاته

طلع الهلال فقامت أعمل حيله
في قبلة تجني جنا وجناته
فمضى وقال تصد عن قمر الهوى
لترى الهلال أرقاً إلى درجاته
فأنا وحق هواك أبعد مرتقى
منه وتأثيري كتأثيراته
أنا كامل أبداً وذلك ناقص
فاعزم بوصفي جاهداً وصفاته (٢٨)

قرأت في بعض تعليقاتي من الفوائد أن حمدان مضى إلى بغداد في
سنة أربعين وخمسمائة وعمل بها وأظنني نقلتهما من خطه :

ان بغداد لمن أبصرها ورأى
ها طرفة بين البلاد
فتأملها تراها عجباً نعم
بيض على قوم سواد

لو قال : تجدها ، كان أجود .

سمعت بعض بني عبد الرحيم يقول لي : إن حمدان كان سير من
حلب رسولاً إلى مصر في أيام الأمر بن المستعلي ، وكان من عانة
الرسول أنهم يجتمعون بالأمر ويجلسون بين يديه فلم
يستحضر (٢٧٧ - و) حمدان لأنه نقل إليه أنه حشيشي (٢٩)
فكتب إليه أبيات يطلب الحضور وتنصل مما قرف به عنده ، فأذن له
الأمر فلما مثل بين يديه ارتجل وقال :

سلام ورضوان وروح ورحمة
على الأمر الطهر الذكي المناسب
إمام إذا جاد الحجاب لنا به
أثرنا ترى أقدامه بالحواسب

أخبرنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم قال : حدثني والدي عبد الرحيم بن سعيد قال : كان عمي الرئيس أبو الفوارس حمدان قد قرأ على الشيخ أبي الحسن بن أبي جراحة النحو واللغة وعلم الهندسة والنجوم وغير ذلك ، واتفق له أن خرج إلى معراثا الاثارب ، وهي ملكه وكانت في يد الفرنج إذا ذاك فمرض صاحب الاثارب سير مذويل ، وهو ابن أخت صاحب أنطاكية ، فدخل إليه وعالجه حتى برأ ، فلما أبل من مرضه سير سير مذويل إلى حمدان وقال له : تمن ، فطلب منه قرية ، فأعطاه معربونية ، فسكن فيها مدة ثلاثين سنة وعمرها واتخذها منزلا ، فأرسل إليه الشيخ أبو الحسن ابن أبي جراحه يعتبه على مقامه تحت أيدي الفرنج ويلومه على ذلك فكتب إليه :

وقائل عائب إذ رأى شغفي بقرية
ليس سكناها من الشرف
ماذا دعاك إلى هذا فقلت له
صروف دهر وصرف الدهر غير خفي
بخل الوفي وإعراض الرضي وتقمـ
ـصير الصفي وظلم المشرف الحنفي
فإن أقمت بها فالمدسك موطنه
في جلدة ومقر الدر في الصدف (٢٧٧ - ظ)

قال : فهجرته زوجته بنت المعمم وامتنعت من الخروج إليه إلى القرية ، فكتب إلى ابن أخيه المنتجب أبي سالم بن أبي الحسن بن عبد الرحيم :

يا أبا سالم سلمت على مـ
ـر الليالي وزادك الله قدرا
وأرتني فيك الأمان في صنـ
ـويك ما أبرق الغمام ودرا

خذ حديثي واعرفه لا تعدم
حرفا حرفا وسطرا سطرا
أنا شيخ هم وقد أكل الدهم
- ر شبابي واعتضت باليسير عسرا
ساكن في خرابة بين قوم
دأبهم كلهم حراث الصحرا
لا أراهم ولا يروني إلا
مثل غمر الأجباب بالجفن مرا
وإذا ما جلست فيهم فما أس
- مع منهم إلا كلاما هجرا
قاس زرعي وخاس قطني
وقد أعنب ثوري ومشفني قد تفرا

هذه ألفاظ يستعملها الفلاحون فيما بينهم
ثم أنتم كنتم جوارى وسما
ري فبنتم لسوء حظي طرا
والتي كانت القرينة من خمسين
عاما أبدت فراقا وهجرا
تركتني أدور في الدار كالحية
- ران وحدي أكابد العيش ضرا
أكذس الدار أضرم النار أجلو
القدر اطهي أدق للقدر بزرا
واقتراحي عليك أيديك الله
- به بفخر منه وزادك فخرا (٢٧٨ - و)
أن تقضي حوائجي قبل أقضي
وتداري ما أربى قبل أدرا
وإذا أنت نمت عنها وما أعدت
للخطب قبل يسرك يسرا
هات قل لي فمن لها غيركم عو
نا حلا الدهر في فمي أو أمرا

فاشتدوا لي وصيفة أو غلاما
أو فردوا قرينة العمر قسرا
وكأنني بكم وأنتم تقولو
ن ترى عمنا يحاول أمرا
بعد عمرين عاد يهوى التصابي
ويرجي لبقله له أن يطرا
ذهب الاطيبان هيهات أن
يشمخ مهرا من كان برزون كسرا

وكانت هذه القرية معربونية حين وهبه إياها صاحب الاثارب في
اواخر سنة احدى وعشرين وخمسمائة دائرة موحشة الصوى ،
فنزلها وأحضر إليها أهله وعمر بها دارا وأحضر اليها فلاحين
وأكرة ، وعمر غامرها وزرعه واستغله .

وسير إلي الصدر أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن الخشاب
كراريس من شعر حمدان بن عبد الرحيم بخطه فقرأت فيها أبياتا
كتبها بعد خروجه من معربونية الى جيرانه بها وهي :

اسكان عرشين القصور عليكم
سلامي ما هبت صبا وقبول
الا هل إلى حث المطايا إليكم
وشم خزامي حربذوش سبيل
وهل غفلات العيش في نير
مرقس تعود وظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم
تلاقى عليها زفرة وعويل (٢٧٨ - ظ)
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني
أميل مع الأقدار حيث تميل

أُذشِدنا أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد
الرحيم قال : أذشِدني والذي أبو الموفق عبد الرحيم بن سعيد قال :
أذشِدني عمي حمدان بن عبد الرحيم لنفسه :

يُير عمان ويير سابان هجـ
ـن غرامي وزن أشجاني
إذا تذكرت فيهما زمنا
قضيته في عرام ريعاني
يالهِف نفسي مما أكابده
إن لاح برق من يير حشيان
وإن بدت نفحة من الجانب
الغربي فاضت غروب أجفاني
وما سمعت الحمام في فنن
إلا وخلت الحمام فاجاني
ما اعتضت مذ غبت بدلا حاشي
وكلا ما الغدر من شاني
كيف سلوي أرضا نعمت بها
أم كيف أذسى أهلي واخواني (٣٠)
لاجلق (٣١) رغن لي معالمها
ولا أطبنتي أنهار بطنان
ولا ازدهتني في منبج فرص
راقت لغيري من آل حمدان

يعني أبا فراس بن حمدان وكان يتشوق منازلُه بمنبج في شعره :

لكن زمني بالجزر أذكرني
طيب زمني به فأبكاني
ياحبذا الجزر كم نعمت به
بين جنان ذوات أفنان

بين جنان قطوفها ذلك
والظل واف وطلعها دان (٢٧٩ - و)

قلت : وهذان البيران بير عمان وبير سابان هما خربان وفيهما
بناء عجيب وصور مشرقة ، وبينهما قرية تعرف بترمانين (٣٢) من
قرى جبل سمعان ، أحد الليرين من قبلي القرية والآخر من شمالها ،
وقد ذكر الخالديان : أبو بكر وأبو عثمان ، وأبو الحسن الشمشاطي
في كتابي البيرة بير رمانين فقالوا : ويقال له بير سابان ، وذكروا
قصة جرت فيه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجاهلية سنذكرها
في ترجمة عمر رضي الله عنه ان شاء الله تعالى ، وقد غير اسم
القرية لطول الزمان وبير سابان وبير عمان باللسان السرياني
ومعنى بير عمان باللسان السرياني : بير الجماعة ، وبير سابان
معناه بير الشيخ ، فعربا ف قيل : سابان و عمان .

أخبرني أبو الفوارس بن أبي الموفق بن سعيد الحلبي قال :
أخبرني سعيد بن أخت نعمان رئيس المعرة بقلعة حلب قال : قدم
الرئيس حمدان بن عبد الرحيم معرة النعمان فجلس هو والرئيس
نعمان رئيس المعرة خالي ، وجماعة من أهل المعرة على مجلس لهو
وشرب بمعرة النعمان ، وكان عندهم مغنية تدعى ست النظر ،
فافترقوا بعد هزيع من الليل وقام حمدان بن عبد الرحيم سكران
وفرش له فراش بقبة الامير أبي الفتح بن أبي حصينة (٣٣) بمعرة
النعمان ، وكانت قبة عالية ، ونام وقام ليقتضي حاجة وهو في سكره ،
فسقط من أعلى القبة الى الدار فعلم به الرئيس نعمان وأصحابه
فبادروا اليه وحملوه ، وأقسم نعمان على أصحابه أن لا يعلموه ،
(٢٧٩ - ظ) بما جرى ، ووضعوه على فراشه وسكذوه ساعة ،
ثم أرسلوا خلف ست النظر المغنية واحضروها فجلست عند رأسه
وغنت فهب من رقده وجلس واستطاب وقته ، فسألوه أن ينظم في
ذلك شيئا فعمل :

أيا صاح قد صاح بك الصباح
وهبت تغنيك ست النظر
بلفظ هو السحر سحر الحلال
ووجه حوى الحسن مثل القمر
وتشدوك قم وتنبه لها
وباكر صبودك قبل البكر
أفوق كم تنام وهات المدام
ورقرق لنا الجام وقيت شر
أما تنظر الفجر خلف الظلام
محدثا وأعلامه قد نثر
وقد سامحتك صروف الزمان
وكفت أكف القضاء والقدر
فما العذر في ترك شرب المدام
ونهب الاباريق كرا وفر
فحدث الشمول بخفق الطبول
ونفخ الزنابي وقرع الوتر
فما رونق الدهر باق عليك
فخذ ما صفا واجتنب ما كدر

قال سعيد : فبقي حمدان مدة لا يعلم بما جرى الى أن خطر لي أن
قلت له : ما تقول يا مولاي فيمن سقط من هذا المكان الى أسفل ؟
فقال : ما يجمع الله به شملا ، فقلت : أما تذكر ليلة « أيا صاح قد
صاح بك الصباح » ؟ فقال : ما جرى ؟ فقصصت عليه القصة ،
فقال : لهذا تؤلني أعضائي من ذلك اليوم ، ثم ألقى نفسه مريضا
فبقي على الفراش مطروحا شهرين (٢٨٠ - و) .

أخبرني حمدان بن عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم أن عم
أبيه حمدان بن عبد الرحيم توفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة
وقد جاوز الثمانين .

ختلغ أبه

ويقال فتلغ أبه ، وهو اسم تركي ، ويعرب فيقال : خطلبا ، وهو من ممالك السلطان محمود بن ملكشاه ، ملك حلب سنة إحدى وعشرين وخمس مائة سلمها إليه بتوقيع الى نائبه مسعود بن أق سنقر البرسقي فأقام بها ستة أشهر ومد يده في ظلم الرعية ، واجتياح أموالهم والطمع فيها ، واتهم أبا طالب عبد الرحمن بن العجمي بأن المجن بركات الفوعي أودعه وبيعه ، وسجنه وسجن عمه أبا عبد الله بن العجمي ، وضيق على أبي طالب وعذبه وثقب كعبه ، وكان بدر الدولة بديع رئيس حلب معه ، واتفقوا على أن حصروا ختلغ أبه ، وقبضوا على أصحابه ووصل إليهم الى حلب إبراهيم بن الملك رضوان بن تتش ، وكان بدر الدولة زوج أخت إبراهيم ، فكانا يجبيان بخل حلب بينهما ، وطال الحصار بختلغ أبه الى نصف ذي الحجة ، واتفق الامر بينهما على أن استدعوا أتاك زنكي ، فوصل وتسلم حلب وأخذ ختلغ أبه وكحله (٣٤) ، وانتقم الله منه لأهل حلب .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن نزار التدوخي المعروف بابن العظيمي الحلبي في كتابه « الموصل على الأصل الموصل » وهو التذكرة من سير الاسلام ، واخبرنا بذلك أبو اليمان زيد بن الحسن الكندي - إجازة - (١٣٢ - ظ) قال : أجاز لنا أبو عبد الله بن العظيمي ، وقال : سنة إحدى وعشرين وخمس مائة ، ولما شرق عز الدين مسعود البرسقي ولي بحلب والقلعة الأمير تومان ، فلما استقامت أموره بالشرق نفذ سرية مع أمراء منهم : ينال ، وسنقر دراز وغيره ، فلما وصلوا الى حلب لم يدخل تومان في الطاعة ، فخالفه رئيس حلب فضائل بن بديع وأدخلهم الى حلب وانزلهم قلعة الشريف (٣٥) ، ووقع بين الوالي وأهل حلب .

وكان غلمان خطلبا وحجابه وأصحابه في قلة ، وكلهم يشربون في البلد لانه عشية عيد الفطر عند أصدقائهم ومعارفهم ، فقبضهم الحلبيون وملأوا بهم الحبوس والمساجد ، ودار ابن الاقريطشي ، وقيدوهم وأصبحوا معتقلين ، وزحف الناس كافة إلى باب القلعة ، وحصروا القلعة ، فقاتلهم النهار أجمع ، ولما كان الليل نزل أحرق القصر الذي لم يكن في البلاد مثله ، وأتلف فيه من السقوف والابواب والاختشاب والرخام ، ودار الذهب حتى تساقع بعضه على (١٣٣ - ظ) بعض ، وهجم الناس صبيحة تلك الليلة فنهبوا منه كلما قدروا عليه ، وقتل من الناس جماعة ، ووصل إلى باب حلب الأميران حسان بن كمشتكين البعلبكي وأخوه حسن صاحباً منبج وبزاعة بتاريخ السبت سابع شوال ، وساماه الخروج معهما فسأبى ذلك على أن يسلم حلب إلى بياض البلد وابن مالك ويتسكع ، فلما أبى طال الحصار .

وصل بعد ذلك جوسلين (٣٨) إلى باب حلب في مائتي فارس ونزل بابلاً (٣٨) وتقدم إلى بانقوسا (٣٩) ، ونفذ رسوله إلى حلب بتاريخ الأحد ثامن شوال ، وطلب خدمة فصانعه ودفعوه .

وفي آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان ، فسأخلوه إلى حلب ، فأكرموه ونادوا بشعاره ، وخرج صاحب أنطاكية البيمند ونزل صلدع (٤٠) بتاريخ الأربعاء حادي عشر شوال ، والمراسلة تعمل ، وركبوا بسكرة ذلك اليوم ، وضايقوا حلب ، وركب الملك إبراهيم بن رضوان ، وبدر الدولة ، ونفسر الحلبيون والرئيس ابن بديع في خلق عظيم وتراسلوا ، فاستوت الهدنة ، ووقعت الايمان على المدة المعلومة ، وحمل إليه ما اقترحه يوم الخميس ثاني عشر شوال ، بعد أن أشرف الناس على الخطر العظيم ، وبخل رسول الافرنج قبض من حلب ألف دينار ، وقرر ألفاً أخرى وعاد إلى أنطاكية ، وصار كلما غاب من الحلبيين رجل قد قتل أو صلب ، وطال الامر على خطلبا ، وحفروا خندقاً حول القلعة ، فكلما خرج منها رجل أو بخل إليها أخذ إلى نصف ذي الحجة وصل

(١٣٤ - و) الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب ، واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وخطلبا الى باب الموصل الى المولى الاصفهسلار (٤١) الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي ابن قسيم الدولة أق سنقر إلى الموصل لـ فـلمــــنـــــــــــــون ولي عاد الى منصبه ، فأقام بحلب الأمير حسن قراقش ، والرئيس فضائل ابن بديع ، فأصالح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لأحد منهما ، وطمع بملاك البلد وسير سرية إلى حلب مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى السلطنة واليا من قبله ، ورتب الأمور ، وحرت على يده على السداد .

وقال ابن العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، في جمادى الآخرة ، وصل قسيم الدولة أبو سعيد زكي إلى حلب ، وملكها وصعد القلعة ، وبات بها ، وعاد إلى نقرة بني أسد وقبض على خطابا وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوه ابن ببيع فكحلوه بسداره في النصف من رجب (٤٢) .

خلف بن ملاعب

خلف بن ملاعب الأشهبى الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وأفامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكوا إليه خلف بن ملاعب ، فكتب إلى أخيه تاج الدولة تثن صاحب دمشق ، وإلى قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ - ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغى سغان صاحب أنطاكية ، يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تثن ، وحبس ابن ملاعب ، وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل أفامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب .

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ، وبخل أفامية وملكها ، وتجددت وحشة بينه وبين ابن مزقذ ، أظنه أبا المرحف نصر بن علي ابن مزقذ ، وكان قسيم الدولة آق سنقر حين فتح أفامية جعله بها ، واتصلت غارات ابن ملاعب على شيزر ، وكفرطاب ، والجسر ،

وزحف ابن مذقذ إليه ومعه خلق ورجالة ، فظفر بهم ابن ملاعب ، وكان في نفر يسير ، فقتل جماعة وأسروا جماعة ، وباعهم أنفُسهم ، واستقرت الحال بينهم بعد ذلك .

قرأت في تاريخ أبي المغيث مذقذ بن مرشد بن علي بن مذقذ الذي نيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ، قال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها : كتب ولاية الشام إلى السلطان ملك شاه يشكون ما يلحقونه من خلف بن ملاعب (٢٢١ - و) بحمص من قطع الطريق ، واخافة السبيل ، فأمر السلطان أن يسير بزان فنزل قريبا من حمص فكتبه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، وبخل إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حصر بزان المدينة ، واجتمع عليها كل من في الشام فافتتحت وكل من الأمراء المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا إلى السلطان فأنعم بها على أخيه تاج الدولة ، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد إلى قلعة أصبهان ، فحمل وحبس بها حتى مات السلطان .

وقال : سنة أربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة آق سنقر على أفامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرف نصر بن سيد الملك ، وذلك في شعبان .

أنبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال : كتب إلينا أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مذقذ قال : كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم ، واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج أمر السلطان إلى أمراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة صاحب حلب ، وبزان بن ألب صاحب الرها ، ويغي سفان صاحب أنطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن ملاعب (٢٢١ - ظ) وتسويره إليه ، فنزلوا على

حمص وحاصروه ، وأخذوه إلى السلطان فأقام سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فأطلقته خاتون امرأة السلطان ، وتسلم قسيم الدولة آق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة : قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، وسلم حمص إلى جناح الدولة حسين .

أنبأنا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسيان وتاج الدولة ، ونزلوا على حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد إلى عند السلطان فلما هلك السلطان خلص ابن ملاعب وصعد إلى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل .

وقال : سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة أفامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد إلى حلب في العاشر من رجب (٤٣) .

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، قال : « وعاد منها ، يعني من مصر ، تسلم قلعة أفامية سبعة عشر سنة » ، وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوذه من مصر فيها ، وإن كان أراد ولايته الأولى ، فالكلام غير مستقيم لأنه أخبر (٢٢٢ - و) أنه تسلم قلعة أفامية وأقام بها سبع عشر سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ، فبقيت خارجة عن يده قبل قتله أربع سنين وثلاثة أشهر ، وكانت أفامية في يد ابن ملاعب مع حمص في أيام أبي المكارم مسلم بن قريش ، فإنني قرأت في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب (٤٤) .

قرأت في تاريخ أبي المغيث مذقذ بن مرشد الذي نيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من أهل أفامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب ، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالنا لنا ليلة وله ليلة ، فسيره معهم ووصل أفامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة

قرأت بخط عمر بن محمد العلمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، وأخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة ، وذكر العظيبي أنه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق وكان عالما بالتاريخ ، قال : وقدم إلى أفامية ، يعني خلف بن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، لأن أهل أفامية ، مضوا إلى مصر (٢٢٢ - ظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة وبخلها وملكها .

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ، قتلته جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من أهل سمرمين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القننج أصله من سمرمين ، وأقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من أفرنج لقدهم في الطريق ، فأعلموه أنهم جاءوا بنية الغزو إلى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن إلى الليل ، وأدخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجذونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن أخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائغ على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى أولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، وأخذ أكثرهم فيما بين أفامية وشيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصبح ، ووصل إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ مدة ، وأطلقه .

ودخل طنكلي إلى أفامية عقيب هذا الحادث طمعا في الحصن ومعه أخ لهذا ابن القنچ من سرمين (٢٢٣ - و) كان مأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض أولاد ابن ملاعب النين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بها ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فأقام إلى آخر السنة ، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة ، وأسر ابن القنچ والصايغ ، وعاقب ابن القنچ وقتله ، وأطلق بعض أهل أفامية .

أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفذكي ، قال : أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه أن قوما من أهل أفامية من الاسماعيلية عملوا على مالكا وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصانا وبغلة وعددا أفرنجية وتراسا وأربية ، وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب - وكان رجلا كريما شجاعا - جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارسا من الأفرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين إلى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن أفامية .

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ : سنة تسع وتسعين وأربعمائة (٢٢٣ - ظ) فيها قفز أهل أفامية مع القاضي ابن القنچ على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه ،
وأنبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد
الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وفيها :
عمل الباطنية على قلعة أفامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا
القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها إلى أن
أخذوها (٤٥) .

دييس بن صدقة

ابن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد بن مرثد بن زنجي بن ريان بن عدني بن عذور وقيل ريان عذور بن عدي بن جلد بن حي بن عمرو بن أبي المظفار مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن سعد بن سواء بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن ذودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، الأمير أبو الأغر بن الأمير سند الدولة علي الأسدي صاحب الحلة المزينية ، هكذا ذكر نسبه أبو السعادات محمد بن عبد الرحمن فيما أخبرنا به أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان الأسدي - إجازة عنه - ذكره في شرح المقامات .

وذكر الأبيوردي أنه أبو الأغر ديبس ملك العرب بن سيف الدولة صدقه بن منصور بهاء الدولة بن ديبس نور الدولة بن علي الأمير بن مزيد الأمير بن مرشد الأمير بن الريان بن عدني بن خالد بن مالك بن حي بن عبادة بن مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد معاوية بن كسر ابن ناشرة بن نصر بن سواء بن مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد ابن خزيمة ، قدم حلب ونزل على ظاهرها في نصف شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة وحاصرها مع إبراهيم بن الملك رضوان ومع الملك بغدوين الرويس الفرنجي فطال حصارهم لها ، واجتمع عليها ثلاث رايات لهؤلاء الملوك الثلاث إلى أن تداركها الله (٣٠٦ - و) بأق سنقر البرسقي فوصل إلى حلب ورحلوا (٤٦) عنها وقدم ديبس مرة ثانية إلى حلب حين أسر بنواحي صرخدا سره ابن طغتكين فباعه على زنكي بن أق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار (٤٧) وخاف من زنكي فلما وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه واحترمه وأنزله في دار لاجين بحلب وأعطاه مائة ألف دينار وخلع عليه خلعا سنية .

فأما منازل ديبس حلب فكان سببها أن ديبسا نهب بلد بغداد في سنة أربع عشرة وخمسمائة وسار بنفسه إلى بغداد وضرب خيمته بإزاء دار الخليفة المسترشد ، وأظهر ما في نفسه منه وتهدد المسترشد ، وذكر له أنه طيف برأس أبيه صدقه ، فأنفذ المسترشد إليه شيخ الشيوخ اسماعيل برسالة ضمن فيها أن يصلح بينه وبين السلطان محمود فكف عن الأذى ، وسار إلى الحلة في رجب ووصل السلطان محمود إلى بغداد ، فأنفذ ديبس زوجته بنت عميد الدولة بن جهير ومعه أموال عظيمة وهدايا سنية ، وسأل العفو فأجابه السلطان إلى ذلك على قاعنة لم يرض بها ، ولم يجب إليها ، ثم أنه نهب جشير (٤٨) السلطان ، فسار السلطان إلى الحلة لمحاربتة فأرسل ديبس نساءه وأمواله على البطائح ، وسار إلى إيلغازي بن أرتق والتجأ إليه وأقام إلى سنة خمس عشرة وخمسمائة ووصل السلطان إلى الحلة ولم يربها أحدا ، فعاد وعاد ديبس من مستقره عند إيلغازي إلى الحلة ودخلها وملكها . وسير ديبس إلى المسترشد والسلطان يعتذر إليهما فلم يقبلا عذره ، وسيرا عسكرا عظيما إليه ، ففارق الحلة وقصد الأزيز (٤٩) ، فوصل العسكر الحلة ، وحفظوا الطريق على ديبس فسير إلى مقدم العسكر ، برزقش يستعطفه وشرط أن ينفذ أخاه منصورا على سبيل الرهن ويدخل في الطاعة (٣٠٦ - ظ) فأجابه ، وعاد بالعسكر في سنة ست عشرة ، وكان ديبس قد تزوج بنت إيلغازي بمارين حين كان بها ، وحملها إلى الحلة فسير المسترشد إلى إيلغازي يأمره بفسخ نكاح ابنته من ديبس ، وذكر أنه كان لها زوج من السلجوقية ، وقد دخل بها فقبض عليه السلطان واعتقله ، وكان الرسول إلى إيلغازي القاضي الهيتي فعرفه أن النكاح فاسد فأجاب بجواب أرضاه ، وأما ديبس فكاتب المسترشد يستميله ، فعلم أن ذلك خديعة وكان السلطان ببغداد فحدثه المسترشد على قتال ديبس فسير إليه جيشا فأحرق دار أبيه بالحلة ، وخرج منها إلى النيل فأخذ ما فيها من الميرة ، ودخل الأزيز فدخل العسكر الحلة ، فأوها خالية فقصدوه إلى الأزيز وحصروه . فسير أخاه منصور إلى خدمة السلطان ، وخرج بعسكره ووقف بإزاء العسكر وتحالف العسكران ، وعاد عسكر بغداد ومعهم منصور ، ثم

إن دبیس واقع أق سنقر البرسقي على الفرات وتبعه إلى بغداد ،
وسال المسترشد الأمان وأن يكون على الطاعة بشرط القبض على
الوزير أبي علي بن صدقة ، فقبض عليه ، وسمع السلطان محمود
بالوقعة مع البرسقي فقبض على منصور وولده وحبسهما ببعض
القلاع فجز دبیس شعره ولبس السواد ، وأذى الرعية ، ونهب البلاد
وأغار على كل ما كان للمسترشد فأمر المسترشد العسكر بالخروج ،
وخرج بذفسه وعبا البرسقي عسكر بغداد ، ووقف المسترشد وراءه
وبين يديه الدعاة والمقرئون وبين يدي دبیس الاماء والمخانيث
بالدفوف والملاهي (٣٠٧ - و) فحمل العسكر الديسي على عسكر
الخليفة

فكشفه مرتين ، فحمل زنكي بن أق سنقر فهزم عسكر دبیس وأسر
أميرين من عسكره ، وانهزم دبیس بعسكره وألقوا أنفسهم في الماء ،
وكان ما نذكره ، ودخل المسترشد ظافرا يوم عاشوراء ، وطلب
دبیس غزیه والمنتفق (٥٠) واتفق معهم ، وتوجه إلى البصرة فدخلها
وقتل أميرها ، ثم خاف فخرج عنها وسار على البرية وحمل ما قدر
عليه من أمواله ، ووفد على مالك بن سالم بن مالك بقلعة جعبر
فاستجار به فأجاره وقبله ، وأغضب المسترشد والسلطان ، ثم إن
دبیسا صادق جوسلين وبغدوين الفرنجيين ، وصافاهما بوساطة
مالك له معهما ، واتفق مع الفـرنج على حصار حلب
وكاتب قوما من أهل حلب وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها
إليه فكشف ذلك رئيسهما أبو الفضائل بن بديع ، فأطلع عليه
تمرتاش بن إيلغازي صاحب حلب ، فأخذهم وعذبهم كل عذاب
أمكنه ، وشذق بعضهم وصادر بعضا وأحرق بعضا ، وطمع دبیس
بحلب لغيبة تمرتاش بماربين واشتغاله بمملكتهما بعد أن خرج
تمرتاش من حلب في الخامس والعشرين من رجب سنة ثمان عشرة
وخمسمائة وأخرج بغدوين من السجن وقرر عليه ثمانين ألف دينار
وأن يسلم قلعة عزاز إليه وحلفه على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج
إثني عشر نفسا أحدهم ابن الجوسلين ، وعجل من المال عشرين
ألف دينار ، فلما أن خرج غدر ونكث وعزم على قصـد حلب

وحصارها ورحل إلى نهر قويق وأفسد كلما عليه ، وضايق حلب ،
وكان دببس قد مضى إلى تل باشر إلى الجوسلين ، فبرزوا من تل
باشر وقصدا ناحية الوادي وأفسدا ما فيه بما قيمته (٣٠٧ - ظ)
مائة ألف دينار .

وأخبرني والدي رحمه الله عن أبيه أن دببس بن صدقة عاهد
الفرنج على أنهم يحاصرون حلب وتكون الأنفس والأموال للفرنج
والبلاد لدببس .

قال لي والدي عن أبيه : ولما طال الحصار بهم وقلت أزوادهم
وقع فيهم المرض فكان يمر المار في الأسواق فيجد المرضى على
الدكاكين ، فإذا قارب الفرنج والعسكر البلد للقتال ووقع الصائح
قام المرضى مع شدة مرضهم وقاتلوا أشد قتال وردوا العدو .

قال لي والدي : وبلغني أن عوام حلب كانوا يصعدون أسوار
المدينة عند حصار دببس ويضربون بطبل صغير ويصيحون :
يادببس يانحيس .

وتوجه جد أبي القاضي أبو غانم والشريف النقيب وابن الجلي
يستغيثون إلى تمرتاش فما أغاثهم ، فهربوا إلى الموصل من ماردين
وحضروا عند البرسقي وطلبوا معونتهم فأجابهم ووصل إلى حلب
ورحلهم عنها ، وقد ذكرنا ذلك في ترجمة البرسقي . ثم إن دببسا
مضى إلى سنجر السلطان فسلمه سنجر إلى السلطان محمود في سنة
ثلاث وعشرين ، وأوصاه فأخذه صحبتته فأخذ دببس ولده في السنة
المذكورة حين مرض السلطان محمود وسار إلى العراق ، وكان
مجاهد الدين قد أقطع الحلة مضافة إلى شحذكية بغداد ، فلما سمع
بهبوز نائبه بحركة دببس هرب عن الحلة فدخلها دببس في شهر
رمضان وقصد عسكر المسترشد ، وسار محمود إلى العراق وقد
عوفي لأجل قتال دببس ففارق دببس العراق وقصد البصرة ومعه
جمع كثير فاستولى على البصرة فأنفذ (٣٠٨ - و) السلطان
محمود إليه عسكرا ففارق البصرة وطلب البرية ووصل بعد ذلك إلى

الشام خوفا من أن يسلموه إلى المسترشد فوصل إلى أرض سمرين هاربا على نجائب في زفر يسير ، فالتجأ إلى الفرنج فأكرموه وانقلب إلى عزاز ، واجتمع بجوسلين وكان صديقه فأكرمه ودفعه عند هربه إلى قلعة ابن مالك ، وسيرت صاحبة قلعة صلخد بعد فقد زوجها إلى الامير ديبس تطلبه لتتزوج فسار نحو حلة مري بن ربيعة ، ثم إنها تزوجت أمين الدولة صاحب بصرى ، وسار ديبس للامر الذي طلبته ، فوجد الامر بخلاف ذلك فنزل بحلة أخي مري ، وكان بدمشق عند تاج الملوك فوصل إليه رسول نائبه بالحلة يخبره بديبس ، وكانت الحلة نازلة بموضع اسمه قصم ، فسأله تاج الملوك فأعلمه ، فقال : تخرج إليه الساعة وتشغله عن المسير بحجة الضيافة ، فخرج إليه وشغله بالضيافة ، ووصل عسكري دمشق فقبضوه وكل من معه ، فسير زنكي وطلبه ، فسير إليه إلى حلب .

وقرأت بخط الوزير جمال الدين عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا به - إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار - قال : في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وجد ديبس بن صدقة ضالا بحلة حسان بن مكتوم بأعمال صرخد ، فأسر ابن طغتكين صاحب دمشق وباعه على زنكي بن أق سنقر صاحب حلب بخمسين ألف دينار ، وكان زنكي عدوه فما شك ديبس أنه ابتاعه لهلاكه فلما حصل ديبس في قبضة زنكي أكرمه (٣٠٨ - ظ) وخوله وأطلقه وروسل زنكي من دار الخلافة بتسليم ديبس فقبض على الرسول وهو سيد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري كاتب الانشاء .

وقيل بأن زنكي اشتراه بمائة ألف دينار ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

اخبرنا أبو اليمن الكندي - إجازة - عن الاستاذ محمد بن علي العظيبي ، ونقلته من خط العظيبي قال : وفي هذه السنة يعني سنة أربع وخمسمائة أظهر العصيان ديبس بن صدقة الاسدي ملك العرب على الخليفة المسترشد بالله ببغداد ، وعلى السلطان محمود ، فسار

إليه محمود وكسره ونهب الحلة ، وهرب دببى إلى الشام فأجاره شهاب الدين بن مالك بالدوسريه (٥١) وأكرمه وسيره إلى نجم الدين بن أرتق إلى ماربين ، فأكرمه وصارت بينهما زيجة . وأعاده إلى الحلة .

وقال : وفي جمادى الأولى - يعني - من سنة خمس عشرة كانت كسرة المسلمين ببلاد الكرج ، وذلك أن داود ملك الكرج كان قد ظهر على الملك طغرل من الدروب فاستنجد بنجم الدين بن أرتق وجموع التركمان وصحبته دببى بن صدقة بن مزيد فأنكفت الكرج في الدروب الضيقة وتبعهم خلق من المسلمين فأخذ الكرج عليهم الدروب ورضخوهم بالصخر فأنكسروا .

وقال العظيمي : وفي يوم الأربعاء سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني - من سنة ثمانى عشرة وخمس مائة عبر الأمير دببى بن صدقة بن مزيد من قلعة منبج ونزل بظاهر منبج وكان له عمل في حلب ومكاتبه فأنكشفت على يد فضائل (٣٠٩ - و) بن صاعد بن ببيع ، وقتل بعض القوم ، ونفى بعضا وكان بها التمرتا ش حسام الدين بن نجم الدين إيلغازي بن أرتق .

قال : وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب كان خلاص البغدوين - يعني ملك الفرنج من شيزر ، وكان استقر عليه ثمانون ألف دينار وقلعة عزاز ، وحلف على ذلك ، ورهن جماعة من الفرنج اثني عشر نفسا أحدهم ابن أجوسلين ، وعجل من المال عشرين ألف دينار فما هو إلا أن خرج حتى غدر ونكث ونفذ يعتذر إلى الأمير حسام الدين بن نجم الدين بأن البطريرك لم يوافق على تسليم عزاز ، وأن خطيئة اليمين تلزمه وترددت الرسل بينهم إلى يوم الأحد ثامن عشر شعبان ، وعادت بذقن الهدنة ، وخرج الملك إلى أرتاح وعزمه على حلب ، فخرج التمرتا ش من حلب بتاريخ الخامس والعشرين من رجب نحو ماربين ووعده بجمع العساكر ، ورحل بغدوين من أرتاح إلى نهر قويق وأفسد كلما عليه ، وضايق حلب

واجتمع على باب حلب ثلاثة ألوية : لواء الملك ابراهيم بن رضوان ، ولواء الامير دبيس بن صدقه ، ولواء الملك بغدوين ، وكان الجوسلين ودبيس قد برزا من تل باشر ، وقصدوا ناحية الوادي ، وأفسدوا كلما فيه ما قيمته مائة ألف دينار ، ثم نزلا على باب حلب ، وكان نزولهم على حلب على مضي ساعة وكسر من نهار يوم الاثنين سادس عشر من شعبان ، والطالع من العقرب عشر درج والمريخ في الطالع في درجة واحدة ، وقبل نزولهم بساعتين عند اتساع الفجر انفتح من السماء من نحو المشرق باب من نور (٣٠٩ - ظ) ودام حتى هال الناس ولما كان في اليوم الثاني في ذلك الوقت عاد انفتح ذلك الباب ، ولكن كان أضيق من الأول ، وخرج من شيء كاللسان ، ينعطف ويتطوق ، ونزل الفرنج غربي البلد ، وغربي قويق ومعهم علي بن سالم بن مالك ، وصاحب بالس أخو بدر الدولة فقطعوا الشجر ، وأخربوا المشاهد الظاهرة ، وكان عدد الخيم ثلاثمائة خيمة مائة للمسلمين ، ونهبش الفرنج القبور وأخرجوا الموتى باكفانهم ، وعمدوا إلى من كان طريا فشدوا الحبال في أرجلهم وسحبوهم مقابل المسلمين (٥٢) .

أخبرني القاضي عز الدين أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي قال : حدثني والدي قال : أخبرني الشيخ أبو سعد بن النعماني قال : كان المسترشد قد جمع أرباب دولته وسيرهم في الصلح بينه وبين دبيس ، واتفق ان ابن أبي العودي الشاعر دخل على دبيس في ذلك اليوم وكنت حاضرا المجلس فأنشده قصيدة أولها :

« جدك ياتاج الملوك قد علا » حتى بلغ إلى قوله :

دونك صفين فهذي قد أتت
أل زياد والحقوق تقتضى

قال : فتغيرت وجوه الجماعة أصحاب المسترشد ، وتغير وجه دبيس وأمر بصفعه فصفع وأخرج من بين يديه وحبس وأمر

بالجماعة فأنزلوا في الدور ، وأكرموا غاية الاكرام ، وحمل إليهم
كلما يحتاجون إليه ، فلما أتى الليل أخرجه من الحبس خلوة وقال
له : ويحك أنا قد اجتهدت حتى ينتظم الصلح بيني وبين
(٣١٠ - و) الخليفة وقد أرسل أرباب دولته لاتمام هذا الامر
فجئت أنت وقلت ما قلت لتتفقد الحال فأنشده :

هم زرعوا العداوة لا لجرم
فدونك واصطلمهم بالحصار
ولا ترهب قعاقعهم فليست
قعاقعهم سوى لبس السواد
إذا لي تشف في الدنيا غليلا
فتنخره إلى يوم المعاد

فقال : أنشدني بقية القصيدة فأنشده :

فهذه ياذا الفخار دول
ينزعها الله إلى حيث يشا
فانتهاز العزيمة قبل فوتها
وناد بالثأر فقد أن النداء
ولا تكن في النائبات هلعا
ولا جبانا ذرعا يخشى الوغى
إما يقال أدرك العز الذي
ما مثله أو خانه صرف الردى
فالداء لو يحسمه صاحبه
إذا بدا أغناء عن شرب الدوا
فهل ترى السلطان إلا رجلا
يدركه الموت ويربيه البلا
لحم وعظم ودم مركب
في صورة كبعض أبناء الورى

تنته العرقة (٥٣) أو تؤله
في قرصها البقة شاء أو أبى
لايستطيع مع حمى سلطانه
دفع الأذى عنه إذا حم القضا
فهو وإن عز حمى سلطانه
يخشى المنايا في الصباح والمسا

قال : فأمر له بمائة دينار وصرفه في تلك الليلة إلى بلدة النيل
وجرت بين (٣١٠ - ظ) دبيس والمرسل أرباب دولة المسترشد
مقاولات واحتجوا بمراجعة الخليفة في ذلك ومضوا ولم تقض لهم
حاجة .

وخرج المسترشد بعد ذلك لقتال دبيس في سنة ست عشرة ، ولم
ينتظم بينه وبين دبيس صلح ، وخرج دبيس بأصحابه إلى لقائه ،
فنزل على شط النيل تحت مطير أباز ، وأتاه الخليفة من جانب
البرية وأقام المصاف ، فكانت الكسرة على أصحاب دبيس ، وما نجا
منهم إلا القليل ، وقتل البعض وغرق الباقيون في الماء ، ونجا
بحدشاة نفسه ، ووصل إلى فوق مطير أباز إلى قرية يقال لها قرية
أم الأمين ، وكانت أم الأمين المذكورة فوق سطح من أسطح
القرية ، فقالت له حين رآته : دبير جئت ؟ فقال لها : ويالك دبير من
لم يجيء ، أين المخاض ؟ فقالت : هاهنا فخاض وعبر ووقف يشق
خفه حتى نزل منه الماء ، وقد تبعه مماليك المسترشد إلى ذلك
الموضع ، فسألوا العجوز فضيعتهم عنه إلى موضع آخر فلم يقدرُوا
عليه ، وانحدر إلى أن لحق بالعرب والتف بهم ، وظهر بالبصرة بعد
سنة فدخلها وهرب أمير البصرة ، ودخل دار الامارة وحكم وقال :
أتدرون من نصحني والله ما نصحني غير ابن العودي الشاعر فإني
لو قبلت منه ذلك اليوم وقتلت الذين سيرهم المسترشد للصلح لبقي
المسترشد مدة حتى يحصل رجالا مثل أولئك يعتضد بهم ، ولما رجع
دبيس إلى العراق ملك العجوز أم الأمين القرية وهي تعرف
(٣١١ - و) الآن بها .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الشریف الهاشمي قال :
أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال :
دبيس بن صدقة بن منصور بن دبیس بن علي بن مزيد الأسدي أبو
الأغر من ملوك العرب ، وكان فاضلاً مهيباً كريماً الأخلاق ، ولعل ما
أنجبت عرب البابية بعده بمثله ، وقد ترامت به الأسفار إلى أكناف
الأمصار ، وتقلبته به الأحوال إلى ارتكاب الأهوال ، ورد بلاد
خراسان ، وجال في أطرافها مدة في ظل السلطان سنجر بن
ملكشاه ، وكانت خاتمة أمره أن فتنه به في قصر السلطان ، وختم به
شرف بيته .

قلت : هذا قول أبي سعد السمعاني ، ولعله رحمه الله لم يبلغه
خبر دبیس واتفاقه مع الفرنج على حصار حلب ، وبذله أموال
المسلمين وأنفسهم لأعداء الدين على ما ذكرناه وبيناه ، ولو بلغه هذا
العمل المستهجن القبيح الذي لا يصدر عن من خلص إيمانه ، وإن
جرى بلفظ الشهادة لسانه ، ولا يقع إلا من سخييف الرأي سيء
التدبير ، لما قال : ولعل ما أنجبت عرب البابية بعده بمثله ، وقال :
وختم به شرف بيته ، هذا مع علم دبیس أن البغدوين ملك الفرنج
كان مأسوراً في حبس بك بن أرتق ، وأن تمرتاش أطلقه من الأسر
وهادنه على أن لا يخرج عليه فغدر بالهدنة مع تمرتاش والمسلمين ،
ولم يف له بما استقر معه في اليمين ، ولعل البغدوين لو تسلط على
حلب لما وفي لدبیس بما كان قرره معه من ملك المدينة ، ولعمري لقد
محا دبیس شرف أبيه صدقه ، ومكارمه المحققة ومآثر آبائه (٥٤)
(٣١١ - ظ) وأجداده المذكورون ومناقبهم المشهورة المسطورة
بهذه الفعلة الدنيئة التي فعلها والقصة الشنعاء التي سطرها
المؤرخ ، ونقلها ، ومن قبيح فعله خروجه على الامام المسترشد
وجمع العرب لمحاربتة ومطاولته مع قيامه بأعباء الخلافة
ومساجلته .

ومن قبيح أفعاله وعدم وفائه ما أخبرنا به شيخنا افتخار الدين
أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا الامام أبو

سعد عبد الكريم بن محمد المروزي قال : كتبت من « كتاب سر السرور » (٥٥) لأبي العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنه قال : لما قام المسترشد بأعباء الخلافة واستتب أمره خالفه أبو الحسن علي بن أحمد الملقب بالذخيرة ، أخو المسترشد بالله وانحدر إلى واسط ثم اتصل بدبيس بن صدقة ، ولم تطل الايام حتى خاس بعهدده وأخفر ذمته على ما قيل ، ومكن أخاه من ريقته فعند ذلك كتب إليه :

أأشمت أعدائي وأذهبت قوتي
وهضت (٥٦) جناحا أنبتته يد الفخر
وما أنت عندي بالملوم وإنما
لي الذنب هذا سوء حظي من الدهر

فأين فعله هذا من فعل الأمير أبي العز مالک بن سالم بن مالک العقيلي صاحب قلعة جعبر معه وقد وفد عليه دبيس هذا منهزما من المسترشد إلى قلعة جعبر ، فأجاره منه ، فكاتبه المسترشد في معناه ليسلمه إليه فممنعه منه ولم يخفر ذمته .

وسمعت الأمير شرف الدولة بدران بن حسنين بن مالک (٣١٢ - و) يقول : سمعت أبي يقول بنقل إلى دبيس وهو عند أبي بقلعة جعبر أن أبي يريد أن يسلمه إلى المسترشد وأنه قد كاتبه في معناه لتسليمه إليه ، قال فجالسا يوما ، فبكى دبيس ، فقال له أبي : أيها الأخ ما يبكيك ؟ فقال : بلغني كذا وكذا ، قال : فأمر غلامه فأحضر له خريطة فيها كتب المسترشد إليه وأحضر إليه نسخ الكتب التي كتبها في جوابه ، وهو يقول : أنا والله لأسلمه أبدا ، فطاب قلب دبيس عند ذلك وأطمأن .

وقد ذكر الفقيه معدان بن كثير الباسي فعل مالک بن سالم في قصيدة مدحه بها قرأتها بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله ابن أبي جراحة . أخبرنا بها شيخنا أبو اليمان زيد بن الحسن الكندي إجازة عن أبي الحسن المذكور قال : أنشدني الفقيه الأيب

أبو المجد معدان بن كثير في الأمير أبي العز مالک بن سالم بن مالک
يذكر وفود الأمير ملك العرب دبیس بن صدقة بن مزید علیه أولها :

سلخت بالغیل آجال
للدیوث الغیل تغتال

قال فیها :

ودبیس حین مال به
دهره والدهر میال
واشمأز الناس قاطبة
منه أجواد وبخال
غیر قیل أروع ندس (٥٦)
لم یرعه القیل والقال
بل تفداه وقال له :
ادن ولینعم لك البال
ثم لما أن تکذفه
واسع الارعاء محلال
أهل بالعز فاء له
منه اکرام واجلال
وحباه بالصدفا أخ
حافظ للود وصال
فلأدنی ما تکذفه
رغبة فی وده المال
وإذا نفس الفتی بذلت
سهلت خیل وأبال
فترى عوف وأخوتها
بالذی أولیت جهال
ولقد نبئت أنهم
شکروا والقوم قفال

وتألى (٥٨) من بني أسد
أسد غلب وأشبال
إنه ما أن يزال لهم
أبدا بالشكر إهلال
ولنعم الفاعلون هم
ما علمناهم لما قالوا

وأخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك قال :
حكى لي والدي قال : لما قدم دبيس على والدي إلى قلعة جعبر
منهزما من المسترشد أجازته وأقام عنده فكاتبه المسترشد في تسييره
إليه فمنعه منه . قال : وقدم مع دبيس أربعمئة ألف دينار عينا
ومثلها جواهر ، ومثلها عروض وأنفق في حاشية والدي حتى بيع
الدينار بثلاثين قرطيسا (٥٩) . قال : فقال له والدي : يا أيها الملك
أرخصت علينا الذهب .

قلت : وقد كان دبيس مع ما ذكر من أفعاله المستقبحة على غاية
من الجود ، وله خلال محمودة مستملحة فمن ذلك ما أخبرني
(٣١٣ - و) به بدران بن حسين بن مالك قال : لما قبض على
دبيس بذواحي دمشق وقيد وسير إلى أتابك زنكي إلى حلب ، وكان
اشتراه بمئة ألف دينار جاءه بعض الشعراء وامتدحه في طريقه وهو
مقبوض عليه مكبل ، ولم يكن معه شيء فكتب له في رقعة هذين
البيتين ودفعهما إليه وهما :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
فكيف يفعل من بالفرض يحتال
خذ هاك خطي إلى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب آمال

قال : فلما قدم حلب على أتابك زنكي أكرمه واحترمه وأنزله دار
لاجين بحلب وأعطاه مئة ألف دينار وخلع عليه خلعا سنينة فخرج

دبيس ذات يوم إلى ميدان الحصا يسير فعرض له ذلك الشاعر وقال له : يا أمير لي عليك دين ، فقال : والله ما أعرف لأحد علي ديناً فقال : بلى وشاهده منك وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه قال : أي والله دين وأي دين ، وأمره أن يأتي إليه إذا نزل فجاءه فأعطاه ألف دينار والخلعة التي خلعها عليه أتابك زنكي وكانت جبة أطلس وعمامة شرب .

أخبرني أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : أسر دبيس بناحية الشام فافتداه أتابك الشهيد بمال جزيل ، ولما حصل دبيس عند السلطان مسعود كتب السلطان يستدعي أتابك الشهيد ليفتك به ، وأطلع دبيس على شيء من ذلك فكتب كتاباً إلى أتابك يحذره فيه من المجيء إليه فامتنع من ذلك فعلم به السلطان مسعود فكان ذلك سبب قتل دبيس . (٣١٣ - ظ) .

قال لي أبو علي النيلي : وأخبرني بعض أحفاد أتابك الشهيد قال : كان جدي يقول : فديناه بالمال وفداناً بالروح .

أخبرنا الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعيد السمعي قال : ذكر صديقنا أبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري قاضي غزنة في « كتاب السرور » قال : حدثني من صحب ملك العرب أبا الأغر دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي أن هجيراً كان إنشاد هذين البيتين :

إن الليالي للأنام مناهل
تطوى وتبسط بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار

أنبأنا أبو محمد عبد الرحمن وأبو العباس أحمد ابنا عبد الله بن علوان الأسديان قالا : أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن

محمد الفنجديهي : في كتابه قال : سمعت بعض الفضلاء ببغداد يقول : لما سمع الأمير دبيس أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته وأورد فيها بعض صفاته يعني قوله : « خيل لي أن القرني أويس أو الأمير دبيس » (٦٠) ، نفذ إليه من الخلع السننية والجوائز الهنية بما عجز عنه الوصف وكل عنه الطرف واقتضاه علو همته وسمو قدرته .

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي الحلبي قال : أخبرنا عبد الكريم بن أبي بكر المروزي قال : قرأت ببليخ في « كتاب وشاح دمية القصر » كتب الملك بدران بن صدقة إلى أخوانه منهم الملك دبيس : (٣١٤ - و) .

ألا قل لمنصور وقل لمسيب
وقل لدبيس انني لغريب
هنيئاً لكم ماء الفرات وطيبه
إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فأجابه دبيس :

ألا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يخيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأمانى بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللارض من كأس الكرام نصيب

ومما وقع إلي من شعر دبيس بن صدقة ما قرأته بخط عمر بن الربيب في مجموع :

ألا إن أخواني الذين عهدتهم
أفاعي رمال لا تقصر في لسعي

ظننت بهم خيرا فلما بلوتهم
حللت بواد منهم غير ذي ذرع

سمعت بعض الأدباء من أهل الموصل يحكي أن أبا الفوارس
الحيص بيص خرج من بغداد سرا إلى الحلة ، وامتدح دبيس بن
صدقة وعاد وقد أجازته بألف دينار فبلغ المسترشد ذلك ، وعلم
الحيص بيص فخاف على نفسه فابتدى وعمل هذين البيتين :

وما دبيس إلا كجيفة ميت
والضرورات الجأتني إليه
ومن اضطر غير باغ ولا عاد
فلا اثم في الكتاب عليه

فبلغت المسترشد فسير له خمسين ديناراً وزاد في معلومه وقبل
عذره .

أنبأنا أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان عن أبي سعيد
محمد بن عبد الرحمن (٣١٤ - ظ) بن محمد البندهي قال : قتل
الأمير دبيس بن صدقه بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع
وعشرين وخمسمائة قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه
لأمر أنكرها وأسباب امتعض لها نسبت إليه ، وكان دبيس قد عصى
على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن
المستظهر بالله ، وسعى في إراقة دمه ، وجمع العسكر وحشد وقصد
بغداد في عسكر عظيم ، وعاث في أطرافها وأفسد في أكنافها فخرج
الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه
الأجناد وظهر إليه وحمل عليه فهزم دبيسا وعسكره وتم إلى الحلة
المزيدية وذلك في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وانهزم دبيس
من العراق في خواص أصحابه وغلمانته خوفا من الخليفة وهرب نحو
الشام .

قرأت في تاريخ أبي عبد الله محمد بن علي العظيبي بخطه في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وأنبأنا به عنه المؤيد بن محمد النيسابوري وغيره قال : تواقع على مراغة السلطان مسعود والمسترشد بالله ، فانكسر المسترشد وأسر فوثب عليه قوم بالسكاكين فقتلوه واضطرب العسكر فأوجب التدبير أن قتل دبب بن صدقة بحضرة السلطان مسعود (٦١) .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال : أخبرنا أبو سعد السمعاني قال : قرأت بخط الامام أبي نصر محمد بن محمد السره مرد الشجاعي على جلد كتاب السنن (٣١٥ - و) لأبي داود : قتل دبب بالمراغة (٦٢) يوم الاربعاء الرابع عشر من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

نقلت من تاريخ جمعه الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وقع إلي بماربين ، قال في حوادث سنة تسع وعشرين وخمسمائة : وفيها قتل دبب بن صدقة في ذي الحجة حدثني فراش كان يقال له حسن التمري ، قال : كان الأمير المذكور قد استشعر الأمر الرديء من قبل السلطان وكان في تلك الليلة تقدم إلى خواصه أن ارحلوا فرحلوا وتركوا الخيام بآلاتها ، وسار (٦٣) مقدر ثلاث فراسخ ، فرده القدر الذي لا بد منه ، وقال لصحبه : قد ضجرت من الشتات في أقطار الجهات وما قضاه الله فقد أمضاه ، وعاد ولم يشعر به غير من كان معه ، فلما أصبح ركب مع السلطان على عادته ، ونزل السلطان في النوبتية والامراء معه على العادة المألوفة وحضر الطعام فأكلوا وأخذ الناس في الانصراف ، وكان السلطان قد دخل إلى خركاه في جانب النوبتية فأراد الأمير دبب الانصراف ، فتقدم إليه رجل معمم بزي الكتاب وقال له : السلطان يقول لك قد ورد علينا كتب ونشتهي تسمعها ، فجلس واستدعى مني خللا ، وجعل يتخلل والكاتب بين يديه فرأيت تركيا قد خرج من الخركاه وبيده صمصامة مجردة فمشى حتى صار على رأس الأمير فلم يلتفت

إليه ، وعاد دخل الخرakah وليس في الذوبتية جالس غيره والكاتب بين يديه (٣١٥ - ظ) ثم عاد الغلام التركي خرج حتى حاذى الأمير وضربه على رقبتة فرأيت رأسه معلقا بجلدة رقبتة ، فهربت من ساعتى وكان بباب خوي (٦٤) ، وحمل بعد ذلك ودفن بالمشهد بماربين . قلت : شاهدت المشهد المدفون به دبيس ، وهو من غربي مدينة ماربين وقبليها داخل البلد بنته بنت إيلغازي بن أرتق زوج دبيس ونقلته من خوي فدفنته به .

رضوان بن تّدش

رضوان بن تّدش بن الب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن دقاق أبو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، نشأ في دمشق في حجر أبيه ، وكانت أمه أم ولد ، فزوجه أبوه من جناح الدولة حسين ، وجعله أبوه أتابكا له ومربيا ، ولما توجه أبوه تّدش لمحاربة بركيارق ووصل إلى همذان كتب إلى ولده رضوان في دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه إليه من دمشق ، وأمره أن يحضر معه من تخلف بالاشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه ، وخرج من دمشق بالعسكر متوجها إلى أبيه ، ووصل إلى عانة وقيل إلى الانبار ، فبلغه مقتل أبيه تّدش ، فحط خيمته وسار مجدا عائدا ، فوصل إلى حلب وتسلمها من وزير أبيه أبي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه .

ووصل أخوه دقاق إلى حلب ، ومضى سرا من رضوان إلى دمشق فملكها وقدم يغي سغان ، ويوسف بن أبق بعسكرهما من أنطاكية إلى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ - و) معه إلى الرها ليستلمها من نواب والده ، فأرادا القبض على حسين لينفردا بتدبير رضوان ، فبلغ حسين ذلك ، فهرب إلى حلب ، وتبعه رضوان إليها واستودش رضوان منهما ، فرجعا إلى أنطاكية .

وسار رضوان إلى دمشق ليأخذها من أخيه دقاق ، ونزل جناح الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكرمان بن أرتق ، فلما وصل رضوان إلى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين إيلغازي بن أرتق ولم يستتب لرضوان أمر دمشق ، فرجع إلى حلب ، وتوجه سكرمان إلى البيت المقدس ، وتسلمه من نواب أخيه إيلغازي .

ووصل يوسف بن أبوق إلى رضوان حلب وسكنها فخاف منه رضوان وحسين فتقدما إلى المجن الفوقي (٦٦) فهجم عليه فقتله .

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيخ الدير من نواب يغي سغان ، وأغاروا على بلد أنطاكية ، ثم توجهوا إلى دمشق وسار يغي سغان إليها منجدا دقاق ، فضعفت نفوس رضوان عن دمشق ، فسار إلى البيت المقدس فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ، وأشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية إلى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين إلى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان ابن إيلغازي صاحب سميساط ، فوصل إلى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سغان إلى أنطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب إلى حمص ، ومعه زوجته أم رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ - ظ) إلى أنطاكية ، ووصل يغي سغان إلى الملك رضوان إلى حلب إلى خدمة رضوان ، وتزوج رضوان بابنته خاتون جيچك ، ونزل الفرنج على أنطاكية ، وشنوا الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان إلى حلب مستنجدا على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقبهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون إلى حارم ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها ، وعاد سكمان بن أرتق مفارقا رضوان ، وصار مع دقاق .

واستولى الفرنج على أنطاكية ، وضعف أمر رضوان ، واستمال الباطنية وظهر مذهبهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في أمرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من أملاك بيت المال عدة مواضع

للحلبيين ، وقصد بذلك استمالتهم ، وأن يتعلقوا بحلب بسبب
أملآكهم فيها حتى أنه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع
حلب لجماعة من أهلها وكتب بها كتاب واحد ، يذكر حدود كل خربة
ومشتريها وضمنها ، وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت
لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال ، ولاتسمح نفسه
باخراجه ، حتى أن أمراءه وكتابه كاذوا ينبزونه بأبي حبه ، وذلك
هو الذي أضعف أمره ، وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية ، وجدد في
حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف
ومحاسنة (٩٠ - و) للحلبين حتى بلغني أنه مريوما راكبا
ليخرج من باب العراق ، فلما وصل إلى المرمى ، وهو داخل السور
بالقرب من باب العراق ، سمع امرأة تنادي أخرى يا زليخا تعالي
أبصري الملك ، فأمسك فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير أحدا ،
فقال : أين هي زليخا ، قولوا لها تأتي تبصرنا أو نمشي ، وهذا من
أبلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : أخبرني أبي قال : وقع بين والدي أبي غانم
وبين القاضي أبي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين
قرية والدي أقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وال الأمر إلى
مواحدة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : أنا أخرج بذنبي وأقف
معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما ، وقال لأحدهما :
إلى أين تدعي ؟ فقال : إلى ها هنا ، وقال للآخر : إلى أين تدعي ؟
فقال : إلى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : أريد أن تهب لي نصف
ما تدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا إلى ذلك وأصلح بينهما على
أن نزل كل واحد عن نصف المدعى به ، وجعل بينهما تخما متفقا
عليه ، ورجع إلى المدينة ، وهذا أيضا من المآثر التي ينبغي أن تكتب
وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرأت بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني ،
قال الشيخ أبو الحسن بن الموصول ، وأملانيه بدار الشريف أمين

الدين أبي طالب أحمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (٩٠ - ظ) أسلافه ، قال : وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة وصل إلى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها أحمال أصناف التجارات ، وكان شديدا على الاسماعيلية مسعدا لمن يقصدهم ، مبالغا في بابهم ، أنفق في المجاهدين لهم بسببهم أموالا جلية ، فقام في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد أصبح من خراسان باطنيا يقال له أحمد بن نصر الرازي ، وكان أخوه قتله رجال هذا الخجندي ، فدخل إلى حلب ، واستدل على أبي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد إلى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه أبي حرب ، وأطمعه في ماله ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه إذ كان معروفا بعداوة الملاحدة ، فطمع رضوان وانتهز الفرصة فيه ، وطار فرحا ، فبعث بغلمان له يتوكلون به .

فبرز إلى أبي حرب عيس الفقيه أحمد بن نصر الرازي وهجم عليه ، فقال لغلمانه وأصحابه : أليس هذا رفيقنا ؟ فقالوا : هو هو ، فوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من أصحاب أبي الفتح الباطني الحلبي على أبي حرب فقتلوا عن آخرهم ، ثم قال أبو حرب : الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراءنا وجئنا إلى (٩١ - و) الأمانة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا إلى رضوان ، فأخبروه بما قال ، فأبلس ، وصار السنة والشيعية إلى هذا الرجل ، وأظهروا إنكار ماتم عليه ، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوههم ، وأنهى ذلك إلى الملك رضوان فلم يتجاسر على إنكاره ، وأقام الرجل بحلب ، وكاتب ظهير الدين (٦٧) وغيره من ملوك الشام فتوافقت رسلهم عند رضوان بكتبهم يذكرهم عليه ما جاء في بابه ، فأنكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل ، فخيروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد

الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ، ونقص في
أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

أنبأنا زيد بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في
حوادث سنة إحدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخر الملوك
رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم ، وحفظ
جانبيهم ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر أمر
أبا الغنائم بن أخي أبي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن
معه ، فأنزل القوم بعد أن تخطف جانبيهم ، وقتل منهم
أفراداً (٦٨) .

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل أخوين له كانا من أبيه ، فلما مات
رضوان وملك ابنه ألب أرسلان قتل أخوين له كانا من أحسن الناس
صورة فأنظر (٩١ - ظ) إلى هذه المؤاخنة العجيبة .

أنبأنا المؤيد بن محمد علي الطوسي عن أبي عبد الله محمد بن علي
العظيمي قال : وفيها - يعني سنة تسعين وأربعمائة - عصى
المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلييون ثم تخاذلوا
عنه ، واختفى ، فقبض عليه الملك رضوان ، وعلى ذويه وبنيه ،
واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذبهم بأنواع العذاب ، ثم قتله بعد
ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسول مصر إلى الملك رضوان ، يعني من
المستعلي ، بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شهراً ، ثم عاد
عن ذلك (٦٩) .

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضوان
على موضع يقال له كلا ، وكان المسلمون في خلق وكان الافرنج في
مائة فارس ، فقتلوا خلقاً من الناس ، وأسروا خلقاً ، وكانت
الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان (٧٠) .

وقال : سنة ثمان وتسعين وأربعمائة . فيها كسر الفرنج للملك رضوان على عين تسيلو من أرض أرتاح . وكان سبب ذلك حصن أرتاح ، خرج لنجدة الحصن ، ومعه من الرجالة الخلق العظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، وأسلموا الرجالة ، فقتل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله ، وانهزم أكثر من به (٧١) .

قلت : وبلغني أنه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ - و) من بأرتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج بلد حلب ، فأجفل أهله ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ، واضطربت أحوال بلد حلب من جبل ليلون إلى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون وهرب أهل الجزر وليلون إلى حلب ، فأدركتهم خيل الفرنج فسبوا أكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه الذكبة على أعمال حلب أعظم من الذكبة الأولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل أعذى من عمل ليلون وأخذنه ، وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه ، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة .

وضاق الأمر بأهل حلب ، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل وأحمديل الكردي ، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله إلى حلب ، ووصلت العساكر إلى حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم ، وأخذ إلى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها ، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ، وضرب (٧٢) أنسـان مـن السور (٩٢ - ظ) فأمر به فـضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه

إلى آخر ، فأمر به فألقي من السور إلى أسفل ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة .

وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان . فأطلق العوام أسننتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له ، ورحل العسكر إلى معرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في آخر صفر من سنة خمس وخمسمائة وأقاموا عليها ، وقدم عليهم أتابك طغتكين ، فراسل رضوان بعضهم حتى أفسد ما بينهم ، وظهر لأتابك طغتكين منهم الوحشية ، فصار في جملة ممدود (٧٣) ، وثبت له ممدود ، ووفى له ، وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ، وسار أحمديل وبرسق بن برسق ، وعسكر سكمان إلى الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة إلى العاصي ، فنزلا على الجلال ، ونزل الفرنج أفامية : بغدوين ، وطنكريد ، وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر سلطان بن منذر من شيزر (٩٣ - و) بأهله وعسكره ، واجتمعوا بمودود وأتابك ، وساروا إلى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعواهم الماء ، والاتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد فأصبحوا هاربين سائرين يحمي بعضهم بعضا .

ونزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين ألف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين أتابك إليه ، فاستدعاه إلى حلب ، فوصل إليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال ، واستقر الأمر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود إلى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتأخرت إلى أن اتفق للمسلمين وقعة

استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقبها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس ، وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأذكر أتابك ذلك وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

أنبأنا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق التركي كان بدمشق (٩٣ - ظ) عند توجه أبيه إلى ناحية الري ، فكتب إليه يستدعيه ، فخرج إليه ، فلما كان بالأنبار بلغه قتله ، فرجع إلى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم ، وكان المستولي على أمرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت أخيه دقاق ، فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب ، وأقام بها ، وجرت منه أمور غير محمودة في قتال الفرنج ، وظهر منه الميل إلى الباطنية ، واستعان بهم بحلب ، ثم استدعى طغتكين أتابك إلى حلب ولاطفه ، وأراد استصلاحه ، وقرر بينهما أمورا وأقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فأبطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل أخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (٧٤) .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان أخويه ملك شاه وإبراهيم صبيبين أحسن الناس صورا (٧٥) .

كذا وجدته ، وإبراهيم بقي زمانا ، ورأيت ولده بحلب ، وأظنه مبارك والله أعلم .

وقرأت في كتاب تاريخ وقع (٩٤ - و) إلي بماردين جمعه
الرئيس أبو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته
بخطه ، وقال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك
رضوان بن تدش بحلب ، وتولى ولده الآخرس .

وقرأت في بعض ما علقتة من الفوائد ، مرض رضوان بحلب
مرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة
سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفاته ،
وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل إنه خلف في خزانته من العين ،
والآلات ، والعروض ، والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

قرأت في كتاب عدوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني
قال : وملكها ، يعني حلب بعده - يعني بعد قتل أبيه تدش - في
سنة ثمان وثمانين وأربعمائة أبو المظفر رضوان بن تدش تسع
عشرة سنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء آخر يوم من
جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ،
وخلف عينا وعروضا تقارب ألف ألف دينار .

زنكي بن آق سنقر

أبو المظفر التركي ، وقيل آق سنقر بن الترغال من قبيلة سباب
يو ، وقيل أن آق سنقر كان مملوكا للسلطان ملك شاه وقد ذكرنا ذلك
في ترجمته ، ويعرف زنكي بأتابك بن قسيم الدولة ، لأنه كان عنده
ولدان للسلطان محمود بالموصل يربيهما وكان مولده بحلب في أيام
ولاية أبيه في سنة ثمانين وأربعمائة ، وربى بها ، وكان في أول أمره
مضافا إلى آق سنقر البرسقي ، والبرسقي شحنة بغداد ، وولاه
البصرة ، فلما عزل البرسقي عن شحنة بغداد فارق البصرة وقصد
السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، فأكرمه وأقطع البصرة
وأعاده إليها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وكان ختلف أبه بحلب
وأساء السيرة مع أهلها ، فحصره ، وبالمدينة بدر الدولة سليمان
ابن عبد الجبار بن أرتق ، فأجمع رأي ختلف أبه وسليمان على أن
سارا إلى أتابك زنكي ويحكماه فيما يفعل ، فلم يوقع لواحد منهما
بحلب ، وتوجه إليها فقدمها ، وكان له أتراب بحلب من الحلبيين ،
وقد تربى بينهم ، فكانوا يميلون إليه لذلك فسلموا إلى نائبه حلب في
شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، وتوجه إليها
فتسلمها في سنة إثنتي وعشرين وخمسمائة ، في جمادى الآخرة
وتوجه بعد ذلك إلى السلطان محمود ، وعاد في سنة ثلاث وعشرين
ومعه توقيع مجدد لولاية الجزيرتين والشام وحلب والشط ، وملك
حمص وحماه وبعلبك والرقّة ودارا وحران ورأس عين ، واشتغل
بمحاربة الفرنج ، ففتح من أيديهم معرة النعمان وكفر طاب وبارين
والأثارب وزرنا وتل اعذا وبزاعا وسروج والرهما ، وكان له أثر
عظيم في نصرته الاسلام ، وكف عادية الفرنج ومهد لمن بعده فتح
البلاد بعد أن كان الفرنج قد ضايقوا مدينة حلب واستولوا على
حصونها ، وأخذوا المناصفة من المسلمين إلى بابها ، فأغاثهم الله
بزنكي وبولده من بعده ، وكان زنكي ملكا عظيما وشجاعا جبارا
كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع وينقاد

إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف
الله خاف من ذلك ، وتصاغر في نفسه ، فأظهر الله تعالى سره
المحمود في ولده محمود .

أنبأنا أبو اليمن الكندي عن الاستاذ أبي عبد الله محمد بن علي
العظيمي - ونقلته من خط العظيمي - قال في حوادث سنة إحدى
وعشرين وخمسمائة قال ، بعد ذكر حصار الحلبيين وبدر الدولة بن
أرتق وإبراهيم بن الملك رضوان ختلغ أبه غلام السلطان محمود :
وطال الأمر على ختلغ أبه وحفروا خندقا حول القلعة ، فكلما خرج
منها رجل أو نخل إليها أخذ ، إلى نصف ذي الحجة وصل الأمير
سنقر دراز ، والأمير حنشل قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي
إلى باب حلب واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وختلغ أبه إلى
باب الموصل إلى عماد الدين قسيم الدولة بن قسيم الدولة زنكي بن
أق سنقر ، والرئيس ابن ببيع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم
يوقع لأحد منهما وطمع بملك البلد وسير سرية إلى حلب مع الأمير
الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة
واليا من قبله ، ورتب الأمور ، وجرت على يده على السداد ، وهو
الذي تولى إنزاله وإليه إطمأن .

وقال العظيمي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة : في جمادى
الآخرة منها وصل الأمير عماد الدين قسيم الدولة أبو سعيد زنكي بن
أق سنقر قسيم الدولة إلى حلب وملكها ، وصعد القلعة ، وبات بها
وعاد إلى ذقرة بني أسد ، وقبض على ختلغ أبه ، وحمله إلى حلب
وسلمه إلى عدوه ابن ببيع ، فكحلوه بداره في النصف من رجب .

وقال العظيمي : وفي جمادى الآخرة - يعني - من سنة ثلاث
وعشرين وخمسمائة عاد الأمير عماد الدين قسيم الدولة زنكي من
عند السلطان إلى الموصل ومعه طغراء بتجديد الجزيرتين والشام
وحلب والشاط وما اتصل بذلك بعدما خرج عن يده بالدركاه مائة
وعشرون ألف دينار .

قال : وفي مستهل رجب -- يعني -- من سنة أربع وعشرين ، وصل عماد الدين زنكي بن أقي سنقر إلى أكناف الفرات وفتح قلعة السن ، وسير سرية تقدمت مع الثقل إلى باب حلب ، ونهضت الخيل أغارت على بلد عزاز ، وعاثوا في بلد جوسلين مقابلة له على قديم قببحة في غيبة الأمير قسيم الدولة ، ثم عبر الأمير قسيم الدولة بتاريخ الأحد ثامن عشرين رجب ، فخيم بظاهر حلب ، وتكررت الرسل في الصلح ، فاصطلحوا مدة سنة ، وكان الأمير قد رعى زرع الرها في طريقه ، وظفر بالتركمان أيضا وكسرههم .

قال : وفي هذه المدة تزوج أتابك قسيم الدولة بخاتون بنت الملك رضوان ، ودخل بها ليلة الاثنين في عشرين من شعبان .

قال : وفي يوم الاثنين عاشر شوال تسلم أتابك عماد الدين حماه ، وقبض على خير خان صاحب حمص ، وأنهب عسكره وخف إلى حمص ، فنزل ربضها ، وطلب من أولاد خير خان التسليم ، فامتنعوا وشبت الحرب بينهم وشنع على الأمير أطيس بن ترك فقتلوه ، ورمي برأسه ، ونقبوا القلعة فبطل النقب ونصبت المجانيق فبطلت ، وطال الشرح ، فهجم الشتاء ، فعاد العسكر إلى حلب ثاني ذي الحجة .

وقال فيها -- يعني -- سنة خمس وعشرين وخمس مائة في المحرم ، وسار أتابك عماد الدين مشرقا يوم الخميس عشية ، وكان السلطان محمود شتى ببغداد ، فلما كان في ثالث عشر ربيع الآخر شرق نحو أصبهان وبلغه أن أخاه باين بالعداوة ، فرد أمر العراق إلى عماد الدين قسيم الدولة زنكي مضافا إلى ما كان في يده من الجزيرة والشام ، كذا كله وديس مقيم بفم البرية يتواعد ببغداد بالخراب ، وبلغ أتابك عماد الدين وفاة السلطان محمود بن تبر ، وهو على القريتين ، فسار نحو الموصل ليلة الخميس سادس عشر شوال ومعه ديبس ، وكان لهذا السلطان عند الأمير ولدان أحدهما الذي كانت أمه عند سنقر البرسقي وماتت اسمه ألب أرسلان أبو

طالب ، والآخر الذي كان عند دبیس فبعث عماد الدين يسـوم المسترشد أن يخطب لأبي طالب ولد السلطان ، فاعتذر المسترشد إليه بأنه صبي ، وأن المنقول رسم لولده داوود وهو بأصبهان ، وقد وصلت رسل البلاد كلها تقول : اخطب لداوود فنحن له طائعون وأنا منتظر جواب كتاب سنجر عم القوم ، وكان أتابك عماد الدين قد أخذ خبر عوبة ابن الأنباري رسول الخليفة من دمشق ، كان المسترشد نفيه في معنى دبیس إلى تاج الملوك فوجده قد صار إلى عماد الدين ، فعاد وكانت في صحبته قافلة عظيمة فيها أموال ، فبعث عماد الدين إليه سرية للقبض عليه ، فقبضوا عليه ونهبوا القافلة في كباد الخليفة وفك القيود عن دبیس وخلع عليه ، وحمل له من المال والجوهر والخيل والعدد ما لا حد عليه ، وخرج من الدار التي كان يشرب فيها وسلمها إليه بآلاتها وكل ما فيها .

قلت : وبعد ذلك وصل داوود بن محمود بن محمد بن ملكشاه إلى زنكي فأخذه وسار به إلى بغداد وأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وزنكي في الجانب الغربي والخليفة إذ ذاك الراشد بعـد قتل المسترشد ، فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم زنكي غيبته ، وسار إلى الموصل وسار داوود إلى مراغة ، وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ، فعاد فهرب الراشد ولحق أتابك زنكي بالموصل ، ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمدا المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السلطان وبقية الخطبة بالشام والموصل على حالها إلى أن اتفق زنكي والسلطان مسعود واصطالحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولـمسعود ، وفارق الراشد إذ ذاك زنكي وسار عن الموصل إلى خراسان ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة .

قرأت بخط القاضي علاء الدين أبي محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب في تاريخ مختصر عمله أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب الفرزي البغدادي المعروف بابن الدهان ، وذكر : أنه نقله من خطه ،

قال في حوادث سنة إحدى وعشرين : واتفق الأمر على أن يسير بدر الدولة وخطليا إلى باب الموصل إلى عماد الدين زنكي ، فلما ولي عاد إلى منصبه وأقام بحلب الأمير قراقش والرئيس فضائل بن بديع ، فأصلح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لأحد منهما ، وسير سرية إلى حلب صحبة الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب وطلع إلى القلعة ، وأقام فيها واليا من جانبه .

وقال : وفي هذه السنة - يعني - سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة دخل عماد الدين زنكي بن أوق سندر إلى حلب في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة والطالع السنبلة أربع عشرة درجة ، وطالعه الأصلي الميزان ، كذا حكى لي البرهان ، وقبض على خطليا وسلمه إلى ابن بديع فكحله في منتصف رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، قال : وانحاز قاضي القضاة الزينبي إلى الموصل في ولاية الراشد والآن عاد وسمع البيعة في خلع الراشد وانضاف إلى الراشد لما أوصد إلى الموصل أبو الفتوح الواعظ الاسفرائيني وجلال الدين بن صدقة الذي كان وزيره ، وقوام الدين ابن صدقة وأكابر بيت صدقه ، وحصل الجماعة عند زنكي بالموصل ، ولما اتفقت الكلمة على الاقتضي لأمر الله وعلى السلطان مسعود استشعر الراشد من زنكي ، وطلب منه أن يعبر إلى الجانب الغربي ليمضي إلى همذان ، فمشى بين يديه إلى أن حصل في الشبارة وعبر وتخلف عند زنكي جلال الدولة ابن صدقة وجماعة من بيته ، وسمعت قوام الدين ابن صدقة يحكي أن الراشد لما حصل على شاطئ دجلة بالموصل يريد العبور وزنكي بين يديه ، قال لأبي الرضا بن صدقة : أريد أقتل زنكي ، فقال أبو الرضا لابن عمه قوام الدين قل لزنكي يسرع خطوه بحيث يبعد عن الراشد ففعل ، وعرف زنكي ذلك لأبي الرضا ، فاستوزره ، ومضى الراشد إلى أصفهان وصحبته أبو الفتوح الاسفرائيني وأقام عليها إلى أن قتل .

وقال : في خامس عشر جمادى الآخرة - يعني - سنة تسع وثلاثين

وخمسمائة ، فتح زنكي الرها ، كان نازلا على آمد فكتب إليه رئيس حران يخبره أن صاحب الرها قد توجه إلى الشام ، فأغذ زنكي الأسير حتى نزل على الرها ، وحال بينها وبين صاحبها ، وحاصرها أشد الحصار ، وفتحها بالسيف فغزم المسلمون منها .

قرأت في تاريخ أبي المحاسن بن سلامة بن الحراني لحران ، دفعه إلي الخطيب سيف الدين أبو محمد عبد الغني ابن شيخنا فخر الدين أبي عبد الله محمد بن الخضر بن تيمية ، وذكر لي أنه نقله من خط شيخه المؤلف أبي المحاسن ، قال : وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة نزل - يعني - أتابك زنكي على الرها وفيها الأفرنج ، فحصرها وأخذها بالسيف يوم السبت السادس عشر جمادى الآخرة ، وكانت أيام الشتاء والبرد قال الشاعر :

إذا كانت جمادى في جمادى
فذاك القر والبرد الشديد

ولما فتحها أوصى بأهلها خيرا ولم يسب أهلها ، ونوى عمارتها ووجدوا على عضادة المحراب مكتوبا :

أصبحت صفرا من بني الأصفر
اختال بالاعلام والمنبر

دان من المعروف حال به
ناء عن الفحشاء والمنكر

مظهر الرحب على أنني
لولا جمال الدين لم أظهر

فبلغ ذلك رئيس حران جمال الدين فضل الله أبا المعالي فقال :
امدوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين ، فبلغ ذلك أتابك عماد الدين

فقال : صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها ، وأمر عماله إذا جاءت جائحة في الغلة أن يأخذوا الخراج على قدرها فكانوا يأخذون خراجا ، وتارة نصف خراج ، وتارة ثلث خراج ، وتارة ربع خراج ، وتارة لا يأخذون شيئا إذا محلت البلاد ، وقسم الماء الذي لحران ثلاث أقسام :قسما للسلطان ، وقسما للاشتايات وقسما لأبار حران ولخندق القلعة ، فلما أخذ الرها نزل على البيرة ، وفيها الأفرنج وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها وسار حتى دخل الموصل وأخذ فرخان شاه ابن السلطان الذي قتل نصير الدين جقر بن يعقوب فقتله بدم نصير الدين .

سمعت شيخنا قاضي القضاة أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قاضي حلب رحمه الله يقول : كان عندنا بالموصل رجل يقال له موسى يؤنن بالمدرسة ، وكان أشقر شكله شكل الأرمن ، وكان جهوري الصوت ، وكان له قرية ملكه إياها أتابك زنكي ، فسأله عن السبب في تملكه القرية ، فقال : إني كنت مع أتابك لما نزل محاصرا للرها ، فنزلت إلى السوق واشتريت لباسا من لباس الأرمن ، وتزييت في زيهم ، ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله ، فجئت إلى الجامع فدخلته ورأيت المنارة ، فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة وأؤنن وحتى يجري ما جرى ، فصعدت ونابيت : الله أكبر الله أكبر ، وأننت والكفار على الأسوار ، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى ، فترك الكفار القتال ونزلوا عن السور فصعد المسلمون وهجموا المدينة ، فأعطاني أتابك هذه القرية لذلك .

قرأت في تاريخ حران جمع أبي المحاسن بن سلامة الحراني ، قال : حدثني أبي رحمه الله قال : كان أتابك زنكي قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من

الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبني إلا بئمنها أو بخط من الديوان إلى
رئيس القرية ، وإن تعدى أحد عليه صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن
جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد
خرابها وأحسن إلى أهل مملكته ، وكان لا يبغي على مفسد وأوصى
ولاته بأهل حران وعماله ، ونهى عن الكلف والمغارم والسخر
والتذليل على الرعية وأقام الحدود في بلاده رضي الله عنه ، هذا ما
حكاه أبو المحاسن عنه

وسمعت من جماعة من فلاحي حلب أنه كان عليهم منه جور وظلم
في أيام ولايته ، وأكثر ما كان عنه من الظلم ما يلزم الناس به من
جمع الرجال للقتال والحصار ، فإن كان ذلك في جهاد الكفار ، فقد
كان يجب عليهم ذلك ، وله الزامهم به ، وبلغني أنه كان لا يتجاسر
أحد من رعيته كائنا من كان أن يظلم أحدا من خلق الله ، ويقول :
لا يتفق ظالمان يعني نفسه وغيره .

وبلغني أن أتابك زنكي تزوج بنت الملك رضوان وبني بها في نير
الزبيب خارج مدينة حلب ، وكان إذ ذاك فيه بقايا عمارة ودامت معه
بحلب إلى أن دخل يوما إلى الخزانة بحلب ليعتبر ما فيها ، فرأى
الكبير الذي كان على أبيه أق سذقر حين أسره تاج الدولة تتش وقتله
بين يديه صبورا ، وهو ملوث بالدم فقبل له : هذا كبير أبيك الذي قتل
فيه ، فأنزعج لذلك وأخذ به بيده ، وبخل على زوجته بنت الملك
رضوان ، وألقى الكبير بين يديها وهو مضمخ بالدم وقال لها : أما
هذا فعل من لا رحمه الله ، يعني جدها تاج الدولة تتش ، ثم هجرها
من ذلك اليوم ، وأذقطع عن الدخول إليها ، ودام على ذلك .

فحدثني عمي أبو غانم عن أبيه أبي الفضل قال : كان أتابك
زنكي متزوجا بنت الملك رضوان فهجرها ، وبقي مهاجرا لها مدة من
الزمان ، فجاءت إلى والدي القاضي أبي غانم وهو قاضي إذ ذاك
وقالت له : أيها القاضي قد جئتكم مدمسكة بذيلك ، ومستجيرة
بالشريعة المطهرة ، فإني مع أتابك لا أعلم حالي معه ، أمطلة أم

معلقة ، وأنا مهجورة من مدة طويلة ، فوعدها الاجتماع به في ذلك ، ثم صعد إليه إلى القلعة ولقيه ، وهو راكب على الباب فقال له : يامولاي ، قد جاءت إلي خاتون وذكرت لي كذا وكذا قال : فساق أتابك فرسه ولم يجب بشيء ، قال : فأمسك والذي لجام الدابة ومنعه من المسير ، وقال : يامولاي هذه الشريعة المطهرة لا ينبغي الخروج عنها ، فقال أتابك : أشهد على أنها طالق ، قال فأرسل والذي حينئذ لجام الدابة من يده ، وقال : أما الساعة فنعم .

وسمعت عمي أبا غانم يقول : قال لي والذي أبو الفضل : لما مات أبي القاضي أبو غانم ولاني أتابك زنكي القضاء بعده على أهل حلب وأعمالها وأحضرتني مجلسه ، وقال لي : يا قاضي هذا أمر قد نزعتك من عنقي وقلدتك إياه فانظر كيف تكون واتق الله سواي بين الخصمين هكذا ، وجمع بين سبابته ووسطاه ، ولا تمل على أحد الخصمين ولا تحاب أحدا ومن امتنع عليك فما أنا من ورائك .

أخبرني أبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن أبي الكرم بن المعلى السنجاري قال : أخبرني أبي قال : كان بالموصل رجل من أهل الصلاح يذكر المذكر أين رآه ، فإن رأى خمرا أراقه أو رأى جنكا أو عودا كسره ، فيضرب على ذلك ، فيجلاس في بيته ويداوي أثر ضرب ، ثم يخرج ، فإن رأى منكرا أنكره على عادته ، فيضرب ضربا عنيفا ، فيجلاس في البيت على العادة ويداوي نفسه إلى أن يبرئ ويخرج ويذكر على عادته ، فاتفق يوما من الأيام أن يخرج فنظر إلى دجلة ، وزنكي بن أقر سنقر راكب في شبرة وعنده مغنية تغني ، وهو يشرب ، وعنده جماعة فنزع ذلك الرجل ثيابه وسبح وجاء إلى الشبرة التي فيها زنكي ، فعلق يده فيها ليصعد ، فقال بعض من مع زنكي : أضرب يده بالسيف ؟ فقال : لا اتركه ، فتعلق وصعد فجلاس فأشار ذلك الشخص إلى زنكي أضربه ؟ فقال : لا اتركه فقع في الشبرة وأخذ الجذع وقطع أوتاره ، ثم أخذ الأقداح وصبها في دجلة وغسلها بالماء وتركها في الشبرة ، وألقى جميع ما ثم من الخمر في الماء ، وغسل الأنية وتركها ، ثم مديده إلى إزار

المغنية فأخذه وسترها به ، ثم ألقى بنفسه في دجلة وسبح وعبر ، ولم يكلمه زنكي كلمة ، وأما زنكي فإنه لما سبح ذلك الرجل وعبر قال : نرجع وندخل إلى دورنا فليس لنا في هذا اليوم اشتغال بما كنا فيه وأمر الملاحين فأتوا بالشبابة إلى داره فنزل فيها .

قال : وأما الرجل الذي كان يذكر ، فكان بعد ذلك إذا أنكر المذكر لا يتجاسر أحد على ضربه ، وإذا رأوه مقبلا ليذكر عليهم أنهزموا منه ، واختفوا من طريقه ، ولما مات غلقت أسواق الموصل لحضور جنازته رحمه الله .

أنبأنا أبو المحاسن سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : زنكي بن أوق سنقر أبو المظفر التركي المعروف بابن قسيم الدولة ، دخل دمشق في صحبة الأمير ممدود صاحب الموصل ، الذي قتل بدمشق ، وكان من خواصه ، ثم ترقى به الحال إلى أن ملك الموصل وحلب وحماة وحمص ، وحصر دمشق ثم استقرت الحال على أن يخطب له على منبرها ، وملك بعلبك وغيرها من بلاد الشام والجزيرة ، واسترجع عدة من حصون الفرنج وبلاطهم ، مثل : المعرة وكفرطاب وقتل بارين وفتح مدينة الرها ، وكان له أثر حسن في مقاومة متملك الروم لما حصر شيزر ، وأسر عدة من أبطال العدو ، وكان شهما صارما قتل وهو محاصر لقلعة ابن مالك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بالركة رحمه الله .

قرأت في تاريخ أبي شجاع محمد بن علي بن الدهان الفرضي في حوادث سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قال : وفي هذه السنة قتل عماد الدين زنكي ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر على قلعة جعبر قتله خادم له اسمه يردقش ، وانهزم إلى قلعة جعبر .

قلت : وفي تعليقي من الفوائد أن أتابك زنكي سار من الرها ، ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثالث

ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة فأقام عليها إلى ليلة الأحد
سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين
 وخمسمائة ، فقتله يرزقش الخادم ، كان تهدده في النهار فخاف منه
 فقتله في الليل في فراشه وقيل إنه شرب ونام فانتبه فوجد يرزقش
 الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابه ، فتوعدهم ونام
 فأجمعوا على قتله ، فقتله يرزقش المذكور .

سمعت والدي رحمه الله يقول : أن حارس أتابك كان يحرسه في
 الليلة التي قتل فيها بهنين البيتين :

ياراقد الليل مسرورا بأوله
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لاتأمنن بليل طاب أوله
فرب آخر ليل أجج النارا

قرأته في تاريخ حران تأليف أبي المحاسن بن سلامة الحراني
قال : فلما كان في سنة أربعين وخمسمائة نزل - يعني - أتابك
زنكي على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة يوم الثلاثاء ثالث
ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس ربيع الآخر نصف
الليل من سنة أربعين وخمسمائة ، فقتله يرزقش الخادم كان تهدده
في النهار فخاف منه فقتله في الليل في فراشه ، وجاء إلى تحت القلعة
فنادى أهل القلعة شيلوني ، فقد قتلت السلطان فقالوا له : إنهب
إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله ، واقتربت العساكر فأخذ
أولاد الداية نور الدين محمود الملك العادل بن عماد الدين زنكي
وطلبوا حلب والشام فملكها ، وسار أجناد بسيف الدين غازي إلى
الموصل وأعمالها فملكها وملك الجزيرة ، وبقي عماد الدين أتابك
زنكي وحده فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ودفنوه على
باب مشهد الامام علي عليه السلام في جوار الشهداء من الصحابة ،
وبنى بذوه عليه قبة فهي باقية إلى الآن .

كذا قال أبو المحاسن ، وإنما دفن أولا داخل مشهد علي رضي الله عنه قريبا من الباب ، ثم نقل من ذلك الموضع إلى جوار الشهداء لما نذكره بعد هذا ، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطا يقصر عن القامة ولم يبن عليه قبة .

أخبرني الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم ابن مالك العقيلي قال لما طال حصار أتابك زنكي لعمي علي بن مالك على قلعة جعبر تقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى عمي ، وقال له : من تحت القلعة يا أمير على ايش بقي يخلصك من أتابك ؟ فقال له يا عاقل يخلصني الذي يخلصك من جب خرتبرت ، فذبح أتابك في ذلك الليلة ، وكان حسان قد قبض عليه بك بن بهرام بن ارتق ، وطلب منه أن يسلم إليه منبج فلم يفعل ، فسيره إلى خرتبرت وحبسه في جب بها وحاصر منبج ، فجاءه سهم فقتله عليها ، وخلص حسان وعاد إلى منبج .

وقال لي بدران : ومن عجيب ما اتفق في حصار القلعة ما حكاها لي جماعة من عندنا وشيوخ أصحابنا أن أتابك زنكي لما قصد القلعة وحاصرها ، وبها عمي علي أقام مضايقا لها حتى عدمو الماء فبذل عمي ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها فأجابه إلى ذلك ، ونزل رسول عمي إليه وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من أذان عماتي على ما حكى لي المشايخ .

قال : فلما نزل الرسول إليه قال لبعض خواصه امض بفرسه وقدمه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني ، قال : فمضى به إلى قدر اليخني وجعل مرقعة اليخني بين يديه فشربها الفرس ، فأخبره بذلك ، فقال إن الماء عندهم قليل جدا ، فقال للرسول : ارجع اليهم فلا سبيل إلى الصلح إلا على القلعة ، فقال له الرسول : لا تفعل ، فقال : قد فعلت وأنتم فما بقي عندكم ماء يكفيكم ، قال : فصعد الرسول إلى القلعة وأخبر عمي بذلك فأسقط في يده ، قال : وكان في القلعة بقرة وحش ، وقد أجهدا العطش فصعدت درجة المئذنة حتى

علت عليها ورفعت رأسها إلى السماء وصاحت صيحة عظيمة ملأت
الوادي ، قال : فأرسل الله سبحانه سحابة ظللت القلعة وامطروا
حتى رويوا ، ولما كان عشية ذلك اليوم باتوا تلك الليلة فقتل أتابك في
جوف الليل ، وفرج الله عنهم .

قلت : وكان القاضي أبو مسلم قاضي الرقة هو الذي خرج من
الرقة مع جماعة من أهلها ، وتولى تجهيز زنكي ونقله إلى الرقة
ودفنه ، فكان ثوابه من نور الدين محمود بن زنكي أن وقف عليه
وعلى ذريته من بعده قرية عامرة ببيلة حلب .

أخبرني شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي مسلم
قاضي الرقة ، بالرقة ، قال : كان أتابك زنكي حين قتل وحمل إلى
الرقة قد دفن في مشهد علي بن أبي طالب عليه السلام داخل الباب
عن يمين الداخل والمكان معروف وأرانيه حين حكى لي هذه
الحكاية ، قال : وكان بالمشهد قيم أعجمي يقال له ببنار ، وكان
رجلا صالحا فاتفق ليلة النصف من شعبان أن رأى في المنام كأنه
خرج من البلد وجاء إلى المشهد فرأيت ثلاثة رجال ، فقلت : من
أنتم ؟ فقال أحدهم : أنا علي بن أبي طالب وهذاان الحسن
والحسين ، ثم سألتني عن القبر فقلت هذا قبر سلطان عظيم ، فقال
لي : مه السلطان العظيم هو الله ، فقلت هذا قبر أتابك زنكي
الشهيد ، فقال لي : تمضي إلى ولده محمود وتقول له : نحن جعلنا
هذا المكان معبدا لم نجعله مدفنا ، فقل له : ينقله من هاهنا ، قال :
ثم مشوا إلى المكان الذي يقال فيه الكف ، ودعوا ثم قال لي :
يا ببنار أنت ما تقول له ، نحن نقول له قال : فأصبح ببنار وبخل إلى
جدي القاضي موفق الدين أبي مسلم فدكى له ما رأى وعنده جماعة ،
فأخذ جدي وكتب كتابا إلى نور الدين محمود يخبره فيه بصورة
المنام قال : فلم يصل إليه الكتاب حتى سير نور الدين محمود كتابا
إلى القاضي أبي مسلم يقول له : إنني رأيت ليلة نصف شعبان علي
ابن أبي طالب ووليه الحسن والحسين عليهم السلام ، وقالوا لي :
تنقل أباك من المشهد فنحن جعلناه معبدا لم نجعله مدفنا وقد سيرت

إليك أربعة آلاف قراطيس ، تبني له تربة مثل تـرب الفقراء
والمساكين لا مثل ترب الملوك والسلاطين وتنقله إليها ، قال : فبنى له
حظيرة مختصرة بالقرب من باب المشهد ، ونقله إليها ، ورأيتها
بالرقة وهي قصيرة البنيان .

سمعت قاضي القضاة أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم
يقول : قد رؤي أتابك زنكي بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله
بك ؟ قال : غفر لي بفتحي الرها .

زنكي بن مودود بن آق سنقر

أبو سعيد الملقب عماد الدين صاحب سنجار وهو حفيد المقدم ذكره .
ويلقب الملك العادل .

وكان عادلا يميل الى الدين وأهله ، وكان أخوه عز الدين مسعود ابن مودود بعد موت الملك الصالح ابن عمه قد ملك حلب فسير إليه عماد الدين زنكي وقال :

كيف تختص أنت ببلاد عمي وابنه وأمواله ، وأنا لا أصبر على ذلك وطلب منه حلب ، ويدفع إليه سنجار عوضا عنها ، فأجابه إلى ذلك ، وأخذ جميع ما كان بحلب من الأموال والخاثر ، واتفقا على تسليم حلب إلى زنكي وتسليم سنجار إلى عز الدين ، فسير عماد الدين زنكي ولده قطب الدين إلى حلب فتسلمها ، ثم ورد بعده بأهله وأمواله وزوجته بنت عمه نور الدين وأجناده ، ووصل إلى حلب على البرية من جهة الأحص والتقاء أكابر الحلبيين ، وصعد إلى قلعة حلب في ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله ، ووصل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حلب ونزل عليها ثلاثة أيام ، فقال له زنكي : مر إلى سنجار وافتحها وادفعها إلي أدفع اليك حلب فرحل الملك الناصر عن حلب ومضى إلى الموصل ، ثم رحل (٢١٦ - و) عنها إلى سنجار وفتحها في ثاني عشر شعبان من السنة وعاد عنها وعزم على منازلة حلب ، وبلغ عماد الدين زنكي ذلك فخرّب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالاس ، وحصن كفر لاثا بعد أخذه من بكمش ، وأخذ رهائن الحلبيين خوفا من تسليم البلد ، ونزل الملك الناصر على حلب وقت الضحى من يوم السبت لأربع بقين من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة وأقام عليها شهرا يجد في القتال ، فرأى عماد الدين

زنكي أنه لا طاقة له به وأن أخاه عز الدين قد جعلها خالية من الأموال والنخائر ، فأحضر اليه الأمير طمان واتفق معه على أن يخرج في السر ليلاً ، ويتحدث في تقرير الأمر بينهما على تسليم حلب وأعمالها إلى الملك الناصر وأن يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج ، وأن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي ، وكتب ذلك عن الحلبيين والأجناد ، وكان يخرج إلى اصطبله وداره بالحاضر ويظهر أنه يخرج لفظ أخشابه بهما ، ويجتمع بالسلطان إلى أن قرر ما قرره ، ولم يشعرا أحد من الجانبين إلا وأعلامه قد رفعت على قلعة حلب ، واستقر الأمر على إجراء الأمراء وأعيان المدينة على عاداتهم في معاشهم وأملأهم ، وكان الحلبيون يجدون في قتال عسكر الملك ويخرج منهم في كل يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر يجدون في القتال ، فخافوا على أنفسهم لما تكرر منهم في قتال الملك الناصر مرة بعد أخرى في أيام الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وفي أيام عماد الدين (٢١٦ ظ) زنكي وصرخ العوام بسبه ، ونزل عماد الدين من قلعة حلب يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر من سنة تسع وسبعين وخمس مائة ورتب فيها طمان إلى أن يتسلم نواب عماد الدين ما اعتاض به عن حلب واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب حتى باع الأغلاق والخبابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئاً كثيراً ونزل عماد الدين في ذلك اليوم إلى السلطان الملك الناصر ، وعمل الملك له وليمة واحتفل ، وقدم لعماد الدين أشياء فاخرة من الخيل والعدد والمتاع الفاخر ، وسار عماد الدين نحو بلاده حتى نزل مرج قراحصار ، وسار الملك الناصر وشيعه ورجع .

سمعت عمي أبا المعالي عبد الصمد بن هبة الله بن أبي جراحة قال : نقل عز الدين صاحب الموصل من حلب حين ملكها جميع ما في قلعة حلب من الذخائر والسلاح والأموال إلى الرقة ، وصانع عماد الدين على أن يأخذ منه سنجار وأعطاه حلب ، فقدم عماد الدين إلى حلب مجداً في السير على البرية .

قال لي عمي : فخرجت أنا ووالدك والتقيناہ وقدم من ناحية الاحص ، وبخل حلب وأقام بها فلم يجد في قلعتها من الذخائر والأموال إلا القليل ، فبلغ الملك الناصر فقال : أخذنا والله حلب ، وكان لما بلغه تسلم عز الدين حلب قال : خرجت حلب من أيدينا ، فقل له : كيف ؟ قلت في عز الدين لما أخذنا حلب : فقال : لأن عز الدين ملك أيدينا ، وقلت في عماد الدين أخذنا حلب ، فقال : لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال (٢١٧ - و) وعماد الدين لارجال ولا مال ، وجاء الملك الناصر ونازل حلب فقال له عماد الدين امض الى سنجار وخذها وأنا أدفع إليك حلب وتعطيني سنجار ، فرحل عنها الملك الناصر بعساكره ونازل سنجار وفتحها ، وعاد الملك الناصر ونزل على حلب وبها الأمراء الياروقية في قوتهم وعدتهم ، فسعى الأمير طمان بين عماد الدين والملك الناصر وصالحه على أن يعطيه سنجار ويأخذ حلب ، ولم يعلم أحد من الأمراء وأهل البلد إلا وأعلام الملك الناصر على قلعة حلب ، فشق عليهم ذلك وجرى على الياروقية أمر عظيم وخافوا على أخبازهم ، وكذلك على أهل البلد لأن الملك الناصر كان قد حاصرها في أيام الملك الصالح ورأى من قتالهم ونصحهم ما لم يشاهده من غيرهم ، وصعد الرئيس (٧٦) بحلب مقدم الأحداث إلى عماد الدين ووبخه على ذلك ، فقال له وهو في القلعة : لم نخرج منها بعد فما فات شيء فاستهزأ به الرئيس وجمع له الحلبيون الأجناد إجانات الغسالين إلى تحت القلعة يشيرون بذلك الى أنه يغسل فيها كالمخانيث ، وعمل عوام حلب فيه شعرا ملحونا من نظم العامة الجاهل ، وكانوا يغذون بها ويدقون على طبل لهم منها :

يا حباب قلبي لا تلوموني هذا عماد الدين مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب وزاده المولى نصيبين
(٢١٧ - ظ)

قال : وضرب آخر من العوام السفلة على طبله وقال مشيرا الى
عماد الدين :

وبعت بسنجار قلعة حلب عذمتك من بايع مشتري
خريت على حلب خرية نسخت بها خرية الأشعري

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن الحصين - فيما كتبه
بخطه - عن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي في دستوره الذي
جعله تاريخا للماجريات في كل يوم بعضه بخط الفاضل وبعضه بخط
ابن الحصين قال: يوم الجمعة سابع عشر صفر- يعني - من سنة
تسع وسبعين وخمسمائة في ليلة خرج الحسام طمان ، واجتمع
بالسلطان وتقرر الأمر في تسليم حلب إلى السلطان وقلعتها ، وأخذ
العوض عنها سنجار ، ونصيبين ، والخابور والرقعة ، وسروج وعقد
المصافاة مع العماد على المساعدة في الغزو بعسكر سروج والرقعة
متى استدعوا الجهاد ، وأن يساعد بذفسه وباقي رجاله متى خف
ركابه لذلك ، وأن يتابع السلطان في حالتي سلامه وحربه ، ويخلص في
طاعته في بعده وقربه ، وحررت من الجانبين نسخة يمين يستحلف
بأحدهما العماد ويحلف هو بالأخرى .

وقال : خرج في آخر نهار هذا اليوم حسام الدين طمان وجورديك
وجماعة من أمراء الياروقية ، وحضروا خدمة السلطان الملك
الناصر ، ولخصوا من نسخة اليمن فصولا مختصرة استوفوا أقسام
الحلف بها على السلطان ، وباتوا تلك الليلة بالمعسكر التقوي (٧٧)
خوفا من تشغيب (٢١٨ - و) العوام .

وقال : يوم السبت ثامن عشر صفر خرج الأمراء الحلبيون من
الياروقية والمماليك النورية وحضروا خدمة السلطان ، وجاء أعيان
المدينة وبياضها ، وشملهم انعام السلطان في رد الأملاك على أربابها
واقرار الاجناد على معائشهم واقطاعاتهم واجراء الرعايا على
عوائدهم .

وقال - يعني في هذا اليوم - أعلن أهل حلب بسبب عماد الدين
زنكي بن مودود ، وذهمه وتسخيف رأيه ، ووصف ذله وجبنه فيما

اعتمده من السلم والتسليم حتى حملوا الى باب القلعة مغزلا وقطنا وأجانة ، يعذون أنك شأنك شأن النساء من الغزل والغسل .

وقال : يوم الاحد تاسع عشر صفر خرج في أوله الأمراء الحلبيون إلى الخدمة بأسرهم ، وساروا في الخدمة الى الميدان الأخضر وفتحت أبواب حلب بأسرها وجلس أهلها في معاشهم .

وقال : - يعني في هذا اليوم - أنعم السلطان على ابنة نور الدين محمود بن زنكي زوجة عماد الدين زنكي بن مودود باقطاع من أعمال حلب وعبرته في كل سنة عشرون ألف دينار .

وقال : يوم الخميس ثالث عشرين صفر خرج عماد الدين زنكي بن مودود من قلعة حلب وركب السلطان فتلقاه واعتنقا راكبين ، وتسائرا ، فلما قارباً مخيم السلطان تقدم عماد الدين أمامه فترجل عن فرسه قريب اطناب الدهليز حيث ينزل الأمراء في خدمة السلطان ، فأمسك السلطان رأس فرسه حتى دخل عماد الدين الى دهليز سراقه (٢١٨ - ظ) ثم سار السلطان فنزل حيث جرت عادته ، وبخل وفرش تحت قدمي عماد الدين عدة ثياب أطلس ، وبخل السلطان فجلسا معا ، وجلس الأمراء الحلبيون كلهم على مراتبهم ومعد الخيوان ، ولم يزل السلطان

يبسط العمد ويؤانسه ويشغل الوقت بالأخبار المصرية والغزوات وغيرها ، والعمد ملازم للصمت والتثاقل حتى حضر سليمان بن جندر بحكم التحجب عن السلطان ، وخدم عماد الدين وقدم بين يديه ما حمل من الخزانة الناصرية في عشرين بوقجة : مائة ثوب وسكين بنصاف ناب ، وأصناف الثياب أطلس ورومي ، وخوارزمي وأنطالي وخطاي ، وسقلاطون ، وعتابي ، وغير ذلك ، وقدم له الملك العزيز عثمان تسعة أثواب خونجي ومشجر وأمدى وسكين ومنديل ، وقدم له الملك الظاهر غازي مثل ذلك ، وقدم له من اصطبل السلطان عشرة أرس (٧٨) خيلاً عرباً ، وخمس حجور ، وخمسة أحصنة ، وقدم له الملك العزيز عثمان ثلاثة أحصنة ، والملك الظاهر مثل ذلك ،

ونهب عماد الدين وخدم واذفصل ، وسار على حاله الى منزل يعرف
بقراحصار وهو على نحو فرسفين من حلب في جهة المشرق ، ويقال
قراحصا .

أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم
قال : رحل عز الدين - يعني - مسعود بن مودود من قلعة حلب في
سادس عشر شوال - يعني من سنة سبع وسبعين وخمسمائة طالبا
للركة وسار حتى أتى الرقة (٢١٩ - و) وإليه أخوه عماد الدين
عن قرار بينهما واستقر مقايضه حلب بسنجان ، وحالف عز الدين
لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشرين شوال ، وسار من جانب
عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى
قلعة حلب .

وقال : وسار - يعني - السلطان الملك الناصر طالبا حلب ،
فنزل عليها في سادس عشرين محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة .
وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون
عسكر حلب ببانقوسا ، وباب الجنان غدوة وعشية ، ولما نزل على
حلب استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق عظيم ، وقتلها
قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، وكان قد
ضرس من إفراخ (٧٩) الأمراء عليه وجبههم ، فأشار إلى حسام
الدين طمان رحمه الله أن يسفر له مع السلطان قدس الله روحه في
إعانة بلاده وتسليم حلب إليه .

واستقرت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر
حتى تم الأمر وانحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر
منه ذلك فأعلمهم . وأنن لهم في تدبير أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن
الرعية جورديك الذوري وبيك الياروقي ففقدوا عنه إلى الليل ،
واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في سابع عشر صفر
سنة تسع وسبعين ، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان

(٢١٩ - ظ) الاخضر ومقدموا حلب ، وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الاخضر الى يوم الخميس ثالث عشر صفر ، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وسير معه بالميدان الاخضر وتقرر بينهما قواعد ، وأنزله عنده في الخيمة وقدم له مقدمة سنوية وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه ، وسار عماد الدين من يومه الى قراحصا سائرا الى سنجار ، فأقام السلطان بالمخيم بعد مسيرة عماد الدين الى يوم الاثنين سابع وعشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم صعد قدس الله روحه قلعة حلب ، مسرورا منهورا (٨٠) .

أنشدت لزكري بن مودود صاحب سنجار دوبيت :

السكر صار كاسدا من شفقيه
والبدر تراه ساجدا بين يديه
والحسن عليه كل شيء وافر
إلا فمه فانه ضاق عليه

توفي عماد الدين زكري بن مودود بسنجار ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها ظاهر مدينة سنجار رحمه الله .

سمعت تاج الدين محمد بن خير الله الذبيعي الفقيه الحنفي بسنجار يقول لي : رأيت عماد الدين زكري بن مودود بن زكري صاحب سنجار في النوم وهو في هيئة حسنة وثياب جميلة وهو راكب خارج سنجار نحو القبلة فقلت له إلى أين ؟ فقال : الى الغزاة .

قال لي ابن خير الله : وكان له غزوات متعددة (٢٢٠ - و) رحمه الله ، وكان قد جمع الغبار الذي صار على درعه في غزواته وابخرها لتجعل في أكفانه ، فجعات في أكفانه حين مات رحمه الله .

قال : وكان كثير الخير والمعروف ، وبنى بسنجار مدرسة ، هو

- ٧٤٧٦ -

مدفون بها وبیمارستانا ، وبنى بنصیبین مدرسة لأصحاب أبی
حنيفة ، ووقف على ذلك وقوفا كثيرة (٢٢٠ - ظ) .

حواشي زبدة الحلب

- ١ - شكل مصرع مسلم بن قريش - كما رأينا - نقطة تحول في تاريخ حلب ، ولذلك بدأت بالحوادث التي تلتها لارتباطها بالمقدمات المباشرة لعصر الحروب الصليبية .
- ٢ - أي القبائل البدوية العربية ، وكانت حلب محكومة من قبل المرادسيين الكلابيين ثم بعدهم من قبل العقيليين .
- ٣ - زيادة اقتضاها السياق .
- ٤ - بينها وبين حلب ثلاثة أميال . معجم البلدان .
- ٥ - دابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، وعندها مرج معشب نزه كان ينزله بذومروان ، وبه قبر سليمان بن عبد الملك . معجم البلدان .
- ٦ - أنظر ترجمة سالم في بغية الطلب ص ٤١٥٧ - ٤١٥٩ . وكنت قد نشرتها في ملاحق كتابي منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠٥ - ٤٠٧ .
- ٧ - نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب . انظر بغية الطلب ص ١٩٧٤ .
- ٨ - هو فيلاريتوس براخاموس ، كان بالأصل أرمنيا من قاعة الامبراطور رومانوس داجيذس . انظر كتاب « الرها المدينة المباركة » ترجمة عربية ، ط ، حلب ١٩٨٨ ص ٢٧٣ .
- ٩ - ميناء مدينة انطاكية على شاطئ البحر المتوسط .
- ١٠ - انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٦٩ - ٣٧٧ .
- ١١ - الآثار قلعة معروفة بين حلب وانطاكية ، تبعد عن حلب ثلاثة فراسخ . معجم البلدان .
- ١٢ - هو أخو السلطان ملكشاه : انظر حول عصيانه الكامل لابن الاثير - ط القاهرة مطبعة الاستقامة ج ٨ ص ١٣٦ .
- ١٣ - تتبع قرية لطمين ناحية محربة في محافظة حماه ، وتبعد عن حماه مسافة ٣٦ كم .
- ١٤ - في ترجمة أق سنقر - منخل ص ٣٦٩ . « داية السلطان ادریس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملكشاه » .
- ١٥ - حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق . معجم البلدان .
- ١٦ - الخلف بن ملاعب في موسوعتنا أكثر من ترجمة مفيدة للمعلومات في كتاب منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠ - ٣٨٥ .
- ١٧ - انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابي منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢١ / ٢٢٨ .
- ١٨ - دارا بلد في لطف جبل بين نصيبين ومارتين . معجم البلدان .
- ١٩ - لمزيد من التفاصيل ، انظر منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- ٢٠ - الري الآن ضاحية لمدينة طهران .
- ٢١ - قرب معرة النعمان . معجم البلدان .
- ٢٢ - تتبع تلمذس الآن منطقة معرة النعمان في محافظة ادلب السورية وتبعد عن المعرة مسافة ٦ كم وعن ادلب ٤٥ كم .
- ٢٣ - وادي بزاغا . انظر منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٧٢ .
- ٢٤ - اضيف ما بين الحاصرتين من ترجمة أق سنقر . منخل ص ٢٧٢ .
- ٢٥ - سبعين قرية قريبة من حلب . معجم البلدان .
- ٢٦ - مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب . الآثار الاسلامية في حلب لأسعد طلاس . ط . دمشق

- ١٩٥٦ هـ ٢٤١ .
٢٧ - انظر حولها الآثار الاسلامية من ٩٠ - ٩١ ذلك انها درست .
٢٨ - ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م
٢٩ - عانة بلد مشهور على الفرات بين الرقة وهيت يعد في اعمال الجزيرة . معجم البلدان
٣٠ - لرؤوان ترجمة مطولة في كتاب بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي - مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية من ٣٨٧ - ٣٩٦ .
٣١ - لدقاق ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، انظر في كتاب المدخل من ٣٨٦ .
٣٢ - لجناح الدولة حسين ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي المدخل من ٣٧٦ - ٣٧٩ .
٣٣ - اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق من تاريخ دمشق لابن القلازي - ط . دمشق ١٩٨٣ - من ٢١٣
٣٤ - انظر لمزيد من التفاصيل ترجمة رؤوان - المدخل من ٣٩١ ، ٣٩٥
٣٥ - لطفتكين ترجمة قصيرة في تاريخ ابن عساكر ، نشرتها في ملاحق المدخل
٣٦ - اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق - انظر ترجمة خلف بن ملاعب
٣٧ - سكرمان بن ارتق . انظر المدخل من ٣٨٨ - ومن المفيد مقارنة ما جاء هنا بما جاء في الترجمة لوجود بعض التعارض
٣٨ - سروج بلدة قريبة من حران من ديار مصر، معجم البلدان
٣٩ - المجن الفوقي ، مقدم احداث حلب . انظر المدخل من ٣٨٨ - ٣٩٢
٤٠ - انظر بغية الطلب من ٣٢١ - ٣٢٢ - ٤٧٤ .
٤١ - الجزر كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
٤٢ - سميساط مدينة على شاطئ الفرات ، هي الآن في تركيا . معجم البلدان - العلاقات الخطيرة - قسم الجزيرة - من ٨٠١ .
٤٣ - من أمراء التركمان وقادة جيوشهم وهو عند ابن الاثير في الكامل : ٨ / ٢٢٨ ، اصبهيد صباوو .
٤١ - انظر المدخل من ٣٨٨
٤٥ - الافضل بن بدر الجمال أمير الجيوش المتحكم بالخلافة الفاطمية . انظر المدخل من ٣٩٢ .
٤٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلازي من ٢١٧ .
٤٧ - في تاريخ دمشق لابن القلازي من ٢١٧ ، لمعاونة النزول على دمشق ، وهو الاقوم
٤٨ - الضمير يعود هنا الى يفي سيان . انظر ابن القلازي من ٢١٨ .
٤١ - انظر ابن القلازي من ٢١٨ .
٥٠ - بغراس مدينة في لحف جبل الكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب . معجم البلدان .
٥١ - ارتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من اعمال حلب . معجم البلدان .
٥٢ - بليدة في منطقة اريحا محافظة ادلب السورية كان بها حصن ، مازالت خرائطها شاهدة على عظمة ماضيها . انظر معجم البلدان وانظر الخبر ايضا عند ابن القلازي من ٢١٩ .
٥٣ - الروج من كور حلب المشهورة في غربها . معجم البلدان .
٥٤ - معرة مصرين من قرى محافظة ادلب وتتبع اداريا لها وتبعد عن ادلب مسافة ١٠ كم .
٥٥ - حارم الآن من مناطق محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم
٥٦ - معلومات ابن العديم هنا على درجة عالية من الدقة ، والانبرت هو الامبراطور ، اراد به والد بوهموند جويسكارد النورمندي ، وهناك خلاف حول اصل وشخصية الزراد انظر وقارن ولیم الصوري - تاريخ الحروب الصليبية ترجمتي - ط . بيروت ١٩٩٠ من ٢٧٩ - ٣٣٢ .

- ٥٧ - انب حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب . وعم قصرية غناء بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .
- ٥٨ - انظر وليم الصوري ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وجسر الحديد كان مقاما على العاصي انظر خريطة انطاكية ص ١٢٤ من وليم الصوري .
- ٥٩ - انظر يوميات صاحب اعمال الفرنجة في كتابي الحروب الصليبية - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٢٣٩ - ٢٦١ . وليم الصوري ص ٣٣٧ - ٣٦٤ .
- ٦٠ - الفوعة الآن من قرى محافظة ادلب وتبعد عنها مسافة ١٣ كم .
- ٦١ - انظر حوله الاطلاق الخطيرة لابن شداد قسم حلب - ط . دمشق ١٩٩١ ج ٢ ص ٩٤ .
- ٦٢ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٦٨ - ٢٧١
- ٦٣ - انظر الحروب الصليبية ص ٢٧٨ - ٢٨٢ .
- ٦٤ - انظر المدخل ص ٣٩٢ .
- ٦٥ - تبعد خرائب كفر طاب عن خان شيخون - الى الغرب منها - قرابة ٣ كم .
- ٦٦ - انظر الاطلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ١٣٨
- ٦٧ - انظر ابن القلاسي ص ٢٢٩ .
- ٦٨ - قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية .
- ٦٩ - المسلمية من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٥ كم .
- ٧٠ - بلدة من نواحي حلب بينهما يوم واحد . معجم البلدان .
- ٧١ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلاسي ص ٢٣٢
- ٧٢ - هاب قلعة عظيمة من العواصم . معجم البلدان .
- ٧٣ - ماتزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافة ١٨ كم الى الشمال منها .
- ٧٤ - اسمها الآن مسكنة تبعد عن حلب مسافة ٩٠ كم ، القايا كورة بين منبج وحلب . معجم البلدان
- ٧٥ - انطاكية نعم اما الرها فكانت دولة قائمة بذاتها لها حاكمها .
- ٧٦ - انظر ترجمة دقاق منتزعة من تاريخ دمشق لابن عساكر .
- ٧٧ - الخشت من انواع النبل أو الخناجر .
- ٧٨ - الاثارب من قرى محافظة حلب - منطقة جبل سمعان .
- ٧٩ - املاك بيت المال . المدخل ص ٣٨٩ .
- ٨٠ - تل قراد حصن في بلاد الارمن قرب شيفتان . معجم البلدان .
- ٨١ - غير اسمه الآن الى بني قحطان ، كان يقع امام جبلة . معجم البلدان .
- ٨٢ - هو العشارنة في محافظة حماه في منطقة القاب .
- ٨٣ - اي قفز .
- ٨٤ - في ترجمة رضوان - المدخل ص ٣٩٠ : « واستدل على ابي الفتح الصائغ رئيس الملاحدة بها »
- ٨٥ - بقاياها في سوق الصابون بحلب . انظر الاثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٥١ - ٢٥٣ .
- ٨٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، ترجمة الب أرسلان المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق الجزء الاول من المدخل .
- ٨٧ - الذي ابلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلي : المدخل ص ٢٩٥ .
- ٨٨ - كذا بالاصل وجاء في الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٢٧١ : برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الامير جيوش بك والامير كتغندي » .
- ٨٩ - لم يذكر ابن القلاسي هذا الخبر لكن اكد ابن الاثير ج ٨ ص ٢٧١ مع المزيد من التفاصيل الهامة .

- ٩٠ - ماتزال بقايا رافيه قائمة قرب بلدة يعرين « بارين » على الطريق الذي يصل مصياف بحمص ، هذا وما أورده كل من ابن القلاذسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ بشأن رافيه يخالف رواية ابن العديم هذه وأوضح ابن الأثير ان الذي استولى عليه عسكر السلطان ثم آل الى خير خان هو مدينة حماه ، وهو الصحيح .
- ٩١ - دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب . معجم البلدان .
- ٩٢ - تل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفندق . معجم البلدان . وتبعد تل السلطان عن ادلب ٤٧ كم .
- ٩٣ - كذا وعند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ « جيوش » .
- ٩٤ - يتوافق هذا مع ما أورده ابن القلاذسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ص ٢٧٢ .
- ٩٥ - في ترجمة الب أرسلان بن تمش روى ابن العديم « فلما وصل الى دير حافر » واوردا بن الأثير ج ٨ ص ٨ انه قتل سنة ٥١١ هـ . واعطى المزيد من التفاصيل ، ومن أجل قلعة نادرة وهي قرب بالاس انظر الاعلاق الخطيرة قسم حلب . ج ٢ ص ٢٥ هذا ودير حافر مركز ناحية تابعة لمنطقة الباب في محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٥٠ كم .
- ٩٦ - للبرسقي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ١٩٦٣ - ١٩٧٠ .
- ٩٧ - ياروق تاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .
- ٩٨ - كان خير خان قد أسر ايلغازي سنة ثمان وخمسمائة وذلك اثناء نزوله على حمص . انظر ابن القلاذسي ص ٣٠٥ .
- ٩٩ - سجة نهر يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة . معجم البلدان .
- ١٠٠ - الصجر : الأنثى من الخيل . القاموس .
- ١٠١ - أي ان أسره كان من الملائكة .
- ١٠٢ - رينوما سيور . انظر حوله ولیم الصوري ج ١ ص ٥٨٢ .
- ١٠٣ - مريمين من قرى منطقة جسر الشغور محافظة ادلب وتبعد عن ادلب ٨٥ كم .
- ١٠٤ - قارن ولیم الصوري ج ١ ص ٥٧٩ - ٥٨٢ .
- ١٠٥ - كفر روما قرية من قرى معرة النعمان . معجم البلدان .
- ١٠٦ - الراوندان قلعة حصينة من نواحي حلب . معجم البلدان .
- ١٠٧ - ترمانين الآن احدى قرى منطقة حارم محافظة ادلب وتبعد ادلب مسافة ٧٦ كم .
- ١٠٨ - مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القلاذسي ص ٣٢٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٩٤ ، الروايات حول معركة دانيث لسنة ٥١٤ هـ / ١١٢ م التي انتصر فيها الفرنج حسب رواية ولیم الصوري ج ١ ص ٥٨٣ - ٥٨٥ .
- ١٠٩ - تتوافق هذه الرواية مع ما أورده باختصار ابن القلاذسي ص ٣٢٣ ، لكن ابن الأثير تحدث في ج ٨ ص ٢٨٩ عن نشاط جوسلين في منطقة طبرية ، وصافين هي منطقة ابسي هـريرة قرب الرقة حالياً .
- ١١٠ - قرية كبيرة في جبل السماق من بلد حلب . معجم البلدان .
- ١١ - لعلها كانت قرب باب الجعتان .
- ١١٢ - سرمد قرية تابعة لمنطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٦٤ كم .
- ١١٣ - أوسع التفاصيل حول هذه الواقعة في نص ابن الأزرقي الفارقي .
- ١١٤ - الهرري بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . القاموس .
- ١١٥ - نبل من قرى أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٢ كم .
- ١١٦ - حربل من قرى منطقة أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٠ كم .
- ١١٧ - أو في التفاصيل حول هذا الموضوع في نص السرياني المجهول .

- ١١٨ - تل قباسين من قرى العواصم من أعمال حلب . معجم البلدان .
- ١١٩ - البيرة بلدة في تركيا الآن - اسمها بيرة حبك - على الفرات قرب سميساط - الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٧٦٩ .
- ١٢٠ - تسمى الآن بجامع ابي نرزي محلة الجبيلة . الاثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ١٩٢ .
- ١٢١ - كركر او جرجر : حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) غربي الفرات تولاها الخراب . اللؤلؤ المذثور ص ٥١٨ .
- ١٢٢ - ويعرف ايضا باسم حصن زياد بأرض ارمينية بين آمد وملطية . اللؤلؤ المذثور ص ٥٠٦ ومن اجل الاسرى انظر وليم الصوري ص ٥٩٠ - ٥٩١ . مع نص السرياني المجهول .
- ١٢٣ - بانقوسا : جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال . معجم البلدان .
- ١٢٤ - جبرين : قرية على باب حلب . معجم البلدان .
- ١٢٥ - حدادين من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٦ كم .
- ١٢٦ - عقر بوز من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٦ .
- ١٢٧ - الجشير : الدواشي على انواعها .
- ١٢٨ - قارن واستند من السرياني المجهول .
- ١٢٩ - مع نص السرياني المجهول انظر وليم الصوري ص ٥٩١ - ٥٩٥ .
- ١٣٠ - حيلان قرية قرب حلب تفرخ منها عين فوارة كثيرة الماء سبقت الى حلب . معجم البلدان .
- ١٣١ - اسمه الآن الشيخ محسن . الاثار الاسلامية ص ٥٦ - ٥٨ .
- ١٣٢ - انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب ج ١ ص ٢٧١ - ٣٩٩ .
- ١٣٣ - هو الآن المدرسة الحلوية . الاثار الاسلامية ص ٥٩ - ٦٢ .
- ١٣٤ - انظر الاثار الاسلامية ص ٢٥٢ .
- ١٣٥ - هي في محلة الجلوم . انظر الاثار الاسلامية ص ٦٧ - ٦٨ .
- ١٣٦ - الغريب من الابل والشاء التي تعزب عن اهلها في المرعى ، وابل عزيز لا تروح على الحي . القاموس .
- ١٣٧ - الحانوتة الآن اسمها تل الحواصيد ، وتبعد عن حلب مسافة ٦٠ كم .
- ١٣٨ - مشحلا : قرية من نواحي اعزاز من أعمال حلب . معجم البلدان .
- ١٣٩ - بالو : قلعة حصينة وبلدة من نواحي ارمينية بين ارزق الروم وخلاط . معجم البلدان .
- ١٤٠ - انظر ابن القلانسي ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .
- ١٤١ - اسمه الآن مقام الصالحين . الاثار الاسلامية ص ٥٢ - ٥٣ .
- ١٤٢ - بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على بجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر اللؤلؤ المذثور ص ٥٠٧ .
- ١٤٣ - لديس ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٤٧٨ - ٣٤٩٣ .
- ١٤٤ - مايشد حول الساق .
- ١٤٥ - الذفر : الجلدة التي توضع تحت الثيل ويربط بها حلس الدابة .
- ١٤٦ - مدينة الآن بتركية هي في لحد جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
- ١٤٧ - حملة شارات وأعلام كانوا يقيمون بدووظيفة مراقبة أمن الجيش ونظامه .
- ١٤٨ - لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة آق سندر البرسقي في بغية الطلب ص ١٩٦٣ - ١٩٧٠ .
- ١٤٩ - عم : قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متباعدة بين حلب وانطاكية - معجم البلدان .
- ١٥٠ - مانتزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه وهي في منطقة جبل سمعان - محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم . انظر بغية الطلب ص ١٩٦٨ - ١٩٧٠ حيث المزيد من التفاصيل .
- ١٥١ - له ترجمة مفيدة في بغية الطلب انظرها فيما تقدم .
- ١٥٢ - انظر بغية الطلب ص ٣٢١٨ .
- ١٥٣ - كذا بالاصل وهذه الرواية مشوشة صوابها مارواه ابن العديم نفسه في بغية الطلب ص

٣٢١٨ - ٣٢١٩ : « نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقاش وجماعة امراء في عسكر قوي الى باب حلب واتفق الامر على ان يسير بدر الدولة وخطبها الى بساب الموصل الى المولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر الى الموصل فلمن ولى عاد الى منصبه ، واقام بحلب الأمير حسن قراقاش والرئيس فضائل بن بديع ، واصلاح عماد الدين بينهما ، ولم يوقع لاحد منهما ، وطمع بملك حلب وسير سرية الى حلب مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل الى حلب ، واطلع الى القلعة واليا من قبله ورتب الأمور .

- ١٥٤ - انظر الآثار الإسلامية ص ٩٠ - ٩١ .
- ١٥٥ - تبعد شامر عن مدينة حلب مسافة ١٢ كم وهي من قرى منطقة جبل سمعان .
- ١٥٦ - التكهيل هنا : امرار ميل محمي على الجبلين حتى يلتصقا .
- ١٥٧ - لزنكي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ٣٨٤ - ٣٨٥٧ .
- اعيد نشرها في هذه الموسوعة .
- ١٥٨ - السن مدينة على نجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الاسفل . معجم البلدان .
- ١٥٩ - خارج مدينة حلب . بغية الطلب ص ٣٨٥٢ .
- ١٦٠ - الكبر قباء مهشو يتخذ للحرب . المعرب للجواليقي ص ٢٥٢ .
- ١٦١ - انظر تاريخ ابن القلازي ص ٣٦١ - ٣٦٢ (حوادث سنة ٥٢٤ هـ)
- ١٦٢ - انظر وليم الصوري ص ٦٥٨ - ٦٦٠ .
- ١٦٣ - غالبا ماكان السر جثنية من المشاة ذوي التسليح الثقيل وممن كانت الكنيسة تتولى الانفاق عليهم .
- ١٦٤ - مري بن ربيعة ، وحسان بن مكرم . انظر بغية الطلب من ٣٤٨١ - ٣٤٨٢ . تاريخ ابن القلازي ص ٣٦٦ .
- ١٦٥ - انظر بغية الطلب ص ٣٤٨٢ .
- ١٦٦ - مراغة بلدة مشهورة عظيمة هي اعظم بلاد اذربيجان وأشهرها . معجم البلدان .
- ١٦٧ - رام حمدان من قرى ناحية معرتمصرين محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٥ كم .
- ١٦٨ - عقرقوف قرية من نواحي لجيل ، بينها وبين بغداد اربعة فراسخ .
- ١٦٩ - انظر ابن القلازي ص ٣٧٤ (حوادث سنة ٥٢٢ هـ) مع الحواشي .
- ١٧٠ - صلاح الدين اليفيساني ، من اكبر شخصيات دولة زنكي .
- ١٧١ - أتى ابن الأزرقي الفارقي على ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، انظر نصه المتقدم مع التعريف بالاماكن الجغرافية
- ١٧٢ - عقر الحميرية قلعة حصينة كانت للاكراد ببلاد الموصل ، الا علاق الخطيرة قسم الجزيرة - ص ٨١١ .
- ١٧٣ - عند ابن الأزرقي تل شيخ ، ووافقت رواية ابن العديم هنا رواية ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٣ .
- ١٧٤ - أي سنة ٥٢٨ هـ ، انظر تاريخ حلب للعظيمي - ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٣٨٦ ، واريخ لها ابن القلازي ص ٢٩٠ - ٣٩٢ بين حوادث السنة التالية ٥٢٩ هـ .
- ١٧٥ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلازي ص ٣٨٧ - ٣٩٠ وانظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر .
- ١٧٦ - في ابن القلازي ص ٣٩١ . وخيم بأرض عذراء الى أرض القصير ، ١٧٧ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلازي ص ٣٩٢ .
- ١٧٨ - تعرف الآن باسم بعيرين وهي من قرى منطقة مصياف في محافظة حماه وتبعد عن حماه مسافة ٤٢ كم .
- ١٧٩ - عاصر ابن الأزرقي الفارقي هذه الاحداث ومواده على درجة عالية من الاهمية ، انظرها في موسوعتنا هذه .

- ١٨٠ - المعلومات لدى ابن القلاذسي أوسع من ٣٩٧ - ٣٩٨ ، وسيكون لمعين الدين انر دور السيادة في دمشق حتى وفاته فبعد وفاته بقليل سقطت - كما سنرى - لذور الدين محمود بن زنكي . انظر تاريخ ابن القلاذسي من ٤١٥ .
- ١٨١ - هو فولك أوف أنجو . انظر تاريخ وليم الصدوري من ٦٨٦ - ٦٨٩ .
- ١٨٢ - هو يوحنا بن الكسيوس كومنين . انظر تاريخ وليم الصدوري من ٦٨٤ - ٦٨٦ .
- ١٨٣ - ملك دولة أرمنية في كليكية .
- ١٨٤ - وصف ابن العديم كل من عين زربة والمصيصة وبغراس ومدن الثغور الأخرى في كتابه بغية الطلب من ١٥١ - ١٧٢ .
- ١٨٥ - في تقويم البلدان من ٢٣٠ وبالقرب من عين الجرز ضيعة تعرف بالمجدل وهني على الطريق الأخذ من بعلبك على وادي التيم هذا ، وتعني كلمة مجدل : حصن .
- ١٨٦ - استخدمت بيزنطة أعداد كبيرة من العناصر التركية الوثنية بمثابة مرتزقة في جيوشها .
- ١٨٧ - القادة الكبار .
- ١٨٨ - كان هذا البرج من أشد أبراج سور حلب مناعة .
- ١٧٩ - قرية قريبة من حلب على نهر قويق . زينة الحلب - ط . دمشق ١٩٥١ ج ١ ص ٢٦٤ .
- ١٩٠ - جسر شيزر وكان عليه موقع حصين غير بعيد عن شيزر نفسها .
- ١٩١ - لمزيد من المعلومات انظر ابن القلاذسي من ١٤٥ - ٤١٨ .
- وليم الصدوري من ٦٩٥ - ٦٩٧ .
- ١٩٢ - ماتزال قلعة امي قبيس قائمة . وتبعد عن مدينة حماه مسافة ٥٤ كم .
- ١٩٣ - اللكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . معجم البلدان .
- ١٩٤ - تل عمار في منطقة اعزاز محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم .
- ١٩٥ - زرينا في جوار مدينة ادلب وتبعد عنها مسافة ٢٠ كم .
- ١٩٦ - عند العظمي في تاريخ حلب من ٣٩٤ ، وفتح نارا ورأس العين .
- ١٩٧ - الكهف احدى قلاع الدعوة في جبال بهراء .
- ١٩٨ - نارا مدينة بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
- ١٩٩ - رأس العين احدى المدن السورية على نهر الخابور مقابل الحدود التركية .
- ٢٠٠ - جبل جور واحد من حصون ديار بكر قريب من ارمينية . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٧٧٦ .
- ٢٠١ - حصن ذي القرنين حصن يقع تحته رأس بجلة شمالي ميفارقين . الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٧٨٣ .
- ٢٠٢ - لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلاذسي من ٤٢١ - ٤٢٢ مرة الزمان ج ١ ص ١٧١ .
- ٢٠٣ - احدى قلاع ديار بكر . الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٨٢٠ .
- ٢٠٤ - هدم عماد الدين هذه القلعة وعمر مكانها واحدة جديدة حملت اسمه ، العمانية ، معجم البلدان .
- ٢٠٥ - من قلاع ديار بكر .
- ٢٠٦ - بلدة من ديار بكر قرب اسعرد . معجم البلدان .
- ٢٠٧ - هما في اقليم نصيبين .
- ٢٠٨ - بلد بين ماردين والرها اسمها اليوم ويران شهر . اللؤلؤ المذثور من ٥٠٥ .
- ٢٠٩ - بأسوطا الآن في منطقة عفرين محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٦٩ كم .
- ٢١٠ - كان النقاؤون يفتحون ثغرة بأسفل السور تملا أثناء العمل بالخشب ثم تحرق الخشب فينهار السور .
- ٢١١ - لمزيد من المعلومات انظر بغية الطلب ٣٨٥٠ - ٣٨٥١ .

- وانظر ما جاء عند المؤرخ السرياني المجهول .
- ٢١٢ - لمزيد من التفاصيل انظر الباهر ص ٧٠ - ٧٢ .
- ٢١٣ - عزا وليم الصدوري ص ٧٤٢ مقتل زكي الى مؤامرة دبرها صاحب قلعة جعبر .
- ٢١٤ - يكتب ايضا « الجاوش » وهو المنادى الذي يتولى استدفار العساكر لتخرج الى القتال ، وقرانا في الذوادر السلطانية لابن شداد « فركب السلطان وصاح الجاوش فركب العسكر » .
- ٢١٥ - كانوا يذكرون « انه كان عليهم منه جور وظلم في ايام ولايته ، واكثر ما كان يذكر عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجال للقتال والحصار » بغية الطلب : ٢٨٥٢ .
- ٢١٦ - من انواع الذنود النحاسية قد يوازي كل ١٣/ منها درهما فضيا .
- ٢١٧ - انظر بغية الطلب ص ٣٨٥٥ - ٣٨٥٧ . وزالت معالم القبة الآن ، وكانت قد قرب منايعرف الآن بباب بغداد ، ودلت بعض الحفريات الاثرية على مكان القبر .
- ٢١٨ - اولى التفاصيل حول هذه الواقعة عند المؤرخ السرياني المجهول .
- ٢١٩ - انظر الاعلاق الخطيرة . قسم حلب - ج ٢ ص ٤٢٥ .
- ٢٢٠ - الحديث هنا عن حصار دمشق للمرة الثانية الآن من قبل مايعرف بالعملة الثانية ، مع ماثلته من احداث انظر وليم الصدوري ص ٧٧٩ - ٧٩١ .
- ٢٢١ - من عمل حارم ناحية العمق ، ولعلها المعروفة الآن باسم يغله في محافظة ادلب - ناحية كفر تخاريم .
- ٢٢٢ - انظر القصيدة باكملها في الروضتين لابي شامة في موسوعتنا هذه .
- ٢٢٣ - انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .
- ٢٢٤ - انظر حولها الاعلاق الخطيرة قسم حلب - ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٥١ .
- ٢٢٥ - اسمه الآن جامع التوتة ، انظر حوله الآثار الاسلامية ص ٦٣ - ٦٤ .
- ٢٢٦ - تحدث ابن شداد عن هذه المدرسة وترجم للذين درسوا فيها . الاعلاق الخطيرة قسم حلب - ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٧١ .
- ٢٢٧ - حصن كيفا ، وهو قلعة عظيمة مشرفة على بحلة بين اسند وجنيزية ابن عمر . الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٧٨٤ .
- ٢٢٨ - ويقال له تل يعفر وتلعفر ، بلدة بالعراق غربي الموصل على طريق سنجار الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة - ج ٢ ص ٧٧٣ .
- ٢٢٩ - انظر الروضتين ج ١ ص ٦٧ - ٦٨ .
- ٢٣٠ - قال ياقوت ، انب حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب له ذكر ، وفي ايامنا هذه انب قرية تتبع ناحية محمل - منطقة اريحا ، محافظة ادلب ، وتبعد عنها بقرابة كيلو متر واحد تنال انب الاثري ، ويشرف هذا التل على كل من وادي القاب وسهل الروج ، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
- ٢٣١ - انظر وليم الصدوري من ٧٨٩ - ٧٩٣ ، ٨٠٤ ، ٨١٤ .
- ٢٣٢ - انظر القصيدة كاملة في الروضتين ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ .
- ٢٣٣ - انظر القصيدة باكملها في الروضتين ج ١ ص ٦٠ - ٦٢ .
- ٢٣٤ - انظر وليم الصدوري ص ٧٩٣ - ٧٩٤ .
- ٢٣٥ - انظر حولها بغية الطلب ص ٤٢٣ .
- ٢٣٦ - انظر حولها الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٤٣٨ - ٤٤١ .
- ٢٣٧ - انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٤ .
- ٢٣٨ - انظر الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩ .
- ٢٣٩ - ويعرف ايضا باسم كفر سوت ، قرب بهسنا . معجم البلبان .
- ٢٤٠ - من اجل مرعش انظر بغية الطلب ص ٢٣٥ - ٢٣٨ .
- ٢٤١ - من اجل ملوك ، انظر الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٤٣٥ - ٤٣٧ .

- ٢٤٢ - انظر وليم الصدوري ص ٨٠٨ - ٨١٤ .
- ٢٤٣ - بقايا هذا الحصن على مقربة من سلمية على الطريق الواصلة بمدينة حماه .
- ٢٤٤ - انظر بغية الطلب ص ١٦٤٠ - ١٦٤٢ .
- ٢٤٥ - انظر تاريخ ابن القلاسي ص ٥٠٩ .
- ٤٤٦ - انظر وليم الصدوري ص ٨٩٠ - ٨٩٢ .
- ٢٤٧ - الجومة : من نواحي حلب . معجم البلدان .
- ٢٤٨ - اليزك : الحرس المتقدم او الطلائع .
- ٢٤٩ - انظر وليم الصدوري ص ٨٨٧ - ٨٨٨ .
- ٢٥٠ - بحيرة قدس هي بحيرة قطينة حاليا قرب حمص .
- ٢٥١ - انظر وليم الصدوري ب ٨٩٤ - ٩٢٢ .
- ٢٥٢ - تيزين من نواحي حلب ، كانت تعد من اعمال قنشرين . معجم البلدان .
- ٢٥٣ - في الروضتين نقلا عن العماد الاصفهاني « نزلوا على عم ، الروضتين ج ١ ص ١٣٣ ، هذا ويوجد الآن في منطقة حارم قرية اسمها صفصافة .
- ٢٥٤ - انظر وقارن الروضتين ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .
- ٢٥٥ - حصن الشام قرب طرابلس . معجم البلدان .
- ٢٥٦ - بلد بالصعيد الاننى من ارض مصر ، على شاطئ النيل في شرقيه . معجم البلدان .
- ٢٥٧ - على عشرة اميال من المنية . وليم الصدوري ص ٩١١ - ٩١٣ مع وصف المعركة بتفاصيل مفيدة جدا .
- ٢٥٨ - انظر وليم الصدوري ص ٩١٣ - ٩٢٢ .
- ٢٥٩ - هرونين حصن بجبل عاملة في جذوب لبنان العالي انظر معجم البلدان .
- ٢٦٠ - الملوحة قرية كبيرة في قرى حلب .
- ٢٦١ - نبع السرياني في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
- ٢٦٢ - انظر لمزيد من التفاصيل وليم الصدوري ص ٩٢٨ - ٩٣٦ .
- ٢٦٣ - توفي نتيجة نهمه وتخليطه بالطعام . انظر ما ذكره ابن الاذرق الفارقي
- ٢٦٤ - في الروضتين ج ١ ص ١٨٣ : « وساروا اليه وان ابن المهدي وفيليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتها في المقدمة اليه » .
- ٢٦٥ - على مقربة من بلدة ذوى في حوران سورية .
- ٢٦٦ - انظر وليم الصدوري ص ٩٤٨ - ٩٥٣ .
- ٢٦٧ - قلعة قريبة من منطقة صافيتا .
- ٢٦٨ - انظر وليم الصدوري ص ٩٦٢ - ٩٦٣ .
- ٢٦٩ - هي الآن مركز ولاية في تركيا وتبعد عن اذقرة مسافة ٢٢ كم .
- ٢٧٠ - انظر حولها الاطلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .
- ٢٧١ - انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٦ .
- ٢٧٢ - انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٥ .
- ٢٧٣ - قال ياقوت في معجمه « وبقر البلقاء من اطراف الشام موضح يقال له الرقيم ، يزعم بعضهم ان به اهل الكهف ، والمعنى بهذا منطقة البتراء بالارمن .
- ٢٧٤ - خير مصدر حول موضوع التوسع الايوبي في اليمن هو كتاب « السمط الفالي الثمن في اخبار الملوك من الفز باليمن ، احمد بن حاتم الياي - ط . بيروت ١٩٧٤ .
- ٢٧٥ - للصالح اسماعيل ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ١٨٢٢ - ١٨٢٦ .
- ٢٧٦ - يعرف موقعها الآن باسم جامع الشيخ معروف . الآثار الاسلامية ص ٧٢ - ٧٣ .
- ٢٧٧ - أي الطبول . القاموس .
- ٢٧٨ - في بغية الطلب ص ١٨٢٣ : « وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة

- حلب مع شاذبخت ، وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلعت كلمة الامراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج الى الشام ، وطلب أن يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتديبر ملكه .
- ٢٧٩ - كشف حديثاً عن سجن كان تحت الارض في قلعة حلب عثر به على مايزيد عن عشرين من الهياكل العظيمة .
- ٢٨٠ - الضابط المسؤول عن حراسة باب القلعة .
- ٢٨١ - انظر الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص حيث يستخلص ان الجرن الاصغر كان من احياء حلب .
- ٢٨٢ - مسجد السيدة علوية بنت وثاب زوجة ثعال بن صالح وام محمود بن نصر مدفونة فيه الاعلاق الخطيرة قسم - حلب ج ١ ص ١٨١ .
- ٢٨٣ - انظر الآثار الاسلامية ص ٥٤ - ٥٥ .
- ٢٨٤ - انظر الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
- ٢٨٥ - لم يرد اسم هذه الدار او الحمام في الاعلاق الخطيرة .
- ٢٨٦ - انظرها في الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص ٢٣٤ .
- ٢٨٧ - المكان الذي يقوم فيه الآن بناء المكتبة الظاهرية بدمشق .
- ٢٨٨ - منذ ذلك الحين اقيم لصلاح برج خشبي كان لايفارقه خوفاً من الاغتيال .
- ٢٨٩ - وصل الى مرتبة الوصاية على بلدوين بن عموري . وليم الصوري ص ٩٧٦ - ٩٧٧ .
- ٢٩٠ - جبلا زين العابدين وكفراع شمالي حماه .
- ٢٩١ - انظر ماكتبه ابن الازرق الفارقي .
- ٢٩٢ - من منتزهات حلب المشهورة . انظر تاريخ حلب لابن الشحنة - ط . طوكيو ١٩٩٠ ص ١٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .
- ٢٩٣ - انظر تاريخ ابن الشحنة ص ١٣٢ .
- ٢٩٤ - جبل ليلون جبل مطل على حلب بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
- ٢٩٥ - ذكر ابو شامة في الروضتين ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢ نقلاً عن ابن ابي طي ان هذا الرجل اصله من المغرب ظهر اولاً في قرية مشغرا في غوطة دمشق ثم هرب الى بلد حلب ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ ، واعتقد ان لفرد تصحيف لكفر نجد ، وكانت - كما قال ياقوت - قرية كبيرة من اعمال حلب في جبل السماق ، كما ذكرها ابن العديم في بغية الطلب ص ٤٧٧ وكفر نجد الآن من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٧ كم .
- ٢٩٦ - بزاعا بلدة من اعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب .
- ٢٩٧ - من أنواع الدروع السابقة .
- ٢٩٨ - مصيف غربي مدينة حماه .
- ٢٩٩ - تل خالد من الحصون التي كان نور الدين قد انتزعها من جوسلين . انظر تاريخ ابن الشحنة ص ٧٧١ ، ٢١٤ .
- ٣٠٠ - لعل لهذا علاقة بالقيامة التي اعلنت من قبل في فهستان بواسطة امام ألدوت . انظر كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة - ط . بيروت ١٩٧٠ ص ٩٠٠٨ .
- ٣٠١ - افضل المعلومات حول هذا الحدث لدى ابن الازرق وكذلك مرآة الزمان .
- ٣٠٢ - اي الجامع الاموي بحلب .
- ٣٠٣ - على مقربة من باب القلعة الصغير من جانب خندقها . الاعلاق - قسم حلب ج ١ ص ٧١ .
- ٣٠٤ - البغلطاق رداء بلا أكمام يلبس فوق الثياب . انظر معجم مفصل في أسماء الالبسة عند العرب اينهارت دوزي - ط امستردام ١٨٤٥ ص ٨١ - ٨٤ .
- ٣٠٥ - المسؤول عن حفظ مراكب اللالا .
- ٣٠٦ - لعل عدد من استدعاه ممن كان يثق به كان اثنين .

- ٣٠٧ - عم قرية غناء بين حلب وانطاكية. معجم البلدان .
- ٣٠٨ - فلنط لماني كونت فلا ندرز . انظر وليم الصوري ص ١٠٠٥ - ١٠٠٧ .
- ٣٠٩ - انظر وليم الصوري ص ١٠٠٢ - ١٠٠٥
- ٣١٠ - تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب كانت تعد من اعمال قدسرين . معجم البلدان .
- ٣١١ - اطمة الآن من قرى منطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٨٩ كم .
- ٣١٢ - الجمدار المسؤول عن ثياب الحاكم .
- ٣١٣ - ذكراين شداد بعض اسواق حلب في كتابه الاطلاق ، كما ذكر بعضها ابن الشحنة ، واهتم بها طلاس في كتابه الآثار الاسلامية ، راجع القهارس .
- ٣١٤ - في بغية الطلب ص ١٨٢٦ له نحو من ثمانية عشر سنة .
- ٣١٥ - انظره في موسوعة أطراف الحديث النبوي - اعداد محمد السعيد بسيوني - ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٣ ص ١٨٢ .
- ٣١٦ - في مجلة الفرافرة تحت القلعة . انظر الآثار الاسلامية ص ٣٢١ .
- ٣١٧ - الجاندار . حافظ السلاح .
- ٣١٨ - شيوخ الحديد قرية كبيرة في طرف العمق . بغية الطلب ص ٤٧٤ .
- ٣١٩ - حصن الدربسك قريب من بغراس . بغية الطلب ص ١٥١ .
- ٣٢٠ - الاخترين مركز ناحية تابعة لقضاء عزاز في محافظة حلب ، وتبعد عن حلب مسافة ٤٥ كم .
- ٣٢١ - البركسطوانات : دروع الفرسان أو الحيوانات في الحرب .
- ٣٢٢ - البغلة دعامة تبنى للجدار الواهي وتحشي الاساس لتقية من السقوط . موسوعة حلب المقارنة للاسدي ط . حلب - مطبعة جامعة حلب .
- ٣٢٣ - كانت الاحص كورة كبيرة من كور حلب قصبتها خناصره . معجم البلدان ، هذا ونقل ابن العديم في ترجمته لزكري - بغية الطلب ص ٣٨٥٧ - ٣٨٦٤ - وصف نحوه الى حلب عن عمه ووالده .
- ٣٢٤ - تعرف ايضا باسم اشمول ، ذكرها ابن الشحنة ص ٢٤٥ بين منتزهات حلب .
- ٣٢٥ - بارا مدينة في لطف جبل بين ماريدين ونصيبين ذات بساتين ومياه جارية . الاطلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - ص ٧٩٢ .
- ٣٢٦ - باشورة كل قلعة منخلها .
- ٣٢٧ - على مقربة من بالاس انظر الاطلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٢٥ .
- ٣٢٨ - في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ : د فخر عزاز وحصن بزاعا وحصن بالاس وحصن كفرلثا ،
- ٣٢٩ - قلعة مطلة على الفرات قرب جسر منبج. الاطلاق - قسم الجزيرة ص ٨٢٦ .
- ٣٣٠ - سروج بلدة قريبة من حران من نيار مصر . معجم البلدان .
- ٣٣١ - في منطقة منبج قرية اسمها « كرسان » فلعلها الموقع المقصود .
- ٣٣٢ - كفر لثة من قرى منطقة اريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٢٠ كم .
- ٣٣٣ - بليدة بين ماريدين ونيسر من اعمال الجزيرة . معجم البلدان .
- ٣٣٤ - انظر ما ذكره ابن الازرقي الفارقي .
- ٣٣٥ - بابلى وباسلين من منتزهات حلب . انظر الاطلاق - قسم حلب - ج ١ ص ٣٦٧ ، ٣٧١ .
- ٣٣٦ - من منتزهات حلب ، ابن الشحنة ص ٢٤٦ .
- ٣٣٧ - عد ابن الشحنة ص ٢٣٧ بانقوسابين حارات حلب خارج الاسوار .
- ٣٣٨ - من أنواع الذشاب المرم بواسطة الذوابض ، ومعروف ان الاسلحة تطورت كثيرا في هذه الفترة .
- ٣٣٩ - مقام ابراهيم الخليل داخل القلعة .
- ٣٤٠ - الضمير يعود هنا الى زكري ، فقد طالبه الجند بالرواتب المقررة لهم مع التعويضات .
- ٣٤١ - الخبز الراتب .

- ٣٤٢ - أي بدون زفقات ومرتببات .
- ٣٢٣ - في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ « وان يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج وابن تكون بصرى لطمان ، ويكون في خدمة زنكي » .
- ٣٤٤ - كان صلاح الدين شافعيًا .
- ٣٤٥ - امتداد مسقوف لقاعة مشرفة على الشارع يطل منه الحاكم فيرى مايجري بالخارج دون ان يرى وهو بالوقت نفسه متمتع بالحماية .
- ٣٤٦ - لعله اراد ابا موسى الاشعري وماراج بين الناس عن موقفه في التحكيم .
- ٣٤٧ - عبارة بغية الطلب ص ٣٨٦٠ أقوم وأوضح قوله : « ووبخه على ذلك ، فقال وهو بالقلعة : لم نخرج منها بعد ، فمافات شيء ، فاستهزأ به » .
- ٣٤٨ - خارج أسوار المدينة . الاعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص ٦٦ ، ٢٩٦ .
- ٣٤٩ - على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق . بغية الطلب ص ٣٨٦٢ .
- ٣٥٠ - القولة قرية في قضاء الناصرة . معجم بلدان فلسطين لحمد شراب ط . دمشق ١٩٨٧ . وانظر ايضا وليم السوري ص ١٠٦١ - ١٠٦٢ .
- ٣٥١ - ويسمى ايضا جبل طابور ، يقع شرقي الناصرة . معجم بلدان فلسطين .
- ٣٥٢ - انظر وليم السوري ص ١٠٦٥ - ١٠٦٧ - ١٠٦٩ - ١٠٧١ .
- ٣٥٣ - الزريخاناه : مستودع حفظ الاسلحة ، ويبدو من النص انه كان يحفظ به مافضل من دخل الاوقاف .
- ٣٥٤ - مكث ابن شداد لدى صلاح الدين وهو الذي الف حوله كتاب المعاسن اليوسفية .
- ٣٥٥ - من أشهر أئمة الصوفية .
- ٣٥٦ - هي عنجر الحالية في لبنان على مقربة من الحدود السورية اللبنانية الحالية قبل بلدة شتورا .
- ٣٥٧ - لم يرد ذكرها هذا الموقع في المعاجم العامة او المتخصصة بفلسطين ، ويستفاد من وليم السوري ص ١٠٧٠ ، أنه كان على أطراف البحر الميت .
- ٣٥٨ - سبسطية قرية في الشمال الغربي من مدينة نابلس على بعد مسافة ١٥ كم منها . معجم بلدان فلسطين .
- ٣٥٩ - تمثل مدينة جينين (جنين) الرأس الجنوبي للمثلث المتكون من مرج بني عامر . معجم بلدان فلسطين .
- ٣٦٠ - ابن اسد الدين شيركوه ، وكان اقطاعه حمص .
- ٣٦١ - مدينة قديمة فوق الموصل على نجلة بينهما سبعة فراسخ . الاعلاق - قسم الجزيرة ص ٧٦٨ .
- ٣٦٢ - كفر زمار : قرية من قرى الموصل . معجم البلدان .
- ٣٦٣ - شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمنان . معجم البلدان .
- ٣٦٤ - في مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٩ « عيسى بن بلاش » .
- ٣٦٥ - كذا بالأصل ولعلها تصحيف « كمر » أي قباء ونطاق .
- ٣٦٦ - تحولت الى مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية في محلة سوق علي الاشار الاسلامية ص ٢٢٨
- ٣٦٧ - سلف ان ذكرت ان رأس الماء يعرف الآن باسم نبع السريا ومنه تشرب بلدة الشيخ مسكين في حوران .
- ٣٦٨ - بوادي الاردين قرب عقبة الحيق . معجم البلدان .
- ٣٦٩ - كانت طبرية لزوجة القمص - الكونت - ريموند الثالث صاحب طرابلس .
- ٣٧٠ - على بعد ٧ كم غرب مدينة الناصرة . معجم بلدان فلسطين .

- ٣٧١ - صدف بالأصل الى « جفري » .
 ٣٧٢ - صاحبة طبريا .
 ٣٧٣ - كانت يبنا من اقطاعيات الفرنجة الهامة ، وهي تبعد ٧ كم عن البحر وكانت قبل عام ١٩٤٨ محطة قطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
 ٣٧٤ - انظر كتابي حطين - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ١٦٧
 ٣٧٥ - انظر كتابي حطين ص ١٧٠ - ١٧١ .
 ٣٧٦ - هونين الآن في جذوب لبنان .
 ٣٧٧ - كوكب قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة . معجم البلدان .
 ٣٧٨ - سلاف ان نقلنا عن ياقوت ان عفر بلا : بلد بغور الارن قرب بيسان وطبرية .
 ٣٧٩ - هي بحيرة قطينة الحالية .
 ٣٨٠ - هي مدينة طرطوس الحالية .
 ٣٨١ - غير اسمها برغم صحته بالعربية الى قلعة صلاح الدين ، فصيرون اسم مشتق من الصهرة وصهرة الجبل اعلاه .
 ٣٨٢ - انظر الذوادر السلطانية لابن شداد - ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٦٠ - ٦١
 ٣٨٣ - من الواضح ان مصدر ابن العديم هو ابن شداد ، لانه كان من شيوخه - انظر الذوادر السلطانية ص ٦١ - ٦٢
 ٣٨٤ - اليذك : الطلائع .
 ٣٨٥ - انظر الذوادر السلطانية ص ٦٢ - ٦٣ .
 ٣٨٦ - تعرف ايضا باسم كوكب الهوا وهي قرية الى الشمال من بيسان . معجم بلدان فلسطين .
 ٣٨٧ - انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٣ - ٦٥ .
 ٣٨٨ - في المحاسن اليوسفية ص ٦٥ : مرج برغوث .
 ٣٨٩ - ما تزال بقاياها قائمة في جذوب لبنان .
 ٣٩٠ - انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٥ - ٦٦ .
 ٣٩١ - الطشت دار المسؤول عن غسيل اواني السلطان وثيابه واحيانا حمامة ووضوئه .
 ٣٩٢ - الخروبة حصن كان على مقربة من عكا . معجم بلدان فلسطين .
 ٣٩٣ - زيادة اقتضاها السياق .
 ٣٩٤ - من انواع ستائر الحماية والدفاع .
 ٣٩٥ - الاوج سكان المناطق الثغرية المتقدمة .
 ٣٩٦ - تبعا لابن شداد المحاسن اليوسفية ص ٨٧ كان قلج ارسلان على وفاق فسمي مع ملك الالمان .
 ٣٩٧ - التينات : حصن على شاطئ البحر بين بيا س والمصيصة . بغية الطلب ص ٢٢٣ .
 ٣٩٨ - انظر المحاسن اليوسفية ص ٨٧ - ٩٤ .
 ٣٩٩ - انظر المحاسن اليوسفية ص ١٠٠ - ١٠١ .
 ٤٠٠ - انظر المحاسن اليوسفية ص ٩٧ .
 ٤٠١ - انظر حوله بغية الطلب ص ٥٥ - ٥٦ .
 ٤٠٢ - انظر كتابي حطين ص ١٧٨ - ١٨٠ .
 ٤٠٣ - بلدة في نيار بكر يقال لها حاني ايضا الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - ص ٧٨٨ .
 ٤٠٤ - انظر كتابي حطين ص ١٨٢ - ١٨٤ .
 ٤٠٥ - أي من الفضة .
 ٤٠٦ - اران اقليم مشهور بين اذربيجان وارمينية . معجم البلدان .

حواشي القسم الثاني من زبدة الحلب

- (١) أرجح أنه قصد هنا أريحا جبل السماق ، أريحا فلسطين ، وتتبع بلدة أريحا الآن محافظة ادلب ، وتبعد عنها مسافة ١٣ كم وعن المعرة ٢٠ كم ، و ٦٠ كم عن جسر الشفور (الشفر) .
- (٢) رأس العين بلدة في الجزيرة السورية تتبع محافظة الحسكة ، وتبعد عن الحسكة ٨٤ / كم ، وهي إلى الشمال الغربي منها .
- (٣) كذا بالأصل ، وفي مفرح الكروب « غرقوس » ، فلعلها تصحيف « عربسوس » أي « أفسوس » .
- (٤) الارتيق من كور حلب قرب عزاز . بغية الطلب لابن العديم - تحقيق - ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ ص ٤٣٧ .
- (٥) مرض تظهر آثاره على الوجه والجلد .
- (٦) تصغير قلة ، وهي أعلى مكان في القلعة ، أو أنها تصحيف « قبيلة » .
- (٧) كان يعرف أيضا باسم تل عرن ، وهو ما يزال يحمل الاسم نفسه ، وهو قرية في جبل الأحص تتبع منطقة السفيرة - محافظة حلب ، وتبعد القرية ٥ كم عن السفيرة ، يتوسطها تل كبير ، هو تل عرن . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
- (٨) خريبة على رؤوس المواشي عرفتها بلاد الشام حتى وقت قريب .
- (٩) حصن على أربعين ميلا من ملطية ، في الجنوب الشرقي منها .
- (١٠) كذا بالأصل ، ولعله أراد « الملقى » ، أو أنها تصحيف « الحلقة » .
- (١١) كذا بالأصل ولعلها « يغزو » .
- (١٢) ما تزال تحمل الاسم نفسه قرب سلمية ، يراها على يمينه الخارج من سلمية إلى حمّاه .
- (١٣) أي ما يماثل مدير المراسم .
- (١٤) هي توقّات عند ياقوت ، بلدة بين قونية وسيواس .
- (١٥) قراءة ترجيحية ، بسبب طمس مطلع السطر .
- (١٦) فراغ بالأصل .
- (١٧) فراغ بالأصل .
- (١٨) فراغ بالأصل .
- (١٩) على مقربة من قونية .
- (٢٠) جاء في نهاية هذه الصفحة من مخطوطة باريس : يقول كاتبها : كتبت هذه النسخة من خط مؤلفها المولى صاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن عبد الله بن أبي جمانة الحلبي ، رحمه الله تعالى ، ورخصي عنه ، وهذا آخر ما وجدته بخطه .
- وذلك لأحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ست وسبعين وستمائة ، أحسن الله نعماتها ، والحمد لله ، وصلاته على نبيه محمد وسلم .

حواشي تراجم بغية الطلب

- (١) قال عنها ياقوت في معجمه : بلدة مشهورة عظيمة ، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان .
(٢) كذا في الاصل . هذا ولم يصلنا حرف « الميم » من بغية الطلب .
(٣) بائياس الجولان انظر تاريخ دمشق لابن القلاذسي تحقيق : ٣٧٢ - ٣٧٩ .
(٤) أسعر الحرب : أو قلها . القاموس .
(٥) تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٤١٥ و .
(٦) جبلان صغيران الى الشمال من حماء اسمهما « جبل زين العابدين وجبل كفراع » .
(٧) تحمل بقاياها الان اسم بعيرين . وقامت على مقربة من ريفية ، وكانت ذات مسكنة كبيرة في هذه الفترة . وهي تابعة الان اداريا لمنطقة مصياف . وتبعد عن بلد مصياف ١٧ كم وعن حماء ٤٢ كم .
(٨) خارج حلب . انظر الجزء الاول ص ٣٤٧ .
(٩) موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفيديق . معجم البلدان .
(١٠) في محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٢٢١ .
(١١) محلة الفرافرة . انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٧ .
(١٢) كذا بالاصل ، وهو وهم صوابه « خمسمائة » .
(١٣) لقد سبق لابن العديم ان أورد هذه الاسماء ، سلطان شاه ، وابراهيم ، ومبارك ، انظر ترجمة رضوان السابقة .
(١٤) ابن عساكر الظاهرية ، ٣٣٦٨ ، ٣ / ٤١ - ظ ، وقد نقل ابن العديم كل ما أورده ابن عساكر في ترجمة الب ارسلان اللهم الا كلمة ببالس « حيث قتل اليايا » . (١٥) انظر العظمي : ٣٨١ - ٣٨٢ .
(١٦) كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان . معجم البلدان .
(١٧) قلعة حصينة في شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان . معجم البلدان .
(١٨) خربت أو خربوط أو حصن زياد ، في أقصى نيار بدر . بينه وبين ملطية مسيرة يومين . معجم البلدان .
(١٩) قلعة حصينة وبلدة من نواحي ارمنية بين أرزن الروم و خلاط . معجم البلدان .
(٢٠) من سنة ٥١٧ هـ . لمزيد من التفاصيل انظر كتابي الحروب الصليبية ٢ / ٥٩٦ - ٥٩٨ ، ٧٦٤ .
(٢١) لم اعثر على ترجمة لرضوان بن تقش في تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠ .
(٢٢) كان من عادة امراء السلاجقة تطليق بعض زوجاتهم لاسباب دينية وسياسية ، وعندما كانت احدى الزوجات تطلق كان ينعم بها على احد رجالات الدولة لتوثيق صلته بالاسرة الحاكمة ، ثم ليقيم بترية ابن الامير أو السلطان من هذه المطلق ، وصار يروج ، بجيد يعرف باسم اتابك . وكلمة اتابك هي كلمة مركبة من اُتا ومعناها أب أو عم وبك التي تعني اميرا أو مقدم أو ما يعادل ذلك من القاب الزعامة ، لقد كان هنا هو اصل منصب الاتابك الذي تطور فيما بعد تطورا كبيرا حيث كسب صفاتا كثيرة جديدة .
(٢٣) دقاق بن تقش صاحب دمشق . انظر ترجمته المذشورة ضمن هذا الكتاب .

- (٢٤) انظر نص العظيمي .
 (٢٥) كورة من كور حلب وقعت بينها وبين انطاكية . معجم البلدان .
 (٢٦) اي علم وفهم - القاموس .
 (٢٧) لم يصلنا ايا من كتب حمدان .
 (٢٨) تاريخ دمشق لابن عساكر : ٥ / ١٤٤ - ط .
 (٢٩) اي من اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح وكنت معادية للفاطميين المستعلية في القاهرة تمارس ضدهم وضد سواهم الاغتيال السياسي الطقوسي . انظر هولهم كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة الذي ترجمته الى العربية ط . بيروت ١٩٧١ .
 (٣٠) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة اوطاني » .
 (٣١) كتب ابن العديم في الهامش « في نسخة لاحلب » .
 (٣٢) ما تزال تحمل هذا الاسم نفسه وتتبع الآن محافظة ادلب - منطقة حارم وتبعد عن ادلب مسافة / ٧٦ كم .
 (٣٣) الشاعر المشهور ، سلفت ترجمته في المجلة السابقة فيمن اسمه الحسن .
 (٣٤) التكهيل هنا امرار ميل محمى على الجفنين حتى يلتصقا .
 (٣٥) بناها الشريف العتيتي مقدم احداث حلب جنوب القلعة الكبيرة . انظر كتابي اماره حلب - ط . دمشق ١٩٨٨ من ١٧٨ - ١٧٩ .
 (٣٦) منظمة شعبية بلدية اشبه بأنواع الميليشيات ، انظر كتابي اماره حلب : ٢١٦ - ٢٢٠ .
 (٣٧) صاحب تل باشر .
 (٣٨) قرية كبيرة ظاهري حلب ، معجم البلدان .
 (٣٩) قرية في احواز حلب .
 (٤٠) من قرى اطراف مدينة حلب .
 (٤١) لفظة فارسية تعني القائد الكبير ، او الاعلى .
 (٤٢) تاريخ العظمي : ٣٧٧ - ٣٨١ باختصار شديد .
 (٤٣) انظر العظمي : ٣٦٨ .
 (٤٤) انظر العظمي : ٣٦٤ .
 (٤٥) انظر العظمي : ٤٩٩ .
 (٤٦) مربنا المزيد من التفاصيل في ترجمة البرسقي .
 (٤٧) لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي تحقيقي ط . دمشق ١٤٠٣ : ٣٦٦ - ٣٦٧ .
 (٤٨) مواشي ودواب وقطعان السلطان .
 (٤٩) لم آلف على تعريف لهذا الموضع .
 (٥٠) في جنوب العراق من قبائل عقيل بالاحصل .
 (٥١) كان اسم قلعة جعبر قديما « دوسر » وذلك قبل ان يستولي عليها في القرن الخامس هـ جعبر بن سابق الاشيري الذي منحها اسمه .
 (٥٢) انظر تاريخ العظمي : ٣٧٠ - ٣٧٤ . ولزيد من التفاصيل انظر تاريخ وليم الصوري ترجمتي - ط . بيروت ١٩٨٩ ح ٢ من ٦٢٧ - ٦٢١ .
 (٥٣) اي يخيفه تعرضه للتعرق .
 (٥٤) هذا موقف رائع قلما نجده عند مؤرخ آخر .
 (٥٥) لم استطع الوقوف عليه .
 (٥٦) كتب ابن العديم في الهامش : اظنه واوهنت .
 (٥٧) الرجل السريع الاستماع للصوت الخفي ، والفهم . القاموس .

- (٥٨) الال : العهد والخلف والجار والقرابة . القاموس .
(٥٩) ضرب من الفلوس يتفاوت صرفها بالنسبة للدينار بين أن وآخر .
(٦٠) مقامات الحريري - ط . القاهرة - محمد علي صبيح وأولاده - المقامة التاسعة والثلاثون - العمانية ص ٤٣٥ .
(٦١) تاريخ العظمي : ٣٨٧ .
(٦٢) اعظم واشهر بلاد اذربيجان . معجم البلدان .
(٦٣) اي مقدار .
(٦٤) بلد مشهور من أعمال اذربيجان حصن كثير الخير والفواكه . معجم البلدان .
(٦٥) مقدم أحداث حلب .
(٦٦) طغتكين أتابك دمشق .
(٦٧) ليس في كتاب تاريخ العظمي الموجود ، ولعله مما أورده العظمي في تاريخه الكبير الذي يعتبر بحكم المفقود .
(٦٨) انظر العظمي . ٣٧٢ .
(٦٩) انظر العظمي : ٣٧٤ .
(٧٠) انظر العظمي : ٣٧٧ .
(٧١) اي قفز .
(٧٢) كذا في الاصل والصحيح هو مودود ، على أنه يرد كذلك في بعض المصادر .
(٧٣) لم اقف لرعدوان على ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، مخطوطة الظاهرية ، المجلد السادس رقم ٣٤٥٠ .
(٧٤) انظر العظمي : ٣٩١ - ٣٩٢ .
(٧٥) عرفت حلب وغيرها من مدن الشام ولا سيما دمشق منصب رئيس المنيعة منذ القرن الخامس او قبيل ذلك . وغالبا ما كان مقدم الاحداث هو الشاغل لهذا المنصب ، وهذا ما مكنته من شغل دور فعال ومؤثر .
(٧٦) نسبة الى تقي الدين عمر الذي سيكون صاحب حماء ومؤسس حكم الاسرة الايوبية فيها .
(٧٧) كذا بالاصل ، بدلا من رؤوس ، ونسبت الأقمشة المهداة الى مصدر صنعها .
(٧٨) الاضراس : اشتداد الزمان . والافراخ : الافزاع - القاموس .
(٧٩) انظر سيرة صلاح الدين لابن شداد - ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٣٩ .

المحتوى

- ٣ - توطئة
- ١٠ - من زينة الحلب
- ١٢ - سليمان بن قتلمش يحاول احتلال حلب
- ١٤ - مقتل سليمان بن قتلمش
- ١٥ - وصول عساكر ملكشاه الى حلب
- ١٧ - ولاية قسيم الدولة اقسنقر
- ١٩ - اعتقال خلف بن ملاعب
- ٢٠ - تتش والسلطنة
- ٢٢ - مقتل قسيم الدولة
- ٢٤ - مقتل تتش
- ٢٥ - رضوان بن تتش في حلب
- ٢٦ - عودة خلف بن ملاعب
- ٣٢ - وصول الفرنجة الى انطاكية
- ٣٧ - مقتل المجن الفوعي
- ٣٩ - الفرنجة يحاصرون معرة النعمان
- ٤٢ - تسلم دقاق بن تتش الرحبة
- ٤٢ - مسير جناح الدولة حسين الى حمص
- ٤٤ - موت دقاق
- ٤٥ - مقتل خلف بن ملاعب
- ٤٧ - مودود صاحب الموصل والفرنجة
- ٤٩ - استصراخ أهل بغداد ضد الفرنجة
- ٥١ - مشاكل رضوان بحلب
- ٥٣ - وفاة رضوان
- ٥٣ - وصول مودود الى الشام
- ٥٢ - القبض على الباطنية بحلب
- ٥٦ - سوء ادارة لؤلؤ اليايا
- ٦١ - قتل لؤلؤ اليايا
- ٦٤ - استدعاء ايلغازي الى حلب
- ٦٨ - معركة دانيث
- ٧٣ - قراربيدس من الخليفة المسترشد
- ٧٤ - الحروب ضد الكرج
- ٧٥ - عصيان سليمان بن ايلغازي على ابيه
- ٧٦ - بلك يقاتل الفرنجة
- ٧٨ - بلك ياسر جوسلين
- ٨٠ - بلك ياسر بغدوين صاحب القدس
- ٨١ - محاولة جوسلين وبغدوين الفرار

- ٨٢ - حصار حلب
- ٨٥ - مقتل بلك
- ٨٥ - وصول تمرتاش الى حلب
- ٨٧ - اطلاق سراح بغدوين
- ٨٨ - تحالف دبيس مع الفرنجة
- ٨٩ - حصار حلب
- ٩٠ - الحلبيون يستنجدون بتمرتاش
- ٩١ - الحلبيون يستنجدون بالبرسقي
- ٩٢ - رفع الحصار عن حلب
- ٩٣ - نشاطات البرسقي ضد الفرنجة
- ٩٦ - مقتل البرسقي
- ٩٦ - تملك مسعود بن البرسقي الموصل
- ٩٧ - وصول خذلغ ابة الى حلب
- ٩٧ - تملك زنكي الموصل
- ٩٨ - تملك زنكي حلب
- ٩٩ - زواج زنكي من ابنة رضوان
- ١٠٠ - اعمال زنكي التوسعية
- ١٠١ - زنكي يعتقل سونج بن طفتكين
- ١٠٢ - وصول دبيس الى صلخد
- ١٠٣ - دبيس في حلب
- ١٠٣ - نهاب دبيس الى السلطان ومقتله
- ١٠٤ - فتن بين الفرنج
- ١٠٥ - استراد صاحب دمشق حماه
- ١٠٦ - عزم اتابك على قصد دمشق
- ١٠٩ - نهاب زنكي الى بغداد
- ١١٠ - وصول ملك الروم الى انطاكية
- ١١٢ - حصار بزاعا من قبل الروم
- ١١٣ - حصار شيزر
- ١١٤ - علاقات زنكي بدمشق
- ١١٥ - زلازل بالشام
- ١١٧ - وفاة قاضي حلب جد المؤلف
- ١١٩ - فتح الرها
- ١٢٠ - مقتل جقر بالموصل
- ١٢١ - مقتل زنكي
- ١٢٣ - نور الدين يسترد الرها
- ١٢٤ - الالمان والفرنجة يحاصرون دمشق
- ١٢٥ - تجمع الفرنج لقصد حلب
- ١٢٥ - نور الدين يجدد المدارس ويجلب العلماء
- ١٢٦ - وفاة غازي بن زنكي
- ١٢٦ - توجه نور الدين الى سنجار
- ١٢٧ - معركة حارم
- ١٢٩ - اسر جوسلين

- ١٣١ - أخذ نور الدين دمشق
- ١٣١ - زلازل في بلاد الشام
- ١٣٣ - مرض نور الدين
- ١٣٤ - فتنة في حلب
- ١٣٥ - ولاية الشهرزوري القضاء
- ١٣٦ - هزيمة نور الدين قرب المقيعة
- ١٣٨ - ارسال شيركوه الى مصر
- ١٤٠ - معركة حارم
- ١٤١ - استرداد بانياس
- ١٤١ - سنة ٥٦١
- ١٤٢ - عودة شيركوه الى مصر
- ١٤٣ - عصيان غازي بن حسان بمنبج
- ١٤٣٤ - اخذ نور الدين قلعة جعبر
- ١٤٤ - مسير شيركوه ثالثة الى مصر
- ١٤٥ - وزارة شيركوه ووفاته
- ١٤٥ - وزارة صلاح الدين
- ١٤٦ - زلازل بالشام
- ١٤٧ - مسير نور الدين الى سنجار
- ١٤٨ - قطع خطبة العاضد بمصر
- ١٤٩ - الخلافات بين نور الدين وصلاح الدين
- ١٥١ - صلاح الدين يرسل اخاه الى اليمن
- ١٥٢ - وفاة نور الدين
- ١٥٤ - الصراع على السلطة بعد نور الدين
- ١٥٥ - نهاب الصالح اسماعيل الى حلب
- ١٥٦ - فتن بحلب
- ١٥٩ - قدوم صلاح الدين الى الشام
- ١٦٠ - حصار صلاح الدين حلب
- ١٦١ - معركة قرون حماء
- ١٦٣ - معركة تل السلطان
- ١٦٤ - محاولة اغتيال صلاح الدين
- ١٦٤ - حصار حلب
- ١٦٥ - رحيل صلاح الدين الى بلاد الاسماعيلية
- ١٦٧ - الصالح يحاول اخذ حارم
- ١٦٩ - سنة ٥٧٤
- ١٧٠ - سنة ٥٧٥
- ١٧١ - موت غازي صاحب الموصل
- ١٧٢ - موت الصالح اسماعيل
- ١٧٣ - عز الدين صاحب الموصل في حلب
- ١٧٧ - مقايضة حلب بسنجار
- ١٧٩ - عودة صلاح الدين الى الشام
- ١٨٢ - حصاره لحلب
- ١٨٦ - صلاح الدين يتسلم حلب

- ١٨٩ - الملك العادل يتسلم حلب
١٩١ , ٥٨٠
١٩٢ - حصار الموصل
١٩٣ - مرض صلاح الدين
١٩٣ - وفاة صاحب حمص
١٨٤ - اعانة حلب للظاهر غازي
١٩٧ - معركة حطين
١٩٩ - قتل ارنط
٢٠٠ - تحرير القدس
٢٠٢ - سنة ٥٨٤
٢٠٣ - تحرير الساحل الشامي
٢٠٦ - تحرير صفد
٢٠٧ - الهدنة مع انطاكية
٢٠٨ - بداية حصار عكا
٢١٠ - اخبار الحملة الالمانية
٢١١ - وقائع حصار عكا

- ٢١٤ - سقوط عكا
٢١٥ - وفاة تقي الدين عمر
٢١٥ - الهدنة مع الفرنج
٢١٦ - عربة السلطان الى دمشق
٢١٧ - وفاة السلطان صلاح الدين
٢١٨ - الصراعات الايوبية بعد صلاح الدين
٢٢٧ - سنة ٥٩٥
٢٣٠ - سنة ٢٩٦
٢٣٧ - سنة ٦٠٠
٢٣٨ - سنة ٦٠٢
٢٤٥ - سنة ٦١١
٢٤٧ - سنة ٦١٣
٢٥٣ - سنة ٦١٥
٢٥٦ - سنة ٦١٦
٦٥٨ - سنة ٦١٧
٢٦٠ - سنة ٦١٩
٢٦١ - سنة ٦٢٠
٢٦٤ - سنة ٦٢٣
٢٧١ - سنة ٦٢٨
٢٧٥ - سنة ٦٣١
٢٨١ - سنة ٦٣٤
٢٨٥ - سنة ٦٣٥

★ ★ ★

- ٣٠٥ - تراجم من بغية الطلب

- ٧٤٩٩ -

- ٣٠٧ - احميل الكندي
- ٣٠٨ - اسماعيل بن بوري
- ٣٠٩ - اسماعيل بن محمود بن زكي
- ٣١٤ - اق سقر البرسقي
- ٣٢٢ - الب ارسلان بن رضوان
- ٣٢٦ - الب ارسلان بن محمود
- ٣٢٨ - حسان بن كمشتكين
- ٣٢٩ - جناح الدولة حسين
- ٣٣٢ - حمدان بن عبد الرحيم الثاربي
- ٣٤٢ - ختلغ آبه
- ٣٤٥ - خلف بن ملاعب
- ٣٥١ - ديبس بن صداقة
- ٣٦٩ - رضوان بن تقي
- ٣٧٨ - زكي بن اسقر
- ٣٩٢ - زكي بن مودود
- ٤٠١ - الحواشي والتعليقات